

٢	فاتحة الكتاب
٣	توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى
٥	الآثار العجيبة التي أبدعها مبدع الكائنات
٧	رأس الحكمة مخافة الله تبارك وتعالى
١٠	فوائد ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام
١٣	ما هي الحاجة الماسة الى الدين والجامعة
١٦	فوائد اتحاد الأمة ومضار تنازعها
١٩	فوائد التعاون والمساعدة
٢٢	العقل وفوائده
٢٤	فوائد العلم ومضار الجهل
٢٨	المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه
٣٠	اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً
٣٤	فوائد تعميم المنافع - لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه

صحيفة

٣٧	لكل امرئ من دهره ما تعودا
٤١	فوائد المدارس
٤٣	فوائد المعارص العمومية
٤٤	أى الأمرين أكثر نفعاً للمتعلّم أتعليمه بالرغبة أم تعليمه بالرهبة
٤٨	ما هي الحاجة الملّاسة الى بناء المستشفيات للفقراء
٥٠	الجبال وفوائدها
٥٢	البراكين والزلازل ومنشؤهما
٥٤	هل مقادير الرجال بالأعمال أو بالمال
٥٧	الاعتماد على النفس
٦١	قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
٦٤	الدين أشد أنواع الفقر
٦٧	حب الوطن
٦٩	الآثار القديمة أو المتاحف

لا خير في علم بلا عمل	٧١
لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله	٧٣
ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه	٧٦
على من تلقى مسئولية التربية أعلى الوالدين أم على المدارس	٧٩
هل الأفيد تقسيم الدراسة الثانوية الى أدبي وعلمي كما هو الآن - أو توحيدها كما كان	٨٣
فوائد الحرية	٨٥
الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان	٩٢
المساواة	٩٥
الاجاء ضروري للبشر	٩٩
فوائد التكافل والتضامن	١٠٢
فوائد الاستقلال	١٠٨
العدل أساس الملك	١١٤
العدل بين الأجرام وسائر الأجسام	١١٦

صفحة

عدل الانسان مع نفسه	١١٧
عدل الراعى مع رعيته	١١٨
عدل الرعية مع راعيها	١٢٠
العدل مع الأ كفاء	١٢٠
فوائد الأمانة ومضار الخيانة	١٢١
تأثير الأخلاق الفاضلة فى الأمم	١٢٣
مستقبل الأمة برجالها	١٢٦
الأعمال قيم الرجال	١٣٠
فوائد المزاجية وتأثيرها فى الارتقاء البشرى	١٣٤
لم لم تؤثر الخطباء والكتاب فى المصريين	١٣٧
فوائد الجرائد	١٤١
فوائد الاقتصاد وما يترتب عليه من الاسعاد	١٤٣
إذا رزقم أموالاً عظيمة فقيم تصرفونها	١٤٦
المرأة أستاذ العالم	١٤٨

صحيفة

- | | |
|--|-----|
| أذكر طرق المعيشة واختر منها لنفسك طريقا | ١٦٠ |
| الناس من خوف الفقر في الفقر | ١٦٤ |
| فوائد صناديق التوفير | ١٧١ |
| هل الفوائد الناجمة عن تأليف الشركات في بلادنا من
الأجانب مشتركة بيننا وبينهم أو عائدة عليهم فقط | ١٧٤ |
| وصف روضة | ١٧٦ |
| وصف مصر ونبيلها السعيد | ١٧٨ |
| فوائد النور ومضار الظلمة | ١٨١ |
| فوائد اللغة العربية ومزاياها على سائر اللغات | ١٨٢ |
| ما هي الحاجة الماسة الى حفظ اللغة العربية الفصحى
ومضار هجرها واستعمال اللغة العربية العامية كتابة ونطقا | ١٨٤ |
| فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وانارتها | ١٨٧ |
| من كمال الشجاعة الحزم | ١٨٨ |
| الأيام صحائف الأعمار فخلدوها بصالح الأعمال | ١٩١ |

صحيفة

- ١٩٥ اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير
حيث تكره
- ١٩٨ فوائد ومضار الانتقاد
- ٢٠١ التدبير والنظر في العواقب يفعلان مالا تفعله الكتاب
- ٢٠٣ فوائد ومضار التقليد
- ٢٠٧ الربا ومضاره
- ٢١٠ العائلة بالاباء خيرا بخيرهم وشرها بشرهم
- ٢١٤ المرء قليل بنفسه كثير باخوانه
- ٢١٧ فوائد الوقار ومضار الاحتقار
- ٢٢١ ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرؤن بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون
- ٢٢٤ هل نحن في عصر المدنية
- ٢٢٨ هل الأفيد اجبار الحكومة كل شاب على الجندية أو
اطلاق سراح الموسر الذي يفدى نفسه وأسر المعسر

صحيفة

- ٢٣١ مدارج الانسان في معترك الحياة
- ٢٣٧ مدينة الاسلام
- ٢٥٨ من سعى رعى ومن نام لزم الاحلام
- ٢٦٥ فوائد النور الصناعي المسمى بنور الغاز
- ٢٦٦ وصف حقيقة الازبكية
- ٢٦٩ فوائد القضاء والحاماة وأيهما أنفع للهيئة
- ٢٧٣ فوائد الصدق ومضار الكذب
- ٢٧٦ أيهما أنفع للهيئة الاجتماعية الطيب أم المعلم
- ٢٧٧ وصف الامتحان المنعقد بنظارة المعارف
- ٢٧٩ لتاريخ وفوائده
- ٢٨٠ علو الهمة من الايمان
- ٢٨٣ مضار الحرب وفوائد السلم
- ٢٨٦ فوائد المشورة
- ٢٨٩ الزراعة وفوائدها

صحيفة

- ٢٩١ فوائد النباتات والاشجار
 ٢٩٣ البخار وفوائده
 ٢٩٥ التجارة وفوائدها
 ٢٩٧ الصناعة وفوائدها
 ٢٩٨ تكون المطر
 ٢٩٩ الماء وفوائده
 ٣٠١ اللغة العربية والتاريخ
 ٣١٤ نهر النيل وفوائده
 ٣١٥ وصف يوم ذهبت أنواره وأظلم نهاره وكثرت أمطاره
 ٣١٦ فوائد النار ومضارها
 ٣١٧ وصف حمام وفوائده
 ٣١٩ فوائد الحيوانات والرفق بها
 ٣٢٠ فوائد الوفاء بالوعد ومضار خلف العهد
 ٣٢٢ مضار الرشوة

صحيفة

فوائد الصبر ومضار القنوط والجزع	٣٢٤
في التآني السلامة وفي العجلة الندامة	٣٢٥
الوقت كالسيف ان لم تقطه قطعك	٣٢٧
أى الشخصين يؤثر في النفوس الوازع الدينى أو الوازع	٣٢٩
السياسى	
فوائد الكرم ومضار البخل	٣٣١
رضاء جميع الناس غاية لا تدرك	٣٣٣
الصحة أم الثروة	٣٣٤
فوائد السكك الحديدية	٣٣٦
فوائد الثناء والشكر ومضار جحود النعم والكفر	٣٣٧
وصف حديقة الحيوانات بالجيزة	٣٣٩
فوائد التواضع ومضار الكبر والترافع	٣٤١
فوائد اطاعة أولياء الأمور	٣٤٤
فوائد التربية	٣٤٥

- ٣٥٠ لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب
- ٣٥٢ اذا أراد الانسان السفر برأ ولم يكن فيه سكك حديدية
فما الذي يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان
- ٣٥٣ فوائد العتاب ومضاره
- ٣٥٤ الطب والأطباء في الهيئة الاجتماعية
- ٣٥٥ أيهما أفضل وأنفع للآباء المال أم الأبناء
- ٣٥٧ من عرف نفسه فقد عرف ربه
- ٣٥٨ فوائد اللسان ومضاره
- ٣٥٩ عز من قنع وذل من طمع
- ٣٦١ فوائد دار الأتار العربية
- ٣٦٢ مزار الغيبة وقبائحها
- ٣٦٣ مزار الحسد وأسبابه
- ٣٦٥ العاقل يعول على أدبه والجاهل يعتمد على نسبه
- ٣٦٨ أيهما أفضل في بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء

صحيفة

٣٦٩	صغار الأمور يولد كبارها
٣٧١	النميمة ومضارها
٣٧٣	فوائد البريد (البوسته) والاسلاك البرقية (التلغراف)
٣٧٤	فوائد السباحة في الماء
٣٧٥	فوائد الأعضاء الجسمية من الرياضة البدنية
٣٧٧	من أقوى أسباب النجاح الهجرة والسفر
٣٧٩	ورق النصب ومضاره
٣٨٠	الاستقامة من أقوى أسباب النجاح
٣٨٢	منافع الفحم ومضاره
٣٨٤	الهواء وفوائده
٣٨٥	فوائد التمثيل
٣٨٧	فوائد الثبات في الأعمال والمثابرة عليها
٣٩٠	مضار القمار
٣٩٣	فوائد الاجتهاد ومضار الكسل

صحيفة

الخزان وفوائده	٣٩٦
المطابع وفوائدها	٣٩٨
الحديد أنفع أم الذهب	٤٠٠
فوائد الحلم ومضار السفه	٤٠١
هل اللين أنفع أو الشدة	٤٠٣
ما هو الغرض من قدوم السياح الى بلادنا المصرية وما	٤٠٥
هي الفوائد العائدة اليها منهم	
فوائد تعلم اللغات الأجنبية	٤٠٨
هل الرزق بالسعي والجد أم بالحظ والسعد	٤١٠
هل السكنى في المدن أفضل أو السكنى في القرى	٤١٤
ما هو الأفضل القلم أم السيف	٤١٤
السكر ومضاره	٤١٧
فوائد ومضار الورق المستعمل بدل النقود	٤١٨
حالة الأمة اذا فقدت لغتها	٤١٩

من عفا عن يستحق العقوبة كان كمن حرم من يستحق	٤٢١
المثوبة	
فوائد التصوير الشمسي	٤٢٣
أيهما أنفع للانسان العزلة أو الاجتماع	٤٢٤
لو أنني خیرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق	٤٢٨
وصف حريق هائل	٤٣١
وصف يوم شم النسيم	٤٣٣
لا ينجح الأمل الا بالعمل	٤٣٤
هل الأفيد للمملكة الرجال أو المال	٤٣٦
هل الأتفع لمن عنده مال أن يصرفه في تعليم أولاده	٤٤٠
أو يبقیه میراثا لهم بعد مماته	
الكفاف مع العمل أهنا أم الثروة مع البطالة	٤٤٤
الاحساس والشعور	٤٤٦
يد الله مع الجماعة	٤٥٠

صحيفة

- ٤٥٣ | خطابة تتضمن نهضة الأمة وحياتها ماديا وأديا
- ٤٨١ | رب قول أنفذ من صول
- ٤٩١ | عدو عاقل خير من صديق جاهل
- ٤٩٤ | فوائد رجال الشرطة (البوليس)
- ٤٩٦ | فوائد الشجاعة ومزار الجبن
- ٤٩٩ | ان الشباب والقراع والجده مفسدة للمراء أى مفسدة
- ٥٠٢ | وصف الدهر وعجابه
- ٥٠٤ | وصف الحياة الدنيا
- ٥٠٩ | لا تصلح الناس فوضى لا سراحة لهم
ولا صلاح اذا جهالهم سادوا
- ٥١٤ | وما المرء الا حيث يجعل نفسه
فكن طالباً فى الناس أعلا المراتب
- ٥١٦ | سفن الهواء
- ٥٢٠ | المرء بأصغريه قلبه ولسانه

صحيفة

٥٢٢	ما يجب على الانسان أن يعمل له لذاته
٥٢٣	احتفظ على شرفك المختص بشخصك وأئمه
٥٢٥	هب أنك وليت الملك فماذا تعامل أمتك لتكون
	محبوبا عندهم

﴿ تم الفهرست ﴾

الكتاب

في

مناحي الأنتشار القوي

مواضيع انشائية - شرعية - أدبية - وعظية - حكيمية - فلسفية - تاريخية - اقتصادية
طبية - طبيعية - سياسية - زراعية - صناعية - تجارية - جغرافية - عمرانية - قضائية

بالف

﴿ أحمد الهاشمي ﴾

(مراقب مدارس فكتوريا الانجليزية)

﴿ الطبعة الثانية ﴾

﴿ حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نتلو آيات الحمد والثناء . على من أنشأ آدم وعلمه الأسماء
وأنطق بنيه باللغات البينات . في عموم الأسماء والجهات . وروى
أحاديث الصلاة والتسليم . على سيدنا محمد المنزل عليه القرآن
الكريم . والمرسل بدينه القويم . ذى (الأسلوب الحكيم)
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهادين الى الصراط المستقيم
﴿ أما بعد ﴾ فان العلوم وان كثرت رياضها . وتدققت
بالتفوائد حياضها . فأبهجها حديقة سقيت أدواحها بماء الكمال
وأينعت أزهارها فأنبئت مكارم الأخلاق وحميد الخلال
(علم الأبناء) الموصل الى حسن صياغة الكلام تترأ ونظماً
على أساليب العرب العرباء . وانى لما عنيت بتدريس هذا العلم
فى المدارس الثانوية بذلت جهدى . وجدت بما عندى
وان كنت قليل البضاعة . فى هذه الصناعة . وجلت فى مضمار

المحسنات . وقلت (انما الأعمال بالنيات) وصنعت هذا الكتاب
الجليل . وألفت هذا المصنف الجميل . وشرحت فيه مواضع
الانشاء العصرية . مستنداً في شرحي الى الآيات القرآنية
والأحاديث الصحيحة النبوية . وضمنته الجمل الغفير من أمثال
الحكماء . وآداب البلغاء . وكلام الشعراء . من كل ما تروح
اليه الأفهام . وتزاح به عن الذهن الأوهام . وتأييد به
السعادة . وتأييد به السيادة . وبالجملة فقد أودعته ما يكون
لأهل وطني ذخراً . ويعقبه النجاح دنيا وأخرى . وسميته
﴿ أسلوب الحكيم . في منهج الانشاء القويم ﴾ بيداني لأشك
في أن كثيرين من الفضلاء تنجلي لهم حقائق أخرى بهذه
المواضيع لم تنجلي لي فينقصها كتابي هذا أو أنهم يرون في
بعض المواضيع غير ما رأيت وأصح منه فأكون قد أخطأته
فلذلك أمتن سلفاً لكل أديب مخلص النية على ما يتحفي به
من ملاحظاته — وأسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحني توفيقه
في المبدأ والختام . وأن ينفع بهذا الكتاب الخاص والعام

المؤلف

أحمد الهاشمي

﴿ توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى ﴾

سبحان الذى توحد بوجود الوجود ودوام البقاء
وتفرد بامتناع العدم واستحالة الفناء . دلّ على وجوده خلق
الأرض والسماوات العلى . وشهد بوحدانيته انتفاء الفساد عن
الأرض والسما . تنزهه عن مشابهة الأمثال والأكفاء
وتقدّس عن الحدوث والانقسام والتأليف والأجزاء . أحاط
علمه بدبيب النملة السوداء . على الصخرة الصماء . فى دياجير
الظلماء . وأبدع المواد بقدره قديمة ممتنعة عن الانتهاء . له
الأعادة ومنه الأبداء . دبر الكائنات . وأحصى المخلوقات
وأحاط علمه بما لا يتناهى عدّه واحصاؤه . جلت قدرته
وتباركت أسماؤه . وعظمت نعمته وعمت آلاؤه . وقصرت عن
ادراك ذاته أفكار العقلاء . وتحيّرت فى بيداؤه ألوهيته أنظار العلماء
وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

قال صلى الله عليه وسلم (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا
فى ذاته فهلكوا) فالنظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع
الدينية ويضئ للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره

وعليها تجلت أنواره . والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه
 هذه الآثار على ما هي عليه من النظام
 وكلمارق الوجدان ولطقت الأذهان ونفذت البصائر
 ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل
 من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها
 كمال قدرة واجب الوجود ونهاية عظمته

٢

﴿ الآثار العجيبة التي أبدعها مبدع الكائنات ﴾

(ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
 والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء
 من ماء فأحى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة
 وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات
 لقوم يعقلون)

ان من أجال فكره في هذه الموجودات . وأدار نظره
 على عجائب خلق الله في الأرض والسموات . وما فيهما من
 العجائب والغرائب ومن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان
 والمجىء والذهاب مع تعاقبهما على ذلك محالة منتظمة لا يتغيران .

مهما تعاقبت الفصول وتوالت الأعوام . ومن السفن التي تجرى
 على الماء لينتفع الناس بها في أمور معاشهم ومن انزال الماء من
 السماء فتبت به الأرض بعد يبسها وتنتشر فيها الدواب بما
 تأكله من ذلك النبات . ومن تصريف الرياح وتقلبها جنوبا
 وشمالا وشرقا وغربا حارة وباردة . ومن الغيم المسخر بين
 السماء والأرض بلا علاقة تمنعه من السقوط ولا ممسك يمسكه
 يسير حيث شاء الله تعالى لاستدل على كمال قدرته ونهاية عظمته
 أنظر الى السموات وما اشتملت عليه من الكواكب
 وعجائبها ودورانها في أفلاكها بهذه الحركات المنتظمة مع
 اختلافها في الصغر والكبر والنور والظلمة وغير ذلك
 وانظر الى الأرض وما اشتملت عليه من البحار والجبال
 والأودية والكهوف والسهول والمعادن وخواصها ومنافعها
 وانظر الى الحيوان الذي بلغ في الصنع أعلى منازل الغرابة
 وأسمى درجات الاحكام لو تأمل العاقل ما انطوى عليه من
 غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء
 الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف أبنيتها
 ودقائق صنعها لا ينهر عقله وتحير له لاسيما وقد اختلفت أصنافه

فمنه ما يعيش في الهواء وما يعيش في الماء وما يعيش على سطح الأرض وما يعيش في أنين من ذلك ومنه ما يمشى على أربع ومنه ما يمشى على بطنه فسبحانه تعالت قدرته

وانظر الى النبات وتباينه في الأشكال والأزهار والأوراق والثمار والبذور والروائح والطعوم والألوان والمنافع والمضار . قال الله تعالى (أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون) وقال تعالى (أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت)

فلا جرم أن من أوجد هذه الموجودات المتقدمة وأحكمها وأبدع إيجادها على غاية الأحكام والاتقان يكون موجوداً وقادراً أتم القدرة فسبحان من لا يقدر قدر قدرته الا هو ولا يحيط بعظمته سواه

٣

﴿ رأس الحكمة مخافة الله ﴾

مخافة الله هي الشعور بالقرب المعزز بالخشية من الذات

العلية يبعثنا ذلك الشعور الى فعل الأمور به وترك المنهى عنه
 في الاجتماع والعزلة والى التسلى والرضاء عند وقوع البلاء
 بينما الانسان لا ساعده سواه جل شأنه — وباشتراط القرب
 يعلم الفرق بين الخوف من الله والخوف من غيره فان خوف
 الانسان من غيره يستدعى بعداً لا قرباً — وأما مخافة الله
 فتستدعى قرباً يجده الانسان من نفسه شاء أم أبى — ولذلك
 قال أبو القاسم القشيري من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف
 الله هرب اليه . ويختلف خوف الناس منه سبحانه وتعالى
 فمنهم من يخافه هرباً من العقاب والعذاب وطلباً للأجر
 والثواب وذلك حاصل بأصل الأيمان وعليه عامة الخلق قال
 عز شأنه (وخافون ان كنتم مؤمنين)
 ومنهم من يخافه لذاته وجلاله ويراد من الخوف هنا
 الخشية وعليه العارفون بالله — قال وهو أصدق القائلين
 (انما يخشى الله من عباده العلماء) أى العارفون بذاته وبجلاله
 وقال عليه الصلاة والسلام (أنا أخوفكم الى الله جل جلاله)
 وكذلك يختلف حب الناس له تبارك وتعالى مقداراً
 وكيفية . فمنهم من يحبه لاحسانه وللنعيم

ومنه من يحبه لكونه تعالى مظهر الجمال والكمال
وهذا هو الحب الحقيقي الذي هام به أهلوه الألى أشرت
عليهم شمس الحكمة فطربوا لها
وبالجملة فالتعرف بالألوهية لا يحتاج الى مرشد خارجي.
بل هو حاصل بالفطرة والطبيعة — وتعيين المعبود الحق جل
شأنه هو المحتاج لا محالة الى الأرشاد ولم يكن ذلك الا بهدائه
سبحانه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليتمموا معرفة
الانسان به عز وجل فيهدى بهديه وينتهي بنهيه كي يحظى
بالنعيم الأبدى المقيم — وأهم ما هدتنا اليه الرسل لاسيما
المصطفى صلى الله عليه وسلم هو محبة الله تعالى . وقد جعلها
الشارع شرطاً في الأيمان بقوله (لا يؤمن أحدكم حتى يكون
الله ورسوله أحب اليه مما سواهما) وقال تعالى (والذين آمنوا
أشدّ حباً لله) فحبتنا لله سبحانه وتعالى لذاته ولكونه محسناً
منعماً متفضلاً على جميع عبادِه بجلال النعم وخوفنا منه تبارك
وتعالى لجلالاته وعظمته ولكونه مصدر الخير والكمال نأمر
بأمره وننتهى بنهيه حباً فيه لا خوفاً من عقابه ولا طلباً لثوابه
فان الخير كله فيما أمر الله والشرك كله فيما نهى عنه



﴿ فوائد ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴾
 خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وطبعهم على أخلاق حسنة
 تساعدهم على انتظام حالهم وأخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا
 بها في عمارة هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل
 معلوم لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق يوجب وقوف
 كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تعطل حركة
 المسابقة لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة فصارت تلك
 الأخلاق السيئة في معرض الطغيان والوصول إلى حد يصبح
 به ضررها أكبر من نفعها لذلك اقتضت رحمة الله بعباده بمحض
 اختياره أن يرسل لهم أناساً منهم فطروهم على الأخلاق الفاضلة
 والصفات الكاملة وأطلعهم على مكامن الأخلاق وأسرارها
 وكيفية علاجها ودرجة الاعتدال منها ليهدوهم ويرشدوهم
 إلى ما فيه صلاحهم وتقويم أخلاقهم وتهذيب نفوسهم ويبينوا
 لهم الخير ليتبعوه والشر ليجتنبوه ويردوهم إلى حد الاعتدال
 في مثل هذه الأخلاق قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين
 إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقد بين الله تعالى وظيفة هؤلاء الرسل وحكمة ارسالهم في قوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل لهؤلاء الرسل من الآيات والعلامات الواضحات والحجج القاطعة والبراهين الساطعة ما يلجئ خصومهم الى الاذعان والتصديق بكل ما جاءوا به من عنده جل وعلا ويتركون ما هم عليه من العناد والحسد والتقليد قال تعالى (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب) فهؤلاء الرسل والأنبياء مهدوا طرق الهدى وأوضحوا منار الحقيقة وطمسوا أعلام الجهالة فانتقلت الخليقة من الخشونة الى النعومة ومن حضيض الهمجية الى ذروة المدنية ونادى منادى الخير في أهل الأرض أن أبشروا فقد غرست البركة وجاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

وبالجملة أن نوع الانسان يحتاج الى المصالح الضرورية الكثيرة التي لا بقاء له بدونها مثل الغذاء واللباس والمسكن

والآلات وغيرها وان الانسان الواحد لا يقدر أن يقوم بجميع هذه المصالح الضرورية بل لا بد أن يكون معه آخرون من بنى نوعه حتى يطحن هذا لذلك ويخبز ذلك لهذا ويزرع لهما تالك وهكذا الحال فى البناء وغيره من الصناعات فهو يحتاج فى تعيشه الى اجتماعه مع بنى نوعه للتعاون والتشارك فى تحصيل تلك المصالح الضرورية ولذلك قيل (الانسان مدنى الطبع) فان التمدن هو هذا الاجتماع - وذلك التعاون والتشارك لا يتمان بدون المعاملات والمعاوضات التى تجرى بينهم ويقع فيها غالباً التنازع المؤدى الى الاختلاف والقتل واختلال أمور الدين والدنيا فلا بد لهم من قانون متفق عليه مبنى على العدل والانصاف بعيد عن الجور والاعتساف مشتمل على نظام أمور معاشهم

والعناية الأزلية وان عمت جميع الحيوانات بحيث أعطت كل حيوان ما يليق من الآلات وهدته الى مافيه بقاؤه وبه قوامه لكنها فى الانسان أشد لأنه أشرف الأنواع الحيوانية وما عداه من تلك الأنواع مسخر له فكيف يتصور أن الله مع تلك العناية الأزلية الشديدة فى حقه لا يهديه الى قانون.

من قبله لينقاد له العوام والنخوص ويحصل به انتظام أمور
 المعاش والمعاد ذلك القانون هو الشرع
 ولما كانت ذات الله في غاية التقديس وذواتنا في غاية
 التندس فلا يمكن وصول هذا الشرع بلا واسطة ولا بد أن
 تكون هذه الواسطة ذات جهتين تكون لهما مناسبة بالله بجهة
 وبنا بجهة أخرى فلا بد أن يكون انسانا مقدساً متميزاً عن
 الآخرين بخصوصية فيه من الله مختصاً بأمر يدل على تصديقه
 حتى يطاع وينقاد الناس اليه

٥

﴿ ما هي الحاجة الماسة الى الدين والجامعة ﴾
 أن الدين أقوى أساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية
 بين أفراد أمم النوع الأنساني مهما تباينت مشاربهم واختلفت
 أغراضهم واقتربت أهواؤهم وتعددت لغاتهم فرابطة الدين
 أقوى مؤثر في النفوس لأنها أحرزت الشرفين وهما اتصال
 سندها بمبدع الكائنات ودوامها الى آخر العمر فهي أجمع من
 الوحدات الأخرى كالجنسية والوطن واللغة وذلك لأن
 رابطة الجنس وان دامت بدوام سببها وهي القرابة فصدرها

وهم الآباء أقل مرتبة من الربوبية قال تعالى (يا أيها الناس
 انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
 ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ولهذا نرى الرجل يقطع أقاربه
 برابطة الدين مهما تمكنت في قلبه وهذا معلوم في كل زمان
 ومكان وكم في الحوادث من شواهد على ذلك واذا كانت
 الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف فمن باب أولى ما هو
 أضعف منها وهو الوطن واللغة التي تترجم عن تلك النفوس
 المودعة في تلك اللطيفة فهي ترجمان عنها فرع لها تابعة لأشارتها
 فرابطة الدين اذا تمكنت من القلوب كانت حصنا حصينا
 يلجأ اليه الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم
 كما أرهب سيدنا معاوية رضى الله تعالى عنه قيصر الروم
 (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا علي فكتب اليه
 يهدده بالحرب أو دفع الجزية) فكتب يقول له ان لم تكف
 عن هذا والا سلمت الأمر لصاحبي وكنت أول سهم من
 سهامه يرمى به اليك .. فكأنما أجم فاه بهذا الخطاب بما أوقع
 في قلبه من الرعب مع اشتداد الأمر بينه وبين سيدنا علي
 رضى الله عنه كيف لا وأن الرابطة الدينية هي السبب في تقدم الفتح

الأسلامى وانتشاره فى بقاع الأرض فى أقرب زمن
أنظر الى ألفة الأوس والخزرج فى زمن النبوة مع ما كان
بينهم من شقاق وحروب دامت أعواماً كثيرة فألف الله بين
قلوبهم بوحدة الاسلام

وهؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم
على الصينيين وتآلبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا
وغير ذلك مما لا يحصى ولا يكاد يستقصى

وبالجملة فالدين هدى وعقل من أحسن فى استعماله
والأخذ بما أرشده اليه نال من السعادة ما وعد الله على أتباعه
وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه
ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى انكاراً ولا الأعمى اعراضاً
ولم يدع هذا الدين أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا
أما من الأمهات الصالحات الا أحيائها ولا قاعدة من قواعد
النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده حرية
الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجاياء واستقامة
الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبيل السعى

٦

﴿ فوائد اتحاد الأمة ومضار تنازعها ﴾

انما الأمة الوحيدة كالجسم وأفرادها كالأعضاء
كل عضو له وظيفة صنع لا ترى الجسم عنه في استغناء
من أعظم الأسباب وألزم الوسائل لسعادة الأمة هو وحدتها
التي تجعلها كالجسم الواحد اذا شكى منه عضو تداعت له سائر
الأعضاء قال تعالى (انما المؤمنون أخوة) وقال عليه الصلاة
والسلام (مثل المؤمنين في تواددهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل
الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)
ومن المعلوم أن الناس مدينون بالطبع أى لا بد لهم من الاجتماع
والمخالطة لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يستقل بجميع حاجاته
ولو ازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع الذى
يجلب الى أمته الخير ويدفع عنها الشر والضير فالاتحاد وارتباط
القلوب ببعضها وتضافرها على أمر واحد واجتماعها على كلمة
واحدة من أهم أسباب السعادة وأقوى دواعى المودة والمحبة
وكم به عمرت بلاد . وسادت عباد . وانتشر عمران . وتقدمت
أوطانهم . وأسست ممالك . وسهلت مسالك . وقويت شوكة

وأمنت غوائل . وكثر تواصل . الى غير ذلك من فوائد
الاتحاد الذي هو أعظم الفضائل وأمن الأسباب والوسائل
من تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسبب الأقوى
فهيئاً لأمة اتحدت . وعلى الخيرات اجتمعت . فتفوز على
الأمم الأخرى فوزاً عظيماً وتبلغ شأواً جليلاً وتخلد لها ذكراً
جديلاً على صفحات التاريخ بكرة وأصيلاً وقد آخى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حتى كان أحدهم يرث الآخر
دون قراباته وذوى رحمه وبذلك كانت نصرتهم على عدوهم
مع قلة عددهم

فدوّخوا الممالك وافتتحوا البلاد ومصرّوا الأمصار
ومدّوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وسهلوا المسالك قال الله
تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة
الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخواناً)

وأما التنازع والتفرق في الكلمة والرأى فهو سبب
الضعف والخذلان والفشل في جميع الأزمان بل هو مجلبة
الفساد ومطية الكساد وداعية الخراب والدمار وداهية العار

والشئار فكم شاهدنا من عائلات كبيرة كانت في رغد من العيش وبيوت كثيرة كانت أهلة بأهلها حتى اذا دبت فيهم عقارب التنازع وسرى سمها في قلوبهم وأخذ منهم الشيطان مأخذه تفرقوا شذر منذر وأصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين)

وبالجملة فمن نظر في مرآة التاريخ وتصفح غير قليل من أحوال الأمم وتقلبات الدهور وما حصل لها حتى آلت الى هذا الدور رأى أن عزها الذي كانت مغموسة فيه وفخرها الذي تلفعت بحواشيه ومجدها الذي تقنعت به وتحت بسرباله إنما هو نتيجة ما تمسكوا به وتعلقوا بأهدابه حتى شربوا من العمر سائغه ولبسوا من الدهر سائبغه وذلك لأنهم قد اتحدت أهواؤهم واجتمعت كلمتهم واتفقت وجهتهم وتواطأت أفكارهم فكان هذا أقوى عامل في رفع شؤونهم وأشد ساعد في اعلاء سطوتهم وأكبر نصير لنصرتهم وحصن حصين لحفظ شوكتهم لا تنال أعداؤهم منهم مراما بل يطأطئون رءوسهم لهيبتهم اكراما ويخرون للأذقان لهم تعظيما واحتراما

ويبلغون في الحضارة والمدنية شأواً عظيماً تلك أمة لا غيب
الله لها شمساً مشرقة ولا بلغ الله عدوها أنوارها — والويل
والثبور لأمة دبت بينهم عقارب الخلف فتسرى فيهم ريح
الشقاق حتى قضى عليهم بالتشتت والفراق

٧

﴿ فوائد التعاون والمساعدة ﴾

التعاون صفة تبعث الانسان الى مساعدة أبناء جنسه والى
الاتحاد معهم قولاً وفعلاً للحصول على المنفعة العامة وبعبارة
أخرى هو تأثير الشعور بالوحدة الوطنية
والمنفعة العامة كامنة ضمن المنفعة الخاصة اذا نما نحوها
الأفراد وأخذ كل بيد الآخر وحافظوا على أسباب الائتلاف
وتوطدت بينهم دعائم المحبة وكانوا كبنيان واحد يشدّ بعضه
بعضاً . وأما اذا تفرقت قلوبهم ولعبت بهم الأهواء فلا ترى
للمنفعة العامة لديهم محلاً ولا يكونون أمة بل آحاداً مجتمعين
أجساماً مفترقين قلوباً وأهواء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى
تستحكم فيهم الميول فتتمكن في طباعهم العداوة والنفرة
ويصيرون كما قيل « غما متبددة في صحراء قد أحاطت بها

أصناف السباع فبقاؤها مدة سالمة اما لأن السباع لم تصل اليها بعد ولا بد أن تصل اليها يوما ما واما لأن السباع أدتها المزاومة الى القتال وتمنعها شدة الجوع من المضي مع الغضب الذي ربما أذهبت شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقا فيصير الغالب غاصبا ويصير المغلوب سارقا فتقع النعم بين غاصب وسارق ولا سبيل الى التعاون على المنفعة العامة الا اذا أشرب في قلوب الأفراد حب الوطن وصار لديهم الوطن كمنزل واحد هم أهلوه وأعضاؤه وقد جعله المشرع الأول عليه الصلاة والسلام من الخصال الدينية فقال (حب الوطن من الأيمان) والآثار الصادرة عن الحكماء والسياسين مؤذنة بطلبه وقد قصدوا بذلك بعث الأفراد الى محبوب واحد وهو الوطن حتى تتفق أهواؤهم فتتألف قلوبهم فيعم الصلاح بينهم قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) فالتعاون عليه مدار نظام الأمم وملاكها وحياتها والاحتياج اليه أمر فطري في الانسان اذ لا يمكنه أن يقوم بمفرده بسائر وظائف الحياة البشرية فهو مضطر الى الاجتماع بطبيعته ولما كان الاجتماع لا يخلو من

المنازعات المفضية الى تغالب القوى المتنازعة كانت الحاجة ماسة ولا بد الى منع ذلك التغالب ومن أهم الوسائل في منعه وأعظم الوسائل في دفعه التعاون والتناصر والتآلف والتضافر فبالتعاون تدفع غواذى الطبيعة وتتقى مخاطر الوحدة ويتسابق في ميدان الحياة فيدعوه ذلك الى المشاورة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويخترع ويتدع ويتفياً ظلال العمران الى غير ذلك مما تدعوا اليه الطبيعة البشرية - ولولا التعاون لثبطت همته وقعدت به عزيمته حيث يعتقد من نفسه العجز عن مطاردة العواذى ولا يقدر بمفرده على اتقاء مخاطر الحياة البشرية فيكتفى من العيش بنزره ومن الحياة بقدر ما تقتضيه الطبيعة وهذا مناف للحكمة الآلهية التي أودع الله من أجلها فى الانسان العقل

وبالجملة يجب التعاون على فعل الخيرات بحيث يقضى البعض للبعض ما هو محتاج اليه ولا يمكنه الحصول عليه وكذا التعاون على ترك المنهيات يرضى الله عنهم فيمنحهم خيره ويكفهم شره فمن جمع التعاون بقسميه فقد كملت سعادته وطابت حياته وهنئت عيشته وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن التعاون على

فعل الشر والضير فان في التعاون على ذلك مفاسد كثيرة
ومنكرات فظيعة كبيرة ورائها عذاب أليم وعقاب شديد



﴿ العقل وفوائده ﴾

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شئ يقاربه
إذا أكل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه
غير خاف أن أشرف الخواص التي تميزها الانسان من الحيوان
(العقل) الذي هو سلطان القرائح ومصباح السوانح . ومفتاح
المصالح . ورأس العلوم . وسبب ادراك العلوم . ومادة الفهم
وينبوع الحكمة . وهو الموصل الى صلاح الدين والدنيا
لا تستقيم الحياة الا به ولا تدور الأمور الا عليه . وهو نور
موضوع في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد ويذهب
ويعود وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من أشكالها
شئ كذلك اذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة وكما
تدرك بنور البصر شواهد الأمور . كذلك يدرك بنور العقل
كثير من المحجوب والمستور . فعنى البصر كعنى القلب
وكيف لا يكون العقل أجل موجود في البرية . وأشرف

موضوع في هذه الخليقة الآدمية . وقد خصه الله تعالى
بالإنسان لشرفه وكماله وعزته وجلاله (ان في ذلك لآيات
لأولى النهي)

قال بعض الحكماء العقل أمير والحصل رعية فان قوى
عليها أطاعته وان ضعف عنها خالفته . والجسم مدينة والعقل
ملك يديرها وقواد وحواسه جنوده وأعوانه . وجوارحه
رعيته . والنفس الأمارة بالسوء عدينازعه في مملكته ويسعى
في هلاك رعيته . له شيعه وأتباع من الشهوات فصار الجسد
كشفر وموضع جهاد ورباط فان هو ضيع ثغره وأهمل رعيته
غلبته النفس وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته وأهلكت
جنوده وان هو جاهدتها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها
ومرادها كان ذلك سبباً لبقاء ملكه وعمارة حصونه . هذا
والعقل ينقسم الى طبيعي معتاد ومكتسب مستفاد . فالأول
ما سبق الكلام عليه . والثاني ما تحصل بكثرة التجارب
ومرور الأيام والليالي بالمواهب والنوائب . وليس المكتسب
بمنفصل عن الغريزي بل هو نتيجة يزيد قوة وينمي ويشيد
أركان مبادئه

وبالجملة فالعقل يعقل ويحفظ صاحبه من شهواته لأنه نور في القلب به يفرق بين الحق والباطل . وقد روى عن جبرائيل انه أتى آدم عليهما السلام وقال له أتيتك بثلاث فاختر واحدة . قال وما هي . قال العقل والحياء والدين . قال آدم اخترت العقل . فقال جبرائيل الى الحياء والدين ارجعا فقد اختار العقل عليكما فقالا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان

٩

﴿ فوائد العلم ومضار الجهل ﴾

لا يخفى أن العلم أفضل مكتسب . وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقنتى . وأطيب ثمرة تجتتى . به يتوصل الى معرفة الحقائق . ويتوصل الى نيل رضا الخالق . وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها . وأكرم فروعه وأزكاها . لا يضيع أبدا صاحبه . ولا يفتقر كاسبه . ولا يخيب مطالبه . ولا تنحط مراتبه . والعلم لا يوصل الى معرفة فضله وجلالة قدره الا بالعلم كما لا يجهد شرف مكانه وعلو شأنه الا أهل الجهل لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواعقه وهو اسم من أسماء الله عز وجل وصفة من صفاته وهو عظيم في نفسه وحامله عزيز

في قومه ان قال فكلامه مرفوع . وان أمره مسموع
 فهو وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شريعة . ونور زاهر
 لمن استضاء به وقوت هنيء لمن تقوت به ترتاح به الأُنفس
 اذا هو غذاها وتفرح به الأُفئدة اذا هو قواها والدليل على
 الخير والعون على المروءة والصاحب في الغربة والمؤنس في
 الخلوة والشرف في النسب قال الله تعالى (يرفع الله الذين
 آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال سبحانه وتعالى
 (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط)
 وقال عليه الصلاة والسلام (أطلب العلم من المهد الى اللحد)
 بخلاف الجهل فانه رأس القضايح . ومعدن القبائح . ومضمار
 العثار . ومعيار الشنار . وسبب الخمول ودليل التخلف وداعية
 المقت ان نطق صاحبه تعرض للخزي والذم . وان تصرف
 صاحبه في حال سقط لليدين والفم وهو دابل على غلظ الطبع
 وجهود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس
 وقد عصم الله تعالى منه أنبياءه وحذر منه أوليائه فقال (خذ
 العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه الصلاة
 والسلام (لا فقر أشد من الجهل) وقال ابن المعتز نعمة الجاهل

كروضة على منزلة

وبالجملة العلوم كثيرة والمعارف حمة وأنواعها مختلفة
وبعضها أشرف من بعض والاحاطة بجميعها محال . فحينئذ
يختار من العلم أرفعه ويستعمل منه أنفعه وما زال العلم من الانسان
بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيى الجسد بالروح كذلك يحيى
صاحب العلم في الناس بعلمه وهو فرض واجب بشروط
عشرة أولها اخلاص النية من الالتباس . وتطهير الباطن من
الأدناس . قال عليه الصلاة والسلام (انما الأعمال بالنيات)
وثانيها اختيار العلم المؤدى الى السعادة الأبدية والحياة المرضية
الهيية كالعلوم المنقولة مع معرفة العلوم المعقولة لتكون سلماً
الى الارتقاء . وثالثها انتقاء العلماء واختيار الأتقياء الأدياء
فهم الدواء لجميع الداء . ورابعها الاجتهاد في طلبه وتحمل نصبه
وتعبه . وخامسها التواضع وترك العجب والباهاة به . وسادسها
ترك التقدم به والظهور من أجله والتحكم بسببه . وسابعها الانصات
وحسن الاستماع . وثامنها حسن السؤال . وتاسعها ترك
الجدال والمراء . وعاشرها العمل بمقتضى العلم وهو سره ومعناه
وفائدته العظيمى لمن توخاه قال الله تعالى (الذين آتيناهم

الكتاب يتلونه حق تلاوته) وقال عليه السلام (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وسئل الزهري أيما أفضل العلم أم العمل فقال العلم لمن جهل والعمل لمن علم . وقد أبان الله عز وجل فضل العلم عن الجهل بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا

وقال المسيح بن مريم عليه السلام عاجلت الأبرص والأكمه فأبرأتها وعاجلت الجاهل فأعياني - ألم تر أن الإنسان بالعلم استخدم أنواع الموجودات وانتفع بأصناف الكائنات . وأظهر غرائب الأعمال . وأخضع شوامخ الأتقال وطار على البخار . واختصر مطولات البحار والقفار . واستخدم البرق رسول أخباره . والنور مصور آثاره . وجعل الكون بأجمعه تحت طوعه . ومادة فكره وصنعه . فاستنبط واستخرج واستظهر واستنتج . وأبدع وصور . وأحكم وقدر . وبدل وغير . وأمسك وطير . وحلل وركب . وأحضر وغيب

وبخر وصعد . وجسم وشكل . واختصر وطول . وصعب
وسهل . وأكثر وقلل . فهو الكنز الذي يقنى . والثروة التي
لا تنفذ ولا تفنى

أجل ما يبتغى دوماً ويكتسب ويقتنى من حلى الدنيا وينتخب
علم شريف عميم النفع قدر فعت لمن يزاوله بين الملا رتب
ان عاش عاش سعيداً سائداً أبداً لا يستضام ولا يشنا فيجتنب
وان يمت فثناء شائع حسن وبعده رحمة ترجى وترقب
فبالعلم نستنير الأفكار . وتبصر الأبصار . وتظهر الأسرار
وتسمو المقاصد . وتصفو الموارد . وبه ارتقى الألسان ونجح
وكذب وكذب . وأدلى وامتدح . وأخذ ومنح . وغرس وفتح
وطار وسبح . فما العلم الا كمال الانسان . وحلية العقول
والأذهان . وسور الشرائع والأديان

١٠

﴿ المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ﴾
هذا الحديث النبوي من جوامع الكلم ونوابغ الحكم
أفاد أن المسلم الذي يعتد بإسلامه (بحيث يكون سبيلاً
لصلاح دينه ودنياه) هو من لا يصدر عنه أذى ولا سوء

لأحد بقول ولا فعل ومن لا يصدر عنه السوء والأذى فانما
يصدر عنه الخير والنفع ضرورة أن الانسان اما نافع أو ضار
فنفى أحد الوصفين عنه يستلزم ثبوت الآخر له

إذا أنت لم تنفع فضرر فانما يرجى الفتى كما يضر وينفع
فمن لم يكن له من اسلامه ما يمنعه عن أذى اخوانه فهو جدير
أن لا يسمى مسلماً فضلاً عما يلحقه من المذام - وآثر اليد
واللسان بالذكر لكونهما أقوى آلات الجسم وأكثرها
نفوذاً في الأعمال ولما كانت آلات البدن خادمة للإرادة منفذة
لأوامرها فأينما وجهتها توجهت كأن الانسان عبارة عن قوتين
احدهما آمرة والأخرى مأمورة فالآمرة معنوية لطيفة
لا ترى لها عملاً وان كنا نشعر بها بخلاف المأمورة فان أعمالها
مرئية محسوسة مثلاً اذا تذكرت أن لك صديقاً تود أن تزوره
فانك تجد من ذلك في نفسك تأثراً وانفعالا يبعث أعضائك على
السعى الى ذلك الصديق لزيارته فهذا الانفعال الذي وجدته
ليس شيئاً محسوساً بل الذي تحس به حركة أعضائك في
السعى اليه - ومعلوم أن الإرادة النفسية هي كغيرها من
اللطائف المودعة في الانسان ساذجة في مبدأ نشأتها قاصرة

عن الجولان في الأشياء فهي لذلك محتاجة لأن تربي حتى
لا تأمر إلا بما ينفع ولا تمضي إلا في ما ينبغي المضي فيه ولو
تركت على سذاجتها وقصورها لم تهتد إلى ذلك إذ هي قوة
روحانية — والقوة الأرادية كأنها محصلة لعدة قوى كلها
مثلها في أنها خلقية في الإنسان أو تولد فيه بالاختلاط والتدريب
وبالجملة كان نبينا صلى الله عليه وسلم يتفرس في أحوال
الناس ويرى من أمراض قلوبهم وآفات نفوسهم ما لا يرون
هم من أنفسهم فيرشد الإنسان إلى ما يراه أنجع في علاجه
ويصف له دواء دائه فقط مع الرفق والتلطيف به

١١

﴿ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك ﴾
كأنك تموت غداً

خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان وقومته في أحسن
تقويم وجعل له فضلا على سائر المخلوقات في نفسه وجسمه
أما فضله في نفسه فبالقوة المتفكرة التي بها العقل والعلم
والحكمة والتدبير والرأي . وأما في جسمه فباليد العاملة
واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل

ما أوجد في هذا العالم وأما بالنسبة لقواه الجسمية فهو فيها أقل من كثير من الحيوانات وأما القوى العقلية فهو متفرد بها ولذا كان له السلطان العام والتصرف التام في كل ما أوجد في هذا العالم فلا تغادر أو امره ما يطير في جو السماء ولا ما يسبح في لجج الماء ولا ما يدب على وجه البسيطة ولا ما استكن فيها ثم ان الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار ما فضله الا العقل واللسان

فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فجدير بأن يسمى انسانا ومن دعته وحكمت عليه نفسه الشريرة بصرف همته الى تربية القوة الشهوية التي تعود منفعتها على الجسم فحقيق بأن يلحق بأفق البهائم (ان هم الا كالأ نعام بل هم أضل) ثم ان الحكيم العليم جلت قدرته حكيم على الانسان بالسعى والعمل للحصول على ما به يقوم وجوده ويطيب عيشه ويدفع عنه عوادي الحوادث

ولما حكم سبحانه على تلك المقومات بالخفاء تحت أستار حكمه وجب على الأ نسان أن يستخدم عقله وأعماله الجسمية في

كشفت الغطاء عن تلك المقومات فينتفع بها في قوام حياته
ودوام لذاته ويحصل ما به تزجية المعاش له ولغيره لأجل بقاء
نبي نوحه

ولما عرف أنه غير قادر على الوصول الى تلك الغاية
بنفسه بل لا بد من وسائط توصله الى ما استكن تحت طي
الفكر عمد الى استعمال القوة العاقلة واستمال الخليفة واستعان
بها فتوصل الى ما كمن بفكرته وأخضع بعض العوام لخدمته
فقال متصوده وحصل على مرغوبه

ومن البحث والتنقيب وأعمال الفكر وقياس الجهول
على العلوم انكشف له ما انكشف لأنه كلما ارتقى في معارج
التمدن والحضارة تزداد رغبته في استجلاء غوامض الأمور
واستطلاع حقائقها وما استترت تحت حجب الحكمة فهو الى
الآن مجد في طلبه كثير السعي والاجتهاد في استخراج
غوامض أسرارده وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم
(منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وحيث قصد
الانسان ا فراغ عمل نافع يلزمه أن يتفرغ له بقلبه وقالبه وذلك
لأجل أن لا تتوزع قواه الى غيره فيطول زمن العمل بل ربما

تسارع الى العامل الممل والكسل ويدخل في العمل الخلل
 وحينئذ يتعود الأُنسان الضجر والكسل ويميل الى حب الراحة
 والهويناء فلم يؤد حقا ولم يصبر على عمل ولم يتوصل الا الى
 الفقر والفاقة كما قيل

رأيت التواني زوج العجز بنته وساق اليها حين زوجها مهرا
 فراشا وطيبا ثم قال لها اتكى رويد كما لاشك أن تدا فقرا
 فمن ترك العمل أو عمل ولم يتقن عاد وبال ضرره على نفسه
 وعلى الهيئة الانسانية لأنه عضو منها وكل عضو ترك
 ما لأجله أوجد يبطل نفعه — فحق الانسان أن لا يذهب
 عامة أوقاته الا في اصلاح أمر دينه ودنياه وفي موصلاته الى
 غاياته وذلك لا يكون الا بالعمل واتقانه لتتم الفائدة ويم النفع
 ويرضى الخالق عليه

ولما كان عمر الانسان ولو طال كزيارة ضيف . أو سحابة صيف
 ولا يعلم في أى وقت يكون منتهاه . ولا مبلغ مداه . لزمه في كل
 لحظة من لحظات الحياة . أن يقرن عمله بتذكر لقاء مولاه . فانه
 هو الذى منحه القوة والقدرة على العمل والتمتع بنتيجة ما أتمه
 ونواد . فيعمل عمله الدنيوى . مع ملاحظة أمره الأخرى

وبذلك يكون في الزمن الواحد قد عمل عاملين وفاز بمرتبتين
فيكون في الدنيا منعا بحسن أعماله الأثورة وبعد موته
بحسن السيرة

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعاً وأقبح الكفر والافلاس بالرجل
وهذه مرتبة عالية ومنقبة سامية لا ينالها إلا الذين صرفوا
أوقاتهم في تهذيب النفس وتربية العقل فتخلوا عما يتبين من
الذائل وتحلوا بما يزين من النضائل

١٢

﴿ فوائد تعميم المنافع ﴾

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

هي ولا مداجاة في الحق قوام العمران . وسر نظام
الاجتماع الانساني وطريق تقدم المدنية لا تقوم بدونها سعادة
ولا تتم مع عدمها حضارة ترتقي الأمم بتمسك أفرادها بها
وتنحط باعراضهم عنها — أرايت لو أهمل الانسان جانبها
وصرف عنان عنايته عنها مكثفياً بالاشتغال بمصلحته الذاتية
ومنفعته الشخصية لا يهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى أمره

ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا برئ أحد من الأنام
 هل تبقى بين الناس صلوات أو يقوم اتحادها على عمل مفيد
 ومشروع حميد هل يمكن أن يكون لأمة جند منظم يرد عنها
 طوارئ الأعداء ويبذل روحه في مواقف الكفاح صونا
 لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح
 أهل العصيان طلباً لتأييد منعها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها
 لو لم تكن قلوبهم مشربة حب المنفعة العمومية قال عليه السلام
 (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها ووزرائها ومجالس
 أعيانها سياسة يدبرون أمرها ويرفعون قدرها يجهدون
 أفكارهم في تحسبن مستقبلها ويكدهون في توسيع نطاقها
 مع أنهم يتقنون أنهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد
 أجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن
 تفرغوا لداراتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك أوطارهم
 ولا سيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن اذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد
 أن تعاني العلماء مشاق الأسفار وتقتحم الأخطار في البحث

على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاج يجرّبونه أو مظنون
 محققونه وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم اتلافاً في غضون
 أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليه طمعاً في حقيقة
 تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين

تلك آثارنا تدل علينا فانظر وابعدنا إلى الآثار

وبالجملة حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأساس الخلال
 الحميدة ولوربي الناشئون منا عليه وتعودوه من الصغر لنا
 تعاقبت علينا الصروف النادرة وأمت بنا النوائب الموهنة
 التي منها انتشار السرقة في البلاد والعبث بين العباد ومنها ظهور
 داء الرشوة ومنها التكاسل في الأعمال الخطيرة والتهاون في
 الأمور العظيمة وتفرّق قلوب الرجال وذهاب كل في مجال
 وفقد عروة الارتباط وسوء الإدارة - كل ذلك لم ينشأ إلا
 من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

فأدرء المشغف بذاته . العامل على لذاته . أي مجده
 إذا لم تعد آثاره وأي خير فيه إذا اقتصرت مزاياه على
 نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه وأي فضل له في حبس آثاره
 في صحن داره

اذا ما قضيتم ليلكم بنامكم وأفنيتمو أيامكم بمدام
 فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة ومن الذي يلقاكم بسلام
 فاذا أوتى المرء حكمة لقمان وفصاحة داود ومال قارون وجمال
 يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشركه في هذه النعم أحد
 فأى فائدة للدنيا من وجوده وأى ذكر له يبقى بعد مماته
 خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
 رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا
 فمن جعل غايته مصلحته الذاتية تارت فيه الشرور وهاجت
 عنده الشهوات وانما تستر عن العيون بستار العجز وحجاب
 الضعف بخلاف من أتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل
 تخرج بلحمه ودمه ويحلوه مصافحة الحسنات ومكافحة السيئات
 ولو نافرته الأيام وعانده الزمان وكل ميسر لما خلق له

١٣

﴿ لكل امرئ من دهره ما تعودا ﴾

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عودده أبوه
 من المعلوم أن الطفل يولد مجرداً من كل الوسائل خالياً

عن معرفة الأشياء عديم البصيرة فارغ السريرة عاريا عن
 الوظائف العقلية لا يرى الا ما يقع عليه بصره ولا يشعر الا
 بما يؤثر في جسمه ولا يسمع ضوضاء العالم ولا ينظر الى أشباح
 الكائنات الا بمرآة خيالية وهو حينئذ محاط من أهله بالشفقة
 والحنان فيربو جسمه وتنمو قواه حتى يستقبل الحياة الانسانية
 وتنتشر فيه مبادئ القوة العقلية فينظر الى العالم فيراه مشهداً
 غريب الأحوال ومرسحاً تلعب فيه الآمال فتشمله شمول
 هذا الظهور وتلعب برأسه نشوة تلك الأمور فيبيت بها
 مشغولاً ويصبح اليها ملهوقاً فان لم توجه قواه من مبدأ هذا
 الظهور الذي يكون فيه كقطعة الشمع المرنة القابلة افراغها في
 أى قالب وتشكيلها بأية صورة الى وجهة حسنة وغاية نافعة
 استعملها كيفما توجه بهيمته فينشأ ضائعاً في مفازة العمر حائراً
 ولا يلبث حتى يرى نفسه قائماً في وسط هذه الدنيا مغموراً
 بأمواج هذا العالم تلطمه ضرباته وتأخذه ضجائه مع تراحم
 حاجاته وتوالي حسراته فيندفع بخيالاته الكاذبة الى مطامع
 خاسرة خائبة ويصير مضغعة بين أضراس الأمانى الخاطئة
 ومسقطاً لنوائب الزمان فيمكث يصارع الحال ويأسف على

الماضي ويرتعد من المستقبل — ولو وجه أهله قواه من أول نشأته على التدرج الى سبيل نفعه ونفعهم ونفع وطنهم لسار من مبدأ أمره في هذه الطريق المفيدة حتى يعتاد الأعمال النافعة ويصير عضواً عاملاً في أمته فيعيش وقد حصل على مزايا نفعه وعلم خاصة نفسه فينظر في أفراد الكائنات نظر حكمة وتدبير ويسعى خلف اجتناء ثمراتها حتى يمد عليها ظلال رأيته ويخضع الصعاب تحت رئاسته ويسعى في طرق المكاسب فيحسن لديه السعي ويطيب له المربع وما ذلك الا لتربيته وتعويدده من مبدأ نشأته سلوك طرق المنفعة والخير فالمرء ابن عاداته و (لكل امرئ من دهره ما تعوّد) ومن شب على شئ شاب عليه — ألا ترى أن أولاد الفلاحين بتعويدهم مباشرة الأعمال ومعاناة الكد ينشئون مولعين بفلح الأرض وزراعتها والعمل فيها كأبائهم وكذلك الكاتب والخياط وغيرهم وبالجملة الطفل يشب ويكبر على الشكل الذي أفرغ في قلبه والصورة التي منحها له أهله والعادة التي صادفها في طريق تربيته . ان خيراً فخير وان شراً فشر والابن ينشأ على ما كان والده ان الأصول عليها ينبت الشجر

فيجب على الآباء، وولاية أمور الأحداث أن يقوموا
بتربيتهم وتعليمهم على الوجه الأكمل حتى يخرجوا من رتبة
السؤال ويسلموا من تبعه التقصير وتوجه الاتم اليهم لو أهملوهم
من ذلك وهم تحت تصرفهم وفي رعايتهم و (كل راع مسئول
عن رعيته) فضلا عن أن يكونوا لهم عوناً على المعيشة ونوال
السعادة وأثر أحسنها كرون به ونعمة جليلة يغبطون عليها
نعم الآله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد
وقال الآخر

لكل امرئ في الخير والسرعة وكل امرئ جار على ما تعودا
ولو سلكت كل عائلة ذلك المنهج القويم . وقامت بحقوق
التربية والتعليم . لم تلبث أن تؤلف أمة سامية القدر . جليمة
الذكر . لا يشق غبارها . ولا يضام جوارها . ولا يقوم
لها عنيت . ولا يسطو عليها أصليت . بل ينهض بها الوفاق
وينحط دونها الشقاق . وتكون أس حضارة . ورأس عمارة
ومن نظر إلى الأمم وتأمل أحوالها . وعلم مبدأها وما آلتها
يرى العجب العجاب في التقدم والانقلاب . نشأ ذلك من
اعتنائهم بالتربية فترى كثيراً من الأمم حلوا أرضاً مجدبة قحاة

ومفاوز يابسة محلاة • بتريبتهم وعلمهم وحسن تدييرهم وجودة
تصرفهم أصبحت لهم جنة مشرة • وروضة مزهرة • وأغدقت
عليهم بصنوف النعم • وأظهرت شأنهم بين الأمم • حتى
عوضوا الكهوف بالقصور • والكلاء بالزهور • والجلود بالحرير
والحصباء بالسريير • الى غير ذلك من أنواع التقدم والرفاهية
رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
فيجب علينا معشر الأمة المصرية أن نباريهم ونبذل أنفس
ما لدينا حتى نجد شرفنا التالذ ونجلب حظنا الشارد ويستقيم
الأود وتصلح البلد

فله الحمد ها هي المدارس قد قام سوقها وانتظم سيرها
وأحكمت أمرها منفتحة أبوابها مستوفاة أسبابها تنادي طالبها
وتفتح محبيها

١٤

المدارس

المدرسة دائرة المعارف وخزانة الأدب وكنز الرغائب
وجواهر الأدب ونهج البلاغة ومفتاح العلوم وكشف الأسرار

وشمس المعارف وسلم العلوم وعنوان النجابة وتحفة الطلاب
والوسيلة الأبدية والسعادة الأبدية والشافية والكافية ودار
التزينة والتأديب والتمدين والتهديب تصلح شأن المرء بما يتلقاه
فيها من المعارف وما يكتسبه فيها من العلوم المفيدة التي تجعل
عنده استعداداً لأن يكون في المستقبل رجلاً قادراً على القيام بما
يوصله إلى مطلوبه من الواجبات أحسن قيام وتبث في روحه حب
الوطن وأهله وتزيد عنده قوة الأدرالك وتربى له العقل الغريزي
والمكتسب وتجعل عنده من الخصال أحسنها ومن اللطائف
أحمدها وترشده إلى الطريقة التي يجب اتباعها والوسائل التي
ينبغي اتخاذها للحصول على الشرف والكمال ومستقبل الآمال
وبالجملة فالمدرسة مطمح شمس العلوم ومشرق أنوار
الفوز والسعادة ترضع الناشئ فوائد الأدب من صغره وتقوم
ما اعوجج من أخلاقه وعاداته حتى ينشأ كاملاً مهذباً عالماً بحقوقه
عارفاً ما يجب له وعليه وتعد له مستقبلاً يضمن له الرفاهية
والسعادة وتصونه من طوارئ العلل والآفات وتحنظه من
أسباب الأمراض والعاهات وتعلمه كيف يطلب الثروة من
أحسن مواردها وأشرف طرقها وتهديه إلى الطريق الذي يرقى

١٥

﴿ فوائد المعارض العمومية ﴾

المعرض مدرسة رجال التجارة وأرباب الصناعة فيه تخلع
الناس عنهم ثياب الكسل وتزين بحلل الجد والعمل فهو ميدان
تتسابق فيه الصناع وتتنافس فيه الزراع فيشمر كل منهم عن
ساعد الجد والعزم ويطلق عنان العناية والحزم . فيه تعرض
نتائج الآراء السديدة والأفكار المفيدة فمن حاز قصب السبق
في هذا الميدان يمنح وساما دلالة بشرفه وعلامة بنشراجهاده
وتشيطاً له وتنافساً لغيره فكل يتسابق في اتقان عمله وإبراز
مخترعه وإظهار ما اكتشفه من الآثار وما جناه من الثمار
تلك آثارنا تدل علينا فانظر وابعثنا إلى الآثار

فبذلك يكون الانسان أدى ما خلق لأجله وهو العمل وطرح
التقاعد والكسل . فاذا نظرنا إلى معرض باريس وما احتوى
عليه من الصنائع المتنوعة والفنون المختلفة التي تدهش الأبصار
وتختار في كفيها الأفكار نستدل دلالة واضحة على تمدن
الأمم الأورباوية واتساع دائرة علومها وصنائعها وزيادة ثروتها

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح
 فالعرض مدرسة علمية صناعية تجارية زراعية لجميع الأمم
 ومصباح يستضاء به في تقدم الصنائع والفنون ومفتاح به تظهر
 جميع الخبايا ودقائق المعقول والمنطوق
 وبالجملة فهي مظاهر أعمال الأمم وبراهين تفاوت الهمم
 ومشارك أنوار الاختراع ومجمع أحسن المصنوعات ونظام
 نفائس الابتكرات وتختلف باختلاف الممالك وتباين حاجاتهم
 وحاصلاتهم ومبلغ علومهم وقوة مداركهم وميلهم الى جليل
 الأعمال وعظيم الآمال

١٦

﴿ أَيُّ الْأُمْرَيْنِ أَكْثَرَ نَفْعًا لِلْمُتَعَلِّمِ ﴾

أُتْعِلِمُهُ بِالرَّغْبَةِ أَمْ تُعَلِّمُهُ بِالرَّهْبَةِ

لا خلاف في أن الطباع ليست سواء في أفراد

النوع الانساني

فهذا حاد الذكاء سهل الانقياد شغوف بالتحصيل لا يطلب

سوى هديه الى طريق التحصيل والتهذيب الا أنه لا ينبغي

ارسال لجامه كيلا ينتج قبل أوانه فتضعف قواد فيما بعد

وذلك يكون حادّ الذكاء ولكنه بطيء وهذا لا يلزمه

سوى استعمال المهماز وحثه على صرف الجهد
وآخر يكون حادّ الذكاء مشغوقا بالتحصيل ولكنه عنيد

صعب المراس فيؤخذ بتلطيف طباعه وتهذيب أخلاقه
وآخر يكون سهل الانقياد شغوقا بالتحصيل ولكنه

كاسد الفكر بطيء الفهم وهذا يحتاج الى رقة المعاملة والتشجيع
تارة والمساعدة أخرى كيلا يضعف جأشه أو ينبعث بأسه

فيقعد الدهر ملوما محسورا فر بما وصل الى الغاية المطلوبة
وآخر يكون كاسد الفكر بطيء الفهم كسولا عن العمل

وهذا يمكن تقويمه مع الصبر وتوالي الزمن
وآخر يكون مع كسادة فكره وبلادة فهمه خبيث الطبع

شرير النفس ومثل هذا لا ينبغي اليأس منه بادئ بدء بل يحسن
أخذه بالاصلاح والتقويم والتهذيب الى أن تضع فيه الحيل

ومرتبة الاضطرار والرغبة ومرتبة الاختيار والرغبة

تختلف باختلاف استعداد القوى العقلية

فالنفس مجبولة على شيم مهيمة وأخلاق مرسلّة لا يستغنى

محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب

لأن لمحمودها أصداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة
غالبة فان من أغفل تربيتها تفويضاً الى العقل أو توكل على أن
تنقاد الى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين
وأعقبه التوكل ندم الخائين فصار من الأدب عاطلاً وفي صورة
الجهل داخلاً لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن
بالعادة . ولكل قوم مواضع وذلك لا ينال بتوقيف العقل
ولا بالانقياد الى الطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة وبالدرية
والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قياً وزكى الطبع اليه مسلماً
وان أوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى فان الناشئ
مجوده خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وانما أبواه يميلان به
الى أحد الجانبين

قال بعض الحكماء (اقدعوا - ادفعوا - نفوس أبنائكم
فانها طلعة وحادثوها بالحكمة فانها سريعة الدثور فانكم اذا لم
ترعوها تنزع بهم الى شر غاية) وهذه مرتبة الاضطرار
والرهبة بخلاف مرتبة الاختيار والرغبة ففيها تقوى ارادة
الناشئ بحكمة ما حصل عليه من التجارب والتأمل في الأسباب
والنتائج فيرى أن اضطراره الى طاعة البواعث النفسية والجسمية

قد صار اختياريا

وبالجملة يحسن بالمعلم أن يتعرف كل ناشئ ليعلم أطباعه
وأخلاقه واستعداداته الجسمية والعقلية كي يعامله بحسبها فلا
يعامل الكل باللفظ كما لا يسوق الجميع بعصى الخشونة فان
منهم من تصلحه المساواة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن
ينفعه الاحسان بينما يسوء الآخر ومن يؤثر فيه النظر بينما
الآخر يحتاج الى العصا كما قيل

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام

ولكن التعليم بالرغبة المبنية على أساس متين من العظة
العالية والحكمة البالغة أولى وأفيد من التعليم بالرهبة التي
لا تجلب الا الخجل والقنوط والملل بل تورث الخوف والجبن
وتعود الناشئ على العمل في الجهر والكسل في السر -- فاذا
سياسة الرفق واللفظ قد تفعل ما لا تفعله سياسة الشدة والعنف
ومن لم يكن له من نفسه زاجر -- فبهيات أن تؤثر فيه الزواجر

١٧

﴿ ما هي الحاجة الماسة الى بناء المستشفيات للفقراء ﴾
الانسان في هذه الدنيا عرضة للأمرض والعلل غير أن
الناس منهم الغنى والفقير . فالغنى بما له من النروة قادر على
دواء نفسه متى شعر بالألم في جسمه فهو يحضر من أمهر الأطباء
وأحدقهم من يرجو الشفاء على يديه . أما الفقير فان المرض
اذا ألم به لم يجد ما ينفقه على دوائه وشفائه فيمكث أسير الأ دواء
حليف العلل لا جهلا بالطب وفوائده ولكن خلت يداه
وأعوزته الحاجة وقعد به الدهر عن ذلك — لهذا تدعو الشفقة
والانسانية أن يقوم أغنياء الأمة وحكومتها بإنشاء مستشفيات
لهذه الطبقة يلجأ اليها مريضهم فيمدّ بالدواء ومساعدة الأطباء
ولقد اعتنت الحكومات التمدينه بالحيوان الأعجم
وعرفت الحاجة الى انشاء جمعيات للرفق به — وحينئذ الانسان
أولى بهذه الشفقة وأحق بتلك الرحمة ولا يخفى أن الفقراء هم
السواد الأعظم من الأمة فمتى اعتنت بهم ولا حظهم في
أمراضهم كثر أفرادها فصارت مهيبه قويه . على أن الأغنياء
في أشد الحاجة الى هؤلاء الناس أهل البؤس والفاقة فهم

القائمون بالأعمال العظيمة التي لا يباشرها الغنى بنفسه — كيف لا وأن لبناء هذه المستشفيات أكبر فائدة وهي منع انتشار العدوى بين أفراد الناس فليخش الأغنياء من ذلك وليعلموا أن في أموالهم حقا للفقراء والبؤساء فيجب السعى في إزالة ما يعترهم من الأمراض والآلام التي تذهب بحياتهم واحترام هؤلاء الأقوياء في جسم الهيئة الاجتماعية وجلب الصحة اليهم حتى تكتسب البلاد منهم حياة جديدة وقوة عظيمة بفضل ساعدتهم وتحملهم المشاق ومثابرتهم على العمل حتى اذا أصيب أحدهم بمرض لا يبيت يتقلب على فراش الشقاء بين أولاده وأهله الضعفاء بعد أن كان يوصل ليله بنهاره في الجدة والعمل يصون نفسه عن ذلك السؤال

وبالجملة فالمستشفيات من أهم ما تحتاج إليها الأمم لحفظ صحة أفرادها من غوائل الأمراض وطوارئ العلل المعرض إليها الانسان بطبيعة جسمه وحوادث الجوّ فهي التي حفظت النفوس في أجسامها وردّت جيوش الأدوية على أعقابها كيف لا وقد ثبت (أن صحة الأبدان مقدّمة على صحة الأديان) وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه

قال (داووا مرضاكم بالصدقة) وقال أيضاً (اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً) وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً

١٨

﴿ الجبال وفوائدها ﴾

الجبال هي تلك الأجرام والأجسام الشائخة التي لها أعظم منة وأكبر نعمة على الانسان في كل زمان ومكان فهي التي يتخذ منها مواد البناء على اختلاف أنواعها قشيد منها المنازل والقصور التي تقينا قيظ الحر وزمهرير البرد ويتخذ منها بناء القلاع والحصون التي بهاندافع عن أوطاننا وأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأعراضنا بل هي قد تكون في نفس الحقيقة والواقع الحصون المنيعه للبلاد المحاطة بها المحافظة لاستقلالها كجبال الحبشة في أفريقيا وسويسرة في أوروبا

وهي التي تستخرج منها المعادن الثمينة كالحديد والنحاس والقصدير ونحوها من الجواهر ذات القيم الكبيرة التي نقلت الانسان من الأعرس الهمجية الى نور العرفان والاستكشاف والاختراع . فكلمة تقدمت الأمم في الحضارة والمدنية كانت الحاجة ماسة في عدم الاستغناء عن منفعة تلك الجبال التي لها

أيضاً دخل عظيم في تنظيم حالة الجوّ وفي تنظيم انحدار المياه من قممها وفوقها بقوة في المجارى والأنهار فنشأ احياء موات الأراضى ورى الشراقي منها فأخصبت وأصلحت البلاد وأروت العباد . على أنها واقيات للأرض من طغيان البحار عليها قال تعالى (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم والجبال أوتاداً) وقال تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتا)

وبالجملة خلق الله سبحانه وتعالى الجبال لمنافع وفوائد متعدّدة لا يحيط بجميعها الا هو . فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء ليحيى به العباد والبلاد وجعل الجبال لتستقرّ في بطونها المياه ويخرج أولاً فأولاً بقدر معلوم . ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها الى أن يحلّه حر الشمس فيكون منه أنهاراً

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع العشب والعقاير التي لا توجد الا فيها وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وما ينبت فيها من مزارع للأنعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش وهو واضع لأجناح النحل

ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون
على الطرقات في نواحي الأرض ويستدل بها المسافرون في
البحار على المين والسواحل
ومن فوائدها أن الفئة الضعيفة الخائفة من عدوان من
لا تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنع عنها من تخافه
فتطمئن لذلك

١٩

﴿ البراكين والزلازل ﴾

ان جوف الأرض حاراً بطبيعته فاذا حفر الانسان وجد
الحرارة تزداد وهكذا كلما نزل الى أسفل حتى اذا وصل
الى عمق بعيد ألتى حرارة كافية لتبخير المياه بسرعة مدهشة
فان صادف هذا البخار أرضاً سهلاً تصاعد من مسامها بدون
أن تحدث براكين ولا تفجر — وان صادف جبلاً فلا يسعه
الا أن يخرق تلك الصخور العظيمة القاسية ويتخذ معه ما يجده
في سبيله من طبقات الأرض كالحديد والكبريت والنحاس
والقصدير ونحوها ويقذفه للناس ينتفعون به وهذا مشاهد
كثيراً في الجبال التي على شواطئ البحار والمحيطات أو القريبة

منها كشواطئ آسيا الشرقية وأمريكا الغربية وجزر اليابان
وجزيرة اسلنده وكثير من بلاد في أوروبا - ومن المعلوم
أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض وكلها تسمح للمياه بأن
تخللها فتدخل فيها فتبخرها الحرارة والبخار من طبيعه يتصاعد
ولكنها الجبال تمنعه فيتراكم تحتها ويزايد وهو شديد وخصوصاً
عند ما يمتزج مع ما يقابله مما في جوف الأرض فيحدث
الانفجار في باطنها على أترتراكم تلك الأبخرة المائية بدرجة تمدد
عظيمة فينشأ عنه انكماش الطبقة السطحية وتندرج الصخور
التي في باطنها بعضها على بعض فيحدث من انفصال أجزاء
الجبل بعضها من بعض تمزق ورجة عظيمة واضطراب لسطح
الأرض يشعر به غالب العالم لأن القارات يتصل بعضها ببعض
وكذا الجزائر بواسطة سلاسل عظيمة تخترق البحار والمحيطات
وهذا الاهتزاز هو الزلازل التي تنشأ غالباً من البراكين
وقد لا ينشأ من ذلك كجبهات الألب وكما تحدث الزلازل
براً تحدث بحراً ويحصل لمائة مد فيغرق البلدان ويدمرها
وتعلو أمواجه نحو خمسين متراً فيحدث ما تشعر له الأبدان
ولا يخف سمعه على الآذان

وبالجملة ان سبب اشتعال البراكين نفوذ الماء الذى على سطح الأرض الى المواد التى فى جوف الأرض فيولد مقداراً من البخار فيدفع ما يكون أمامه بقوة غريبة . وبعض هذه البراكين هائج أبداً كبركان استرمبولى الذى يبلغ ارتفاعه ٢١٧٥ قدماً . وبعضها يهيج أحياناً وأحياناً يسكن كبركان فيزوف بالقرب من نابولى — وفى العالم ستمائة واثنا وسبعون جبلاً نارياً تتولد منها البراكين وتنشأ لأجلها الزلازل التى يخوف الله بها عباده فى مشارق الأرض ومغاربها

٢٠

﴿ هل مقادير الرجال بالأعمال أو بالمال ﴾

الأعمال كثيرة متفاوتة فى أهميتها وكثرة فائدتها وبحسبها تتفاوت العمال فى الفضل والمقام اذ الفرق بين رجل يجرى فى الطرق أمام العجلات ورجل يرشد الخلق ويهذبهم ويعلمهم ما يفيدهم فى دينهم ودنياهم كالفرق بين ذرة من الكائنات والكون كله — فمشهوروا الرجال الذين قادوا الأمم الى ما فيه نجاحهم وثروتهم وراحتهم وسعادتهم لم ينتشر صيتهم فى الدنيا الا عما ينوه للناس من المعارف التامة والفوائد العامة حتى

استنار بهم الكون . فمهم هداة الخلق الى خالقهم ورجال
السياسة الذين ساسوا الناس الى طرق الخير وضبطوا أعمالهم
وأحوالهم ورجال العلم الذين رفعوا مناره وأظهروا عجائب
المخلوقات وغرائب الكائنات فكثرت الأرزاق واتسعت
أبواب المعيشة واستقام الناس وانتظمت أحوالهم فهؤلاء هم
رجال الأعمال الذين أفادوا البلاد ونفعوا العباد فسعدت بهم
الأوطان وافتخر بهم الزمان والمكان . ولئن كان في العمل
التعب والمشقة فقيه اللذة والشرف

اصرف حياتك في جدّ وفي عمل * تعدّ حيا ولا تركز الى الكسل
والعمل هو الدليل الى حاجات الانسان وعلى نسبته الى الطبيعة
ولولاه ما كان الانسان ولا كان العمران — وكل عظيم مما
يملكه الانسان جاء به العمل العقلي والجسدى

فالاكتشافات والاختراعات والمبتكرات والشرائع
والنواميس والقوانين كلها نتيجة العمل والتعب . وأتعب
الناس وأشقاهم من لا عمل له فانه لا يرجى منه نفع لنفسه
ولا لغيره — والذين أوصلوا العمران الى حالته الحاضرة هم
أصحاب الحرف ورجال العمل والتعب سواء كانت أعمالهم

جسدية أو عقلية — والعمل وان كان لا يقوم بلا مال بل هو
الذى يدير دولاب الأعمال ويوسع نطاق العمران ولكن
المال وحده لا يجعل للرجال أثراً يذكر ولا تاريخاً يؤثر ولا
صيتاً يشهر فكلم من ذى كنوز لا يعرف اسمه جاره وكم من
فقير عامل له صوت فى أمته وكم من ذى فاقة يشار إليه بالبنان
وتلهج بذكره الألسنة فى كل زمان ومكان

هؤلاء الأنبياء والخلفاء والعلماء والملوك والأمراء هل
كان تخليد أعمالهم لوفرة أموالهم كلاتم كلاتم فأنما العمل هو
الذى أوجب على التاريخ ألا ينكر ما لهم من الفضل والعمل الصالح
وبالجملة لم نر أديباً من الأدباء ولا حكيماً من الحكماء
يحث الناس على جمع المال لذاته كما أنه لم يقع نظرنا على عاقل
يفتخر بماله . وإنما المأثور عن الفلاسفة الحث على العمل والمثابرة
عليه وما ذاك إلا لأن العمل هو الذى له قيمة فى الحياة وشأن
عظيم فى رفع الرجال

نعم ان المال قد يرفع ولكن مركزه مركز المساعد
الذى يمكن الاستغناء عنه ولا شك فى ذلك فان التاريخ لم يخلد
ذكر الناس لوفرة ما لهم ولكن لما قاموا به من الأعمال

هؤلاء الأئمة الغربية التي لها القدر المعلى في مضمار الحضارة
والعمران قد انبعثت منها أنوار العرفان فأفاضت على بنى
الانسان بما لم يكن في الحسبان . ذلت الأرض بالبخار
والكهرباء وسيرت الجوارى المنشآت على سطح الماء وطيرت
نور المناطيد في الهواء استجلاباً للرزق وتوفيراً للسعادة والهناء
وهي مع ذلك لا تزال تدأب وتستطلع من الأسرار المودعة
في الكون ما يجلى القدرة الآلية في أجل مظاهرها ويبرز
العمل الانساني في أكل معانيه وربما في المستقبل يتعلق الأمكان
بأبداع مما كان — ويخلق ما لا تعلمون

٢١

﴿ الاعتماد على النفس ﴾

أفضل ما يتحلى به العاقل اعتماده على نفسه في جميع أموره
وقيامه بحاجاته في عموم شؤونه بدون أن يتكل على صاحب
أو يعتمد على مساعد

وانما رجل الدنيا وواحدتها من لا يعول في الدنيا على رجل
كيف لا وأن طبيعة العمران وزعت الأعمال على الناس
فأصاب كلا منها على قدر طاقته فاذا اتكل زيد على بكر فكانه

أضف حمله الى حمل بكر وهذا لا يستطيع أن يحمل أكثر من حمله — واذا كان الناس كلهم متكئين فمن هو المتكئ عليه منهم — فاذاً قاعدة الاتكال فاسدة طبعاً — على أن الانسان له مطالب خاصة ومكلف بأداء أشياء يباشرها بنفسه ان اعتمد على غيره فيها تعسر قضاؤها وباء بالحرمان والخسران . وكم من مقاصد للمرء ترك حبلها على كاهل غيره فضاعت وولت الأذبار وقضى عليها الهلاك والدمار . مع أنه لا يتيسر للانسان أن يجد في كل وقت من يساعده في أعماله كما أن بعض الأمور لا ينبغي أن يتولى شأنها سوى صاحبها والمطالب بها — ورب امرئ يعتمد عليه الانسان وحينما يفتش ضميره ويرى ما أبطنه وأسره يظهر له جلياً ما يسوءه ويعلم أن خذلانته أحب اليه من نصرته ومهما يكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم فيجب على العاقل الا يعتمد في قضاء ما ربه الا على نفسه ولا يظن أن غيره يهمله أمره فيثق به فان ذلك دليل على ضعف عقله وعلى كسله وخموله فلا يلبث أوقات ولا تمر عليه ساعات الا ويكون عالة على غيره واضعاً نفسه موضع المسكنة والمذلة والاحتقار

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هو أنا بها كانت علي الناس أهونا
وأيضاً يكون من اعتمد علي غيره جاهلاً بحكمة خلقه جهولاً
يقول الشاعر العربي الحكيم

ماحك جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك

نعم ان في الاتحاد والتعاون مزايا شريفة غير أن ذلك يكون
في الأعمال العامة العظيمة التي تحتاج الى المساعدة ولا يقوى
الفرد بنفسه علي القيام بها . فما أشدّ حاجة الأمة الى أفراد
يعتمدون علي أنفسهم ويقوم كل منهم الى ما كلف به فاذا
دعاهم داعي التعاون والتعاقد لبوا نداءه وأجابوا دعاءه

وبالجملة ليس للانسان الا ما سعى اليه بجدّه وبمخته معتمداً
في عمله وأداء شؤونه علي نفسه . فمن باشر أعماله وناظر أشغاله
وشمر عن ساعد جدّه ودأب في عمله واعتمد علي كدّه وتعبه
وعوّّل علي يده ولسانه فاز ونجح وكسب وربح فلا برّ الا
ما كسبته يداك ولا خير الا ما سعت اليه قدمك ولا نفع الا
ما دبره رأيك ولا ثمرة الا ما غرس أصولها عقلك ولا نجاة
من غمرات هذه الدنيا الا بسفينة عملك التي توصلك الى برّ
السلامة وترفعك فوق سماء العرفان

وقصارى القول الاعتماد على النفس ملكة فطرية في النفوس يعتادها المرء منذ نعومة أظفاره ان وجد مقوّمًا حرا ومرشداً حكيمًا - وهى تنمو بالتعهد وحسن الرعاية وتقف بالترك وعدم العناية وكما تكون فى الأفراد تكون فى العائلات ثم فى الأمم

أما فى الأفراد فان نشأوا عليها شبوا على علو النفس وكبر الهمة وقوة الأرادة يتعدون عن الدنيا وترفعوا واستنكارا ويعملون الخير لذاته حبا واختيارا . فهى جماع خصال الخير تكسب صاحبها الشجاعة والأقدام وتجعله سيدا مطاعا فى قومه وعشيرته عزيزا فى نفسه وأمته لا يرهبه فى الحق صولة صائل ولا يخشى فيه لومة لائم

ومن نظر نظرة صادقة فى سبب رقى بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم فى أقطار الأرض شرقا وغربا وجد أنه هو الاعتماد على النفس فى الأمور التى لا يليق فيها الا الاستقلال وكلما تشبعت الأفكار بأن قيام المجتمع الانسانى متوقف على عمل كل فرد أحسن كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال الى استعمال ما أوتيه من الهمة والارادة

والاجتهاد وكل نفس بما كسبت رهينة وليس للانسان الا ما سعى

٢٢

قليل المال تصلحه فبقي ولا يبقى الكثير مع الفساد
 المال ثمرة الأشغال العقلية والأعمال الجسدية وهو قوام
 العمران والتمثال الذي تتجلى به الحكمة والقوة—والاكتساب
 أصل المال والاقتصاد سورة . قال الامام عمر رضى الله عنه
 (ان الله يحب القصد والتقدير ويكره السرف والتبذير)
 وقال أيضاً (أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله فان اقلالا في
 رفق خير من اكثر في خرق) وقال معاوية (حسن التقدير
 نصف الكسب) وهو قوام المعيشة — فالرجل المكتسب
 المقتصد هو الغنى القوي . والامة التي يتعلق أبنائها على حب
 الاكتساب والاقتصاد هي الامة الغنية الراقية مراقى الفلاح
 ومن يكتسب ويقتصد يسعى في خير أمته ومن لا يكتسب
 أولا يقتصد يسعى في خرابها - والاقتصاد ليس غريزة فطرية
 في الانسان بل هو خلق اكتسبه بالاختبار وتمكن منه
 بالتربية والممارسة — ومعلوم أن الناس مراتب ودرجات فمنهم
 أغنياء يعيشون بالراحة والرخاء ومنهم فقراء يعيشون بالتعب

والعناء وليس اختلافهم في الغنى والفقير ناشئاً من اختلافهم في الاجتهاد والمقدرة على الاكتساب بل الحقيقة ونفس الواقع أن منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في حسن التقدير والاقتصاد فكم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربى عائلة كبيرة ودخله قليل جداً . وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع ودخله وفير وكثير جداً

وطرق الاكتساب على أنواعها هي من لوازم الحياة ومن مسراتها

كل من في الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات فان الانسان لا يحيا ما لم يصارع الطبيعة من جهة ويستعين بها من أخرى فهي تدعو الى العمل والكدح لاجل تحصيل المعيشة ودفع الحر والبرد وهي التي تعيننا بانماء الحبوب والثمار والاصواف والاقطان لاجل الغذاء والدفاء—والناس متعاونون في الاكتساب فهذا يحرث الارض وذاك ينسج الصوف وذلك ينحيط الثياب أو يبني البيت أو يمهد الطرق أو يفتح الخللجان أو يعمل غير ذلك من الاعمال . ولولا الاكتساب لنفد المال الذي في أيدي البشر وبارت الارض وهلك الناس جوعاً

فلا استعداد للمستقبل هو الحكمة العملية ولكن كثيرين من الناس لا يهتمون بالمستقبل ولا يعتبرون بالماضي بل هم أبناء يومهم فاذا اكتسبوا الكثير أنفقوه كله واذا اكتسبوا القليل اكتفوا به واذا أخنى عليهم الدهر بكل كاله أحنوله ظهورهم وتوسدوا التراب واذا وافاهم الموت وأولادهم صغار تركوهم عالة على الناس ليربوا في الفقر والشقاء وهو لا يلو أنصفوا أنفسهم وأولادهم لعاشوا بالكفاف والاقتصاد وذخروا الى وقت الحاجة — وما يصدق على آحاد الناس يصدق على عامتهم . فالامة التي أبناءؤها مجتهدون مقتصدون في نفقاتهم هي الامة الغنية التي لا تهمها تقلبات الايام والامة التي يعيش أفرادها بالكسل والاسراف تبقى فقيرة لا صولة لها ولا قوّة

وبالجملة ان الانسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه الى آخر حياته بل ربما افتقر ومدّ يده الى السؤال أو انحط عن درجته وصار مادحة حاجياً وصديقه له معادياً — فيلزم والحالة هذه كل قادر على التكسب أن يقتصد من ماله جزءاً ينفعه وقت الحاجة وينفقه وقت الضيق فان آفات الدهر كثيرة فالتوفير أمر حسن ما لم يصل الى درجة الشح والبخل

والتقتير فيكون مذموماً كذلك انفاق المال في سبيله يكون حميداً ما لم يصل الى درجة التبذير فيكون مرزولاً ولا تغل في شئ من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأُمور ذميم

٢٣

﴿ الدين أشد أنواع الفقر ﴾

ان تستدن تمش حقيراً والمداين كالامير من ليس يكفيه القليل بل فليس يكفيه الكثير الاجتماع الانساني جسم حي نام متحرك وهو عرضة للقوة والضعف والراحة والتعب والصحة والمرض ويعتري بعض أعضائه داء عضال يذهب براحتهم ورفاهيتهم ويغلّ أيديهم عن العمل وينادهم عبيداً وهم من أهل السيادة وهو داء الدين الذي خربت به بيوت كثيرة وتورطت فيه بعض الممالك فاستنزفت ثروتها وزالت قوتها وهو كغيره من الأُدواء الكبيرة يصيب أهل الجاه والوجاهة أكثر مما يصيب الفقراء والصعاليك

وان منشأ الدين وأساسه غالباً الترف الذي هو من شر ملات هذا الزمان وأقوى مقوّضات دعائم العمران - والأغنياء

والفقراء متهاقون عليه تهافت الفراش على السراج — والمال
 لله معبود وعباده قد حادوا عن جادة الحق وساروا في الترهات
 فيطلبون الغنى بالمقامرة والسعة بالمخادعة ويتظاهرون أنهم أغنياء
 ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقيير — ويزعمون أن
 الانسان بحسن بزته وكثرة ولائمه وأن الاعتبار والاكرام
 لمن يكرم الأنام

والدين خدن الترف ومعاونه على فساد شؤون الناس
 وتبذير أموالهم وهو البلية الشديدة التي أصابت الرؤساء
 والمرءوسين والحمل الثقيل الذي تن منه دول الأرض العظيمة
 كما ين من صغار الفلاحين

والناس طبقات وكل طبقة تأنف من الامتزاج بالطبقة
 التي تحتها وتتوخى الصعود الى الطبقة التي فوقها وتبذل النفس
 والنفيس في طلب الوجاهة التي ليست مذمومة ولا عاراً
 ولكن العار في استعمال الوسائط غير المحللة لنوالها — ومن
 العجيب أن الناس يحسبون الغنى فضيلة وكياسة وعندهم أن
 الفاضل الكيس هو الغنى أو المتظاهر بزى الأغنياء
 ولقد أخطأوا في زعمهم هذا لأن الفقر بلا دين هو الغنى التام

فليس الفقر عاراً ولا منقصة اذا كان الفقير حراً شريف النفس
بل كثيراً ما يكون الفقر شرطاً للنجاح والشهرة والراحة وتاريخ
الناس أصدق شاهد على صحة ذلك فان أبسل الناس وأصدقهم
عزيمة وأكملهم مروءة أكثرهم من الفقراء - ولا يعاب
الفقير الا اذا أبطل الكدح وقصد التعيش بأموال الصدقة
أو التسول

وبالجملة اذا تمكن الدين من صاحبه لم يقف في طريقه
مال قارون ولا ينجو منه الا بالمنون . وفي الخبر الصحيح
لا وجع كوجع العين ولا غم كغم الدين . وقال عليه السلام
(الدين شين الدين) وكان يقال صاحب الدين ذليل بالنهار
ومهموم بالليل . وقال بعض السلف الدين غلّ الله في أرضه
واذا أراد الله أن يذلّ عبداً جعل منه طوقاً في عنقه . وقال
العتبي الدين عقلة الشريف . وقال ابن المعتز كثرة الدين تصير
الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً - - وقال الشاعر

اذا استثقلت أو أبغضت شخصاً وسرك بعده حتى التنادى
فشرده بقرض دريهمات فان القرض مقرض الوداد

٢٤

﴿ حب الوطن ﴾

الوطن طينة المرء التي نبت فيها أصله ونما فرعه ونشأت
حياته التي تغذت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقره الذي
تجاذبه عوامل الشفقة عليه والحنين اليه اذا شط به مزاره
وبعدت عنه داره وكنهه الذي يأوى اليه اذا نبت به البلاد
ويتوسع فيه اذا ضاقت عليه الأرباض

ان حب الوطن شعور نفساني واحساس وجداني ليس
بسلة يباع ويشترى فهو أشرف خلق يتحلى به الانسان وأحسن
شيمة ينطوى عليها الجنان وهو من أخلاق الأنبياء الكرام
عليهم الصلاة والسلام . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد
هجرته الى المدينة يحن الى وطنه مكة حيناً كثيراً مع أنه
خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له وايصالهم
الأذية اليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه اياها ويرده
اليها — وذلك في قوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن
لرادك الى معاد) ولذا قال عليه السلام (حب الوطن من
الايمان) وقال الشاعر

بلادى وان جارت على عزيزة ولو أنى أعرى بها وأجوع
فمن جعل نصب عينيه محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته
فقد رفع عماد أمته وشيد ركن دولته

وما المرء الا حيث يقضى حياته لنفع بلاد قد تربي بخيرها
فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان وأثره لا ينمحي عن
صفحات الجنان فكم بيعت في سبيله النفوس ببيع السماح وكم
رخصت دونه أرواح وغلت أرواح بل كم يرفع لرجال ذكرا
كان خاملا وشيدا لأعمالهم أثرا ماتوا وظل باقيا

ولى وطن آليت ألا أبيع وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
فسعادة الانسان مرتبطة بسعادة بلاده والانسان العامل في
وطنه هو الأمة لأن الأمة هي العمل ومن لم يعمل في وطنه
فعدمه خير من حياته فمجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوده بالعمل
حتى يبلغوا الأمل

فيا وطنى ان فاتنى بك سابق من الدهر فلينم بساكنك البال
وبالجملة فالوطن أب رحيم شفوق نتقلب فى نعمه فهو
أعز عزيز تسفك لأجله الدماء وتخضب السيوف وتخاض
المعامع وتشعل الحروب وتباع النفوس وتقاد الجحافل وتذك

الحصون وتنسف المعاقل ، فأرق شعور وأجمل احساس يثير
 في النفوس حمية تحل بالقلب هزة وتنزل به خفقانا هو حب
 الوطن — شعور يستصرخ اللب ويناجي القواد فيردد نداءه
 من أعماق القلوب وأقصى الأذهان — صوت وجداني خافت
 لكنه يرد النفوس مرهفات أو أشد قطعا — والعزائم مهندات
 أو أكبر وقعا

الوطن عائلة اذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعا واذا
 نزل بهم بلاء اقتسموه « الواحد للجماعة والجماعة للواحد
 والفردي يفدي الأمة والأمة تحمي الفرد »
 والوطنية أعظم سياج لاستقلال الأمة التي تصبح بدونها
 تحت رحمة العدو وسلطانة — فالوطني الحق لا يرى بلاده
 مهما أجدبت الا جامعة للخير العام — ولنباع سعادته يشعر
 نحوه بكل انعطاف وحنو اذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية
 كما يتمثل فيه آمال المستقبل

﴿ الآثار القديمة أو المتاحف ﴾

انما تصل الأمم الى ذرا الحضارة وتتسع مداركها في

الصناعة وتبلغ شأواً بعيداً في الارتقاء وتنهض من الهمجية الى المدنية وتحصل على الرفاهية والنعيم بما تظهره من المصنوعات المختلفة وما تبتدعه من المخترعات المتنوعة وما تخلفه من الآثار المحكّمة الصنع وما تتركه من المتاحف المتينة الوضع - وبديهي أنه كلما كان أساس الصناعة قائماً بين أيدي الصناع أمكنهم زيادة الاتقان واحكام العمل وتسهيل الانتفاع - لهذا ترك السلف للخلف آثاراً شهدت ببراعتهم وحسن اختراعهم فكانت كمرآة رأى المتأخرون فيها تمدينهم ورفاهتهم ورغد عيشهم وكأن لسان حالهم في أجدادهم يقول

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار
هي الآثار خير مرشد للصانعين وخير معلم للمتعلمين وخير
دليل للمبتدعين

ولهذا اعتنت الحكومة المصرية بجمع شتاتها وتجديد ما درس من معالمها لتكون مرشداً للمسترشدين ومصباحاً للمتقنين ونموذجاً للمخترعين ينسج على منوالها الناسجون ويحذو حذوها اللاحقون . وقد أدرك هذا السر العدد الكثير من الناس فخرجوا من ديارهم يؤمّون دور الآثار ليستفيدوا

من دقة الصنع واحكام الوضع وحسن الاختراع وجمال المبنى
ورونق المعنى ما لم يستفيدوه من قبل
وبالجملة فالمقياس الوحيد لتقدم الأمة ومبلغ رقيها هو مبلغ
اهتمامها بآثار من سبقها من الآباء والأجداد كيف لا وأن
الناس الذين يبحثون في آثار آبائهم وأجدادهم هم بلا شك
المتشبعون بمبادئ المدنية

٢٦

﴿ لا خير في علم بلا عمل ﴾

العلم مناط الحياة الاجتماعية وأُس الحضارة وال عمران
وأول المقومات التي لا تقوم الا بها حياة المجتمعات . فهو
طريق السعادة للدارين ومحور مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب
وما أزل المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأفقر أوطانه
بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدهمة بطلابه الا اهمال أهله للعلوم
واسترسالهم في الشهوات فلا تستقيم أعمال الانسان الا بالعلم
اليقيني الذي هو ترقى العقل الى درجة الاحاطة بما يكتنف
الانسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذي هو
حياة القوى بموت الضعيف وانما يتيسر وصول العقل الى

هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهديب اذا روعى فيها جانب
الفضيلة على وجه يشعر منه المتعلم انه انما يتعلم ليعمل فينفع نفسه
وئبى جنسه بالعلم

وكأى من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور
بوجوب العمل فهذا علم ولكنه لم يعمل بما علم فعلمه وجهله
سيان لأنه ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول
بالعمل فيعمل بما رزقه الله من العلم — وأولى بمثل هذا العالم
أن يخشى الله بكذبه على العلم فان الله تعالى يقول (كبر مقتاً
عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

فالعلم هو الميزان الذى تكافأ به قوى الشعوب المتنازعة
فى مضمار الحياة المدنية ما دام العمل به متبادلاً بين المتنازعين
ومتى وقف أحدهما عن العمل واستمر الآخر فى عمله رجح
هذا على ذلك بالضرورة فنازعه البقاء وغلبه عليه

فالعلم بلا عمل لا ينفى عن الحياة شيئاً بل لا يكون العلم
علماً الا اذا ظهرت آثاره فى الخارج وانما تظهر آثاره بالعمل
والا فأى فائدة من علم المرء أن الزراعة مثلاً من أسباب الحياة
البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها — ومن وجه

نظرة الى آثار العمل الصادرة عن العلم التي تفيضها على أرجاء
المشرق الأمم الأوروبوية الآن يحكم حكماً جازماً أن لا حياة
لأمة ولا بقاء لشعب بأزاء تلك الأمم المتعدينة ما لم يجارها
في ميدان العمل مجارة لا يعترى صاحبها الوهن ولا الكلل
ولا يطرأ عليها الخمول والكسل

وبالجملة أن الأعمال هي قطب دائرة الحياة الدنيا ومدارج
مرقاة العلا الى المراتب العليا وسبيل الوصول الى السعادة
الأبدية ودليل الحصول على الشرف والسيادة وبها تدرك
الغايات وتملك النهايات . وهي ثمرة العلوم ونتيجة المنطوق
والمفهوم . فالعلم بغير العمل فاسد والعمل بغير علم باطل والمجرد
منهما عاطل — هل رأى أحد صلاح عمل بغير علم ينشر . أو سمع
بصلاح رجل من غير عمل يذكر — كلا — هذا الحاكي
(الفونعراف) الجماد نطق بالقرآن والأذان والغناء والانشاد
ما ذاك الا من ثمرات العمل بالعلوم والمعارف

٢٧

﴿ لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله ﴾
الصحة نسبة بين صديقين منشؤها ميل طبيعي أو كسبي.

وهي حالة مطلوبة مستحسنة دليل على كمال فطرة الانسان
وأصله من اندفاعه بالطبع الى التعارف — بها يكون الأُنس
وتحيا النفوس وتتصافى القلوب فان حصلت الصحبة عن الميل
الطبيعي سميت صحبة اتفاقية وسببها التجانس والتشا كل قال
عليه الصلاة والسلام (ان الأرواح جنود مجندة فما تعارف
منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وقال الشاعر
ولا يألف الا نسان الا نظيره وكل امرئ يصبو الى من يشا كله
وقال آخر

وقائل كيف تفارقما فقلت قولاً فيه انصاف
لم يك من شكلي فقارقتي والناس أشكال وآلاف

وان حصلت الصحبة عن القصد والارادة سميت صحبة
اكتسائية وينبغي لمن يريد الكمال بحيث لا يلقي بنفسه الى
المهالك بصحبة الاشرار أو ذميمة الأخلاق والطباع بل يجب
الاختبار والاختيار . فالقرين يقتدى بمقارنه والصاحب تنسب
اليه أعمال صاحبه فان كانت حسنة شرف بها الصاحبان وان
كانت قبيحة أفهمت الناس أنهما على ضلال
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

فمن تبصر في العواقب وانتقى لنفسه خير صاحب يعين على دفع
الشدائد ويفغر الزلة ويقبل العثرة . صديق صدوق في السعة
والضيق فلا مرء في أنه يعيش مع صديقه هذا عيشة راضية
ومن اتخذ صاحباً من غير تجربة واختبار واختيار حسب
ما يشاء فقد كتب على نفسه العناء والشقاء

لا تركن الى ذى منظر حسن فرب راتقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته صفر العقارب أرهاها وأنكرها
وقال بعض الحكماء (اصحب من الاخوان من أولاك
جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنى جمائله وبقى شاكرآ
ناشراً ذا كراً لجميلتك يوليك عايتها الاحسان الجميل ويجعل أنه
ما بلغ من مكافأتك القليل)

فالوافر العقل هو الذى لا يصادق الا من أجمع الناس
على أنه من أهل الخير والاستقامة حسن الطباع جميل النوايا
ويتعد عن اللئيم الذى أجمعت العامة على خبثه وعدم
صلاحيته للمؤاخاة ولا يغتر بما يديه ذلك الخائن من البشر
والبشاشة

لا تغترر بالهش والبشر من فتى وحفظولين مثل مس الأفاعيا

وبالجملة ان الصحبة الكاملة تستلزم التعاون والتناصر على
 الخير والصدقة وخلص النية وكرم السر . وحسن المعاشرة
 واعظام القدر في الحضرة والغيبة والبر في القرب والبعث والعفو
 عن بعض الزلات
 اذا أنت لم تترك أخاك وزلة اذا زلها أو شكتما أن تفرقا

٢٨

﴿ ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه ﴾
 وعلاج الأبدان أيسر خطباً حين تعتلّ من علاج العقول
 المرابي هو انسان يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله الى
 غيره وهو من المسترشدين بمنزلة العود من الظل فلا يستقيم
 الظل والعود أعوج — فالمرابي لا يؤثر بأمره بل بفعله — ومثل
 الذي يعظ ويفعل كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها
 وكالمسك يطيب غيره وهو طيب — ومثل الذي يعظ ولا يفعل
 كالقمر يضيء ولا يدفيء فربما سطع القمر والليله صقعا — أو هو
 مثل المسنّ الذي يشدّ غيره ولا يقطع — والابرة تكسو
 غيرها وهي عارية — وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق
 ما هي الا ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

قال سبحانه وتعالى (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم)
وقال أيضاً (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال
بعض الحكماء (اذا كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب
حسن المذهب تأدّب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده
وقال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسد هم رب الفساد اذا فسد
فيعظم في الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
ولذا وجب على المعلم أن يكون كونه مطابقاً لقوله فليكن كما
يجب أن تكون تلاميذه ليفعل ما يلزم أن يفعلوه وليترك
ما يلزم أن يتركوه وليبدأ باصلاح نفسه قبل اصلاح تلاميذه
فاذا عظم قويت رغبتهم فيه وانقيادهم لأوامره والعكس
بالعكس — ولا بد أن يكون المعلم مائلاً بجانبه الى تلاميذه
محباً لهم شفوفاً عليهم شغوفاً بتكميلهم كالوالد لولده اقتداءً بمعلم
الأنام عليه الصلاة والسلام حيث قال (انما أنا لكم مثل الوالد
لولده) ويتبع الميل القلبي لطف الجانب وبشاشة الوجه ولين
القول والاحسان اليهم — قال بعض الحكماء (البشاشة مفتاح
القلوب) ومتى فقد الميل القلبي خاب الأمل وضل المسعى فان

المعلم العبوس الوجه القاسى القلب لا يكسب الناشئة علما ولا
أدبا بسبب نفورهم عنه وعدم ميلهم الى جانبه ويتطرق ذلك
الى أخلاقهم فتسوء وتخبث . قال تعالى (ولو كنت فظاً غليظ
القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى (لا تستوى الحسنة
ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن)

وينبغى أن يكون المعلم ثابت الجأش حازم الراى نافذ
الحكم قوى الارادة لا يريد هذا تارة وذاك أخرى فلا يأمر
تلاميذه بأمر يتساهل عن تنفيذه أو يقول قولاً يرده

القول كاللبن المحلوب ليس له رد وكيف يرد الحالب اللبن
أو ينذرهم بعقاب لا يقيمه أو يأمرهم اليوم بأمر ينهاهم عنه
غدا وبالعكس لأن للناشئة شعورا دقيقا بارادة المعلم فمتى
صرمت أسلموه أزمتهم وأعنتهم ومتى تقلبت شردوا عنه ونبذوا
طاعته وراءهم ظهريا ولم يكثرثوا بأمره أو نهيه

وبالجملة فيجب أن يكون المعلم حكيما متبصرا يضع الأمور
فى مواضعها عارفا كيف يأخذ المتعلمين حتى يبلغ بهم الى
المقصود المادى والأدبى عالما بوسائل التربية والتأديب فلا
يعاقب قبل تهديد ولا يهدد قبل انذار ولا ينذر قبل تذكير

قال بعضهم (العتاب قبل العقاب فليكن ايقاعك بعد
وعيدك ووعيدك بعد وعدك)

ولا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بالعنف
فان منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف
ومن ينفعه الاحسان بينما يسوء الآخر ومن يؤثر فيه النظر
بينما الآخر يحتاج الى العصا كما قيل

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام
وقصارى القول بأن من تلقى اليه أئنة الأبناء الذين هم
ثمرات الأئمة والمستحق لثناء الأمة ورضا الآباء هو الذى
عرف واجباته فقام بأعبائها وترقب نفسه فجاز بمعرفتها واستفاد
فأفاد واستهدى فهدى وبلغ فأبلغ وتأدب فأدب ونال النهاية
فأنال الغاية حتى يكون مصباح الظلماء ووارث الأنبياء

٢٩

﴿ على من تلقى مسئولية التربية ﴾

أعلى الوالدين أم على المدارس

من المعلوم أن الانسان مخلوق أدبى لا يمكن نموّ قواه

الأدوية إلا بفعل متميز عن الفعل الذي يؤثر في بنيته بخلاف الحيوانات فلا تطلب سوى نموّ جسمها — ومن ثم لا يكتفى الإنسان في تربيته بالأحوال الطبيعية المكتملة لتربية الحيوانات بل نراه مضطراً إلى كونه من جنسه يعرفه الغاية الإنسانية ليأخذه بتربية روحه وعقله — ولذلك ألقى الحكيم جل شأنه في قلوب الآباء رافة طبيعية ومحبة فطرية إلى أبنائهم ومن هنا يعلم أن الوالدين هما أول مربّ للإنسان — والعائلة هي أول مقامات التربية

ولما كانت الهيئة الوطنية بما لها من التعارف والاجتماع تطلب من الأفراد الطاعة لناموس الوطن والتعاون على الأحوال المعاشية حاجيها وكما ليها حتى يمكن حفظ بقاء الأمة وسرورها بالحياة يعلم بالضرورة أن العائلة مدينة للهيئة الوطنية — وبحكمة أن الحكومة هي القيمة على الهيئة الوطنية والناظرة في شأن الأفراد من جهة الخصوص وفي أحوال المجموع من جهة العموم طلبا لحفظ التناسب بينهما تكون الحكومة مدينة أيضاً للعائلة والأمة بحيث يجب عليها تمهيد سبل التربية والتعليم وتنبيه الأفراد إلى واجباتهم ولا يحصل ذلك إلا بوجود عدد

كاف من المدارس تتخرج بها الأبناء علما وعملا وعقلا وأدبا
ومن ذلك ينتج أن المدرسة هي الواسطة لجمع دائرتي
العائلة والحكومة وهي مع ذلك ليست الا مكملة لنقص
التربية في العائلات ضرورة أن للعائلة المقام الأول من
مقامات التربية كما لها النفوذ الأعظم علي الأبناء — بصلاحتها
تصلح الناشئة وبفسادها يفسدون . وهي الجو الأول الذي
يتنفس فيه الناشئ فمتى كان الجو خالص الهواء تربي الناشئ
سليم البدن والعقل والعكس بالعكس . والحكمة في أن للعائلة
التأثير الأعظم في تربية الناشئة ان خيراً وان شراً أمور
منها سلطة محبة الوالدين لأبنائهما فانها تورث في الأبناء
المحبة الى الوالدين ويتطرق ذلك الى محبة غيرهما وتلك المحبة
المشتركة تعتبر أول أساس للتربية العمومية والحصول
علي الفضائل

ومنها سلطان المثال حيث يؤثر في تربية الأبناء ضرورة
أنهم يصرفون عامة أزمانهم في العائلة فمن كان أبوا مشغوفين
بالنظام والترتيب محيين للوطن متكملين بالفضائل كالكرم
ورقة الجانب والرافة ونحو ذلك خرج متطبعاً بتلك الخصال

والعكس بالعكس - ومنها الأحوال العائلية التي هي المدرسة
الأولية الأساسية للناشئ فيقف بها عند حد محدود
ويجب أن يكون المنزل والمدرسة سائرين في طريق واحد
هي غاية الحصول علي المقصود من التربية العامة - والمدرسة
لها النفوذ الأعظم بالنسبة إلى التعليم بينما المنزل له التسلط
الأكبر بالنسبة إلى التربية ضرورة أن بالمدرسة وسائط للتعليم
يفقدها المنزل كما أن المنزل أقدر على التربية بحكمة تصرف
الآباء في الأبناء

ولكل من المدرسة والمنزل حقوق يجب القيام بها فإما
حقوق المدرسة على المنزل فهي أن ترسل الآباء أبناءهم إلى
المدرسة في المكان والزمان المقرر لهم بالضبط وأن يمدوهم
بما يلزمهم ماديا وأدييا وأن يساعدوا المدرسة بالقول والفعل
وأما حقوق المنزل على المدرسة فهي أن تلاحظ المعلمون
الأحوال العائلية وما يلزم أن تقوم به أبناءهم لهم من
الفضائل ومكارم الأخلاق

ومن حقوق الحكومة على المدرسة أن تبعث في الأبناء
الطاعة لقانون الوطن وحبه والتعاون وتشريف العوائد والآداب

الموطنية وحب الراعي والرعية وغير ذلك
ولذا ينبغي أن يختار لوظيفة التعليم المؤدبون المستكملون
لمكارم الأخلاق الذين يقدرون على ضبط ارادتهم وحفظ
أميالهم والذين يميلون الى حب الوطن وتربية أبنائه

٣٠

﴿ هل الأفيد تقسيم الدراسة الثانوية الى أدبي وعلمي ﴾
كما هو الآن — أو توحيدها كما كان

لا خلاف في أن القوى العقلية ليست سواء في أفراد
النوع الانساني فهذا تزيد فيه قوة التخيل وذلك قوة التصور
وذلك قوة التذكر وهكذا — وبحسب ذلك الاختلاف يكون
الاستعداد — فمن قويت فيه قوة عاقله من تلك القوى مال
بطبعه الى ما يلائمها

فمن التلاميذ من يميل الى علم العدد — ومن يشغف
بالتاريخ — ومن يرتاح الى التشريع — ومن يميل الى الفلسفة
وهكذا القول في الصنائع — فهذا له استعداد في أعمال التجارة
وذلك في أعمال الحدادة الى غير ذلك

وبيان ذلك ان للانسان أربعة استعدادات

الاستعداد الأصلي الناشئ عن التخيل النظرى وصاحبه
 له ميل الى الترقب والبحث سواء فى المعقولات والمحسوسات
 والاستعداد الأصلي الناشئ عن التخيل التحضيرى
 وصاحبه يميل الى التفنن والاختراع
 والاستعداد الفرعى الصادر عن التخيل النظرى ولصاحبه
 ميل الى التقسيم والتحليل كالرياضيين
 والاستعداد الفرعى الصادر عن التخيل التحضيرى
 ولصاحبه ميل الى ايقاع الحكم كأصحاب الفلسفة والقوانين
 وربما اجتمع كثير من أنواع الاستعداد فى فرد واحد
 ولترقب الاستعدادات الناشئة أهمية كبرى عند الغربيين
 فترى الآباء والمعلمين يترقبون الأبناء عامة نشأتهم فاذا رأوا
 فى أحدهم استعداداً لفن أو صناعة أو عمل من الأعمال
 لمعاشية خصوه بها — ولعمر الحق ان ذلك لهو التبصر بعينه
 كما أن تخصيص الناشئ بشىء لا استعداد له فيه لهو الضلال
 المبين . قال (دانتة) الايطالى ضمن أشعاره ما معناه (ان
 طبائع الناس مثل بذور النبات تجود زراعتها اذا صادفت
 أرضها الحقيقية ولو تبصر الناس الى ذلك لجادت فيهم الانسانية

ولكنهم في غفلة عن هذا الناموس الطبيعي فتراهم يخصون
 للدير من خلق للسلاح ويلقون مقاليد الملك لمن خلق للوعظ)
 ولما كان هذا هو الداء العضال المنبعثة جراثيمة بين
 أبناء المشرق الذين يرغبون في طلب العلوم والمعارف خصوصاً
 طلاب القسم الثانوى فكان الواحد يدرس ما لا يرغبه ولا
 يوافقته ويضجع فيه السنين الطوال ولا يحصل من الغنيمة بعد
 الكد الا بالقفل والخيبة والفشل — ولما شعرت المعارف
 المصرية بهذا الداء الذى كان عقبة في نموّ التعليم الثانوى
 قسمت الدراسة الى قسمين علمى وأدبى وأباحت لكل تلميذ
 أن يختار لنفسه ما يحلو له وما يوافق عقله واستعداده
 فكثرت الرغبات وقويت الهمم واشتدت العزائم
 وكثر الاقبال وتوسم كل تلميذ لنفسه مستقبلاً زاهراً معلقاً
 جده بالنوال ومتوكلاً على الله تعالى في حسن الا مال

٣١

— فوائد الحرية —

الحرية كلمة لها معنى جليل يسحر العقول ويدهش الألباب
 تصبو اليها النفوس من أحقر وحشى الى أرقى مدنى — يبذل

كل في سبيلها ما ملكت يداها اذ هي تنير قلب الطفل حين ولادته كما تملأ فكر الكهل وتشغل ذهنه على وسادة موته والحرية للبشر ركن السعادة وروح الكمال فلا جمال في حياة لا تتمتع فيها كما نريد ونختار ولا خير في جسم يريد أن يعمل في ركض ولا خير في ذهن يريد أن يفكر في ضغط ولا خير في قلب يريد أن يشعر في جرح - ومافائدة كل هذه المواهب اذا سلبناها عنوة واكراهاً

ان الانسان لم يخلق لأن يثقل بالسلاسل والأغلال وانما كان كماله النوعي في اطلاق مداركه وقواه للعمل والحركة فالحرية هي القدرة - هي الحركة - هي الحياة - هي العدل هي المساواة - بل هي السبيل للوصول الى أرقى مطالبنا والحرية ليست مطلقة اذ لا مطلق في هذا العالم بل كل ناموس له حدود ومستثنيات . فهي مقيدة بهذا المبدأ وهو « أنه لا يجوز أن تكون حرية شخص محجفة بحرية آخر » هذا هو المبدأ الذي يجب أن يكون أساساً لتعامل الناس وأصلاً للروابط فيما بينهم والحرية حق يقابله واجب وهو المسؤولية فاذا أساء شخص استعمال حريته بهضم حقوق الغير يكون مداناً ومطالباً

باصلاح ما أفسد كما أن الغير مسئول عما يلحقه به من الضرر
ولا ينكر أحد أن منح الحرية لأمة هو من الأمور
التي تحتاج لدقة المراقبة واطالة النظر لأنه يجب التدرج فيها
والتدرب عليها شيئاً فشيئاً ولذا يقال أن عنوان الحرية التي تمنح
لأمة بحيث لا تنذر بضرراً أو سوء هو درجتها من التربية
ونصيبتها من المعارف التي تضيء سبيل الحرية وتحيي الشعور
بالمسئولية — فالرجل الذي لا يقدر نتائج أعماله ولا يدرى
حقيقة حاله نحكم بأنه لا يحسن استعمال الحرية
لهذا كان أهم واجب على الحكومة هو أن تدرب
الأمة تدريجياً على الارتقاء في الحرية عملاً بقول الحكماء
(ازدد نورا أزدك حرية) وقال آخر (أحسن الدرجة التي أنت
بها أرفعك لغيرها)

فالحرية تشبه السلاح ان مسكته يد حازم كان فيها ماضياً
وان تناولته يد جهول كان عليها قاضياً

وأنواع الحرية كثيرة — منها حرية الفكر وهي أجل
حرية فطر عليها الانسان ولا يمكن اعدامها أصلاً . فالفكر
لا يقتل أبداً والمذاهب الصحيحة والآراء القويمة لا تعدم

ومنها حرية العمل لأن الانسان محتاج للسعي وراء الرزق طلباً لقوته وملبسه ومسكنه فيجب ألا يمنع ولا يحرم من قواه ومن اياه الشخصية بل يترك حراً في عمله ما دام لا يمتهن حرية الغير وما دام عمله ليس من الأعمال المحرمة حفظاً للأمن وحرصاً على الآداب العمومية

ومنها حرية الاجتماع فلاتم حرية الفكر ولا تقيد حرية البدن اذا لم يمنح الانسان حق الاجتماع باخوانه على مرأى من الأمة والحكومة مبادلة للأفكار في الشؤون العمومية حتى يتبين صحيح الأفكار من سقيمها أو طلباً لحاجاته حتى يتيسر لمن لا يجد في نفسه القدرة على القيام بعمل وحده أن يجد من أخيه ومواطنه نصيراً وظهيراً — فحرية الاجتماع ضرورية لأن « الانسان مدني بالطبع »

ومنها حرية الاعتقاد وهي من أقدم الحريات اذ توجه الدين لأخلص شعور في الانسان فيخاطب اللب ويناجي القلب ويستصرخ العقل . وهو المنق للنفس من الشوائب والأدران وهو الذي يرفع لأرقى الفضائل حيث يجد الانسان لذة واطمئناناً — يجد تسلياً وتعزية في الحياة الحالية وأملًا وهناء

فى الحياة الأخرى — إنما تقيد هذه الحرية بألا يجبر أرباب
 دين أهل دين آخر على اتباعهم (لا اكراه فى الدين)
 ومنها حرية اللسان أو الخطابة وحرية القلم أو الصحافة
 هذان النوعان من الحرية يرتبطان ارتباطاً تاماً بحريتي الفكر
 والاجتماع فليس للانسان فقط عقل يفكر به بل له لسان يعبر
 عن تلك الأفكار ويفصح عما يكنه الضمير — لهذا وجب أن
 يكون من حقه التكلم والمراسلة وكتابة ما يعنى له من كتب
 وصحف اظهاراً لآرائه ونشراً لأفكاره اذ كل هذه صور
 للكلام البشرى وليس من حد لهذا سوى احترام حقوق
 الغير — فاذا أضرّ شخص جاره بكلامه أو أحدث هياجاً مما
 بخطابه فهو مسئول عن خطئه معرّض للجزاء عليه
 وليس ثم أشد استبداداً وأكثر اعتسافاً مما وصلت به
 الحكومة لمحاربة الأفكار ومكافحتها والتضييق عليها بهذا الحد
 من الظلم وبهذه الدرجة من المساواة حيث لا تسوى بين
 الأفراد بل تفرق بين الجمع — فهذا الحكومات الجمهورية
 والديموقراطية وبعض الشورية تناضل عن حرية الصحافة
 والخطابة أمام المحاكم لما فيها من النفع متى حسن استعمالها

ومما لا شك فيه ولا مرأى أن الحرية من أجلّ النعم
التي وهبها الخالق لنا ولا يجوز أن تقام في وجهها الحدود الا
لباعت وضرورة فكلما زادت الأمة عرفانا بحقوقها وواجباتها
(بالتربية للموطنية) كلما خفت قيودها وقربت من الحرية
الصحيحة . فعنوا ان درجة الأمة من التهذيب هو ما تتمتع به
من الحرية فقد قال «نومادروز» فقيده سويسره (ان من الدلائل
الصادقة أن تقاس درجة الأمة في التقدم والارتقاء أو التأخر
والانحطاط بمقدار نصيبها من الحرية الذي تتمتع به أبناءها)
فالأمة التي لها الحظ الأوفر من الحرية ولها أبناء يحسنون
استعماله هي أرقى الجميع بلا خلاف مهما صغر اتساع أراضيها
وقل عدد سكانها — فان في ذلك قوة أدبية عظيمة تسموها
فوق الممالك الأخرى وتضمن لها حياة طيبة وسعادة مرضية
بل تحميها وتذود عن استقلالها أكثر من قوة المدافع والنيران
وبالجملة ان الحرية (من حيث هي) استقلال العقل
والارادة وانطلاق اللسان من قيد العبودية لأي شيء الا الله
سبحانه وتعالى فهي واجبة له سبحانه لأنه خالق الانسان
وواهب العقل — وتنقسم الحرية بالتعريف الأعم الى حرية

عمومية وحرية شخصية - فالحرية العمومية تكافؤ الأمة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأى وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتى لا يعث بها عايب أو تصرف على غير وجهها المقصود تبعاً لأغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام وقد قررتها الشريعة الإسلامية ولها من الأثر العظيم في ترقى الأمم ونشر لواء العمران ما يشاهد عند الحكومات الأوروبية المعتدلة الآن وما بلغ من المسلمين في الصدر الأول مبلغاً من القوة والمدنية والمجد يقف دونه النظر حائراً والانسان مقراً بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرناً للمسلمين ولم يتوصل إليها غيرهم من الأمم الا في هذه القرون الأخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصي الولدان وانصبغت هامة المغرب بنجيع الانسان

والحرية الشخصية أمن الانسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التي تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملاً فيه

٣٢

﴿ الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان ﴾
 ان الحرية هي استقلال العقل وانطلاق اللسان من قيود
 الاستعباد المطلق . ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين
 طرفي الافراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة ونهت
 فيها حب العزة والكرامة
 والنفس الكريمة تأبى الاحجام وتنشأ على الاقدام فتطلب
 جلائل الأعمال وتبذ طرق الدنيا وتطرح راحة الأخلاد الى
 المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية الامسبوقا
 بالروية مقرونا بالفضيلة دالا على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة
 الناشئة عن عزة نفس اذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما
 حياة الأمم ومبعث مجد الانسان وعكسهما الرعونة والطيش
 وهذان الخلقان يلازمان طرف الافراط في الحرية كما يلازم
 طرفه الآخر وهو التفريط والذل والمسكنة والوسط بينهما هو
 الرزانة والثبات

أنظر الى بعض الشعوب الأوروية الذين تنهى عندهم
 الآن الافراط في الحرية الذي دعا الى التفريط بالفضيلة حتى

انطلقت النفوس في ميدان الشرور وانعمست في الرزائل تحت
اسم الحرية وأيضاً ما يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند
كل حادث سياسي - وكل هذه أمراض وبائية ليس أسرع
من تفشي ضررها في ربوع المدينة وقتك فتكاذريماً في
الانسان - ولقد أحس الغريون ببلاء الافراط بهذه الحرية
وما تأتي عنها من المضار التي أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية
في ربوع المدينة وتهديدها لها بالخراب والتدمير

وأما المفرطون في الحرية فمثلهم مثل الأمم الشرقية التي
فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعضا القهر سوق
الأنعام وناهيك به ذل قاتل للنفوس مميماً للهمم مفقداً للاقدام
نشاهده الآن بالعيان - لهذا جاء الاسلام هادماً لأركان
الاستبداد ومرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة
النفس الداعية الى الرزاة والثبات الباعثين على العمل المهد
لسبل المجد والسؤدد - وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً
لم تنله أمة من الأمم حتى بلغوا من العزة مكاناً رفيعاً وانما
انخطوا الآن الى درك الضعة لما علم من أن العزة ملازمة للحرية
وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا أولياءهم أرباباً من

دون الله ومن يدع مع الله الهاً آخر فحسابه على ربه (ولن
تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً)

وبالجملة فالحرية حياة الأمم ودعامة التمدين وأساس
الرقى العقلى فى هذا الوجود البشرى وشرطها الاعتدال وبه
جاء الاسلام وبهما عمل المسلمون زمانا قامت لهم به الدول
وشيدوا دعائم العمران ونشروا راية العلم وأخذوا بجماع
القوة فهدموا بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد
فلكوا قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف
عناصرهم وتباين مشاربهم قال عليه الصلاة والسلام (لا فضل
لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى)

والعيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الشرقية
والحرية الغربية لا يستويان (قل هل يستوى الأعمى والبصير
أم هل تستوى الظلمات والنور) وحرية الغربيين الأذنين يفرق
فيها بين الشرق والغربى والمسلم والنصرانى بل والبروستاتى
والكاثوليكى - والحق فيها للقوى يسحق بقوته الضعيف
ويستهين بمحقوق من عداه - فمثل هذه الحرية تقابل بالسخرية
والنبتد والاستهجان لأنها استعباد تأباه الانسانية والانسان

ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر و زمان

٣٣

﴿ المساواة ﴾

إذا كانت الحرية عزيزة على الانسان فالمساواة لا تقل عنها معزة ولكن وجود مساواة كاملة تامة مطلقة في هذا العالم مستحيل إذ أن قوانين الفطرة ونواميس الكون أشد وأقوى من أن تدعن لسلطان ارادتنا ورغباتنا فليس في قدرتنا ما يجعل أفراد البشر في مرتبة واحدة وليس فينا ما يمنع وجود أناس أشد باساً من غيرهم وأعظم قوّة أو أحدّ ذكاء إذ الناس رجالان رجل عرف كيف يسلك أحسن سبيل في الحياة ويتقن عمله فيه بحرصه على النظام ومحافظته على الاقتصاد ورجل ضعيف صعب عليه جهاد الحياة والمزاجمة فيها فضلّ عن السعادة وما كان من المهتدين

وهذه الاختلافات التي لا محيص عنها الواقعة بين الرجال واقعة بعينها بين الأمم فلا تتمتع جميعها بالنعم الوافرة والخيرات العيمة إذ منها من تسكن الأقاليم المعتدلة فتتهض للعمل والسعي وراء الرزق فتنال أعظم نصيب من خيرات تدفق ونعم تتوالى

ومنهما من تقطن الأقاليم الثلجة فلا تنعم لها حياة ولا
يرغد لها عيش إذ قد تكون أكثر نصبا وتعبا وأكبر بلاء
وعناء وأنقص كسبا ورزقا وأقل جزاء وأجرا

ومنهما من تعيش في البلاد الحارة وليس عليها إلا أن
تمتع وتعيش فالحاجات مقضية والأرزاق قربية واسعة

وهكذا في الأقليم الواحد كلما تبينت الأوضاع اتسع
نطاق الخلاف - فالأمم الجبلية وأمم الصحارى أكثر قناعة
وأعظم بأسا وبطشا من أهل البلاد المستوية أهل السهول
والوديان - وكما اختلافات اقتضتها ارادته تعالى ليس للانسان
أن يعارضها ولا أن يقف أمامها - فما دام القطبان ما دام خط
الاستواء ما دام الشمس والظل والحرارة والبرودة مادامت
أرض خصبة وأخرى قحلة فإن الاختلافات تبقى بين الرجال
والأمم كالاختلافات الواقعة بين الحيوان والنبات

وحينئذ فالساواة الحققة هي التي يتيسر للانسان الحصول
عليها - هي الكفالة لحاجات الجميع جهد المستطاع - هي
الساواة في الحقوق - وتتنوع الى أنواع

منها المساواة أمام القانون فلا تفرقة بين فقير وغنى بحيث

يكون القانون واحداً للجميع - والمتأمل يجد أن الشريعة الإسلامية وضعت المساواة أساساً في العبادات والمعاملات وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبي موسى الأشعري يقول له (سواء بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يئس ضعيف من عدلك ولا يطمع شريف في حيفك) ولكن من ألقى نظره للعهد القريب لا يجد أثراً لها في بلادنا فقد عرف عندنا المماليك مرة والشراكية أخرى كان الحاكم منهم أمة بتمامها. وكانت الأبناء منهم تتولى أمور الناس ووراثة عن الآباء فلم يحتاجوا لأن يبرهنوا على كفاءتهم وسعة معارفهم حيث ميزهم القانون ورفعهم فلا تمسهم نوائب الحداث ولا طوارئ الزمان

ولا شك أن كل هذه المؤلمات المبكيات مما يناقض العدالة وينافي المساواة—ولذا وجب على كل ذى شعور حتى أن يعمل لازالة هذه الامتيازات ومحوها من الدرجات

ومنها المساواة في التعليم فبعد أن تمنح الأمة أبناءها المساواة في الحقوق يجب عليها أن تبث روحاً تعدد لديهم المطالب وتزيد آمالهم اتساعاً—روحاً تمكنهم من الوصول الى

مساواة أرقى—روحاً تمحو كل امتياز اجتماعي غير عدل وتلك
الروح هي: (التربية) فالفقير يحسن مستقبله بها كما يسوء حال
الغني اذا عدل عنها

ولكن المساواة المطلقة في التربية متعذرة حيث تتفاوت
المدة التي يخصصها كل فريق للتعليم—انما تكون المساواة في
المعارف الضرورية التي يلزم كل وطني الألمام بها
ومنها المساواة في العمل وهي جعل كافة الوظائف مفتوحة
للعوم فلا احتكار ولا التزام فالغني والفقير سواء في حرية
العمل— اللهم الا حدوداً مفروضة حرصاً على الآداب أو
الأمن العام— وأما وظائف الحكومة فلا تعطى الا لكل
ذى أهلية واستحقاق

ومنها المساواة السياسية وهي تخويل الحق لكل فرد أن
يعطى رأيه في تدبير الحكومة ويرفع صوته في حل المسائل العامة
فالصوت العام وان كان له عيوب وأوجه نقص انما هو
أفضل نموذج وأحسن أسلوب تهتدى به الحكومات لسلوك
أحسن سبيل في السعادة . فالمستقبل في الحكومات له وحده.
ومنها المساواة في الواجبات— فكل وطني عليه واجبات.

نحو عائلته ووطنه • عليه لذويه الغذاء والنفقة والتربية والتعليم
ولا يمكن اعفاء أحد من هذه التكاليف التي تكلفنا بها الطبيعة
وتدفعنا إليها الغريزة - وعلى الانسان لوطنه تكاليف
منها خدمة العسكرية ودفء الضرائب فكل مطالب بهذا
الواجب حسب قوته وثروته

ويجب أن يكون القانون عادلا في هذه المسائل نافذا
على كافة الأهالي انما يختلف باختلاف أحوال الرعية فمن كان
أوسع ايرادا دفع مبلغا من الضرائب ومن كان ضعيفا أعفى من
الخدمة العسكرية - ولكن متى اتحدت أحوال الناس وظروف
معاشهم تساوى الجميع أمام القانون

٣٤

﴿ الاخاء ضرورى للبشر ﴾

ان الناس أخوة تتقاسم الأحزان فتتعاون عند كل ملمة
ويغرس في القلوب من حسن الشعور وشريف العواطف
ما يوجه الأفتدة لمواساة الاخوان ومحاسنتهم • ويبين أن
الدقة في المعاملة وعدم التساهل والضبط في الحقوق وعدم
التسامح يؤديان الى حب الذات مع أن كمال الانسان في كرم

النفس وطهارة الروح

هذه المؤاخاة دعت الغنى لبذل المال تخفيفاً لآلام الفقير
 وبعثت القوى لمساعدة الضعيف والسليم لعيادة المريض وتقوية
 آماله - وهذا رأينا الأفراد تتعاون على إقامة دور البر
 وأماكن الخير (ملاجئ) للفقراء ومستشفيات للمرضى وبيوت
 لتربية الأطفال وماوى للمجانين وغيرها - واستمرت هذه
 الأعمال الخيرية عدة قرون ولا نصير لها غير أيدي المحسنين
 ولم تتنبه الحكومات لهذه المسائل الا في العهد الأخير
 (ما عدا الحكومات الاسلامية فكان بيت مال المسلمين فيها
 منشأ لهذا الغرض) فقد اعترفت « بأن عليها واجبات للفرد
 وله عندها حقوق » فعلى الحكومة التي ترعى حقوق بنينا
 وتسعى وراء سعادتهم أن تقبل من يعثر منهم وتواسيه وتشارك
 المصاب وتوازره وتأخذ بيد الضعيف وتحقق عنهم ويلات
 الزمان ونوائب الحدتان بجميل الشفقة والرحمة بطريق الاعتدال
 والذي يستحق المعونة اما صغير تحفظ ثروته أو كبير
 متلف لماله أو فقير أو عجوز أو مريض أو عامل ضعيف
 فالصغير للحكومة الحق في معاقبة أيه اذا أساء اليه

بحرمانه من الحقوق العائلية - ولها أن تنصب القوام والأوصياء
 لحفظ أموال الصغير القاصر أو الكبير المبذر السفية أو المعتوه
 ومساعدة الفقير بأن تفي الحكومة بنفقته متى تحقق لديها
 عجزه عن أى عمل يؤديه والا اذا أعانت كل فقير تكاسل
 الناس وانصرفوا عن أعمالهم الى « تكاياها » حتى تنفق عليهم
 وأولادهم - وهذا مما يثبط همم العاملين المقتصدين ويخمد
 عزائمهم حيث تثقل الحكومة عليهم الضرائب ليتيسر لها الانفاق
 على هؤلاء الفقراء وبهذا يحرم العاملون من ثمرة تعبهم فينال
 العقاب من استحق الثواب

وعلى الحكومة مساعدة الطفل الذى نبذه أبواه فى الطرق
 بغير ذنب اقترفه - وعليها أيضا أن تقيم المستشفيات العامة
 للمرضى والملاجئ للأطفال والمآوى للعجائز الذين أقعدهم
 الكبر - وعائلات الجنود الذين استشهدوا فى ميادين الحروب
 وأن تعتنى بايواء المجانين ومراقبتهم وحمايتهم
 والعامل الضعيف نصرته محتمة على الحكومة التى هى
 وصية الضعفاء بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة والتدابير
 الضرورية لمنع وقوع الحوادث فى المناجم والعامل وغيرها

كالانفجار والحرائق والتهدم فتلزم « المدير » بما يتلف صحة العملة أو يفقد أحدهم الحياة—وتحديد ساعات العمل وتعيينها وفقاً بهم ورحمة

وبالجملة ان التسامح والاعتدال يحسمان كثيرًا من المنازعات ويفضان أبوابا من المشاكل في الأمة وهما يستلزمان الشعور باحترام حقوق الغير وآرائهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية وان من أنفس المبادئ الأديبة التي تحت عليها الأديان وترفع صوتها من أجلها الحكماء هي «حب لأخيك ما تحب لنفسك» و «عامله بما تحب أن يعاملك به»

٣٥

﴿ فوائد التكافل والتضامن ﴾

ان الانسان لا قدرة له على استيفاء حاجياته الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه بل لا بد له من معاونة ومساعدة قوم كثيرى العدد يتم بهم ما ينقصه ويكمل ما يحتاج اليه في حياته

فالمعاشرة لازمة بحكم الضرورة فما خلق الانسان ليعيش وحيداً لأنه بطبعه يمل اذا لم يجد بجانبه أنيساً يحادثه—ولذلك

سمى (انسانا) أو جليسا بيت اليه شكواه أو صديقا أو اسيه ويسليه
 فلا صديق اليه مشتكى حزني ولا أئيس اليه منتهى جزلي
 وقد قال بعض حكماء الأفرنج (ماذا تعمل النفس الوحيدة
 حتى في الجنة) وذلك مصداق لقول شاعرنا العربي أبي العلاء المعري
 ولو أني حيت الخلد فرداً لما أحييت في الدنيا انفرادا
 فالإنسان للإنسان كاليد تتوسل باليد والعين تستعين بالعين بل
 هو ساعده وعضده (وان الدليل الذي ليست له عضد)

قال ابن مسكويه اذا كان الانسان محتاجا الي غيره
 بالطبع فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرّد
 والتخلي ولا يتعاطى ما يرى من الفضيلة في غيره - وقد خطأ
 الذين رأوا أن الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة
 المغارات في الجبال وبناء الصوامع في المفاوز فقال انه لا تظهر
 فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء اذ القوى تصير باطلة فلا
 تتوجه لا الي خير ولا الي شر واذن يصيرون بمنزلة الجمادات
 والموتى من الناس ولذلك هم يظنون أنهم أعفَاء وليسوا بأعفاء
 وأنهم عدول وليسوا بعدول فانما الفضائل أفعال وأعمال تظهر عند
 مشاركة الناس ومساكنتهم في المعاملات وضروب الاجتماعات

وبديهي أن في الأفراد اخلاصاً للنظام وتحليلاً للمجتمع
 وتقويماً لدعائه فانما المجتمع كجسم انسان كل فرد منه بمنزلة
 عضو من أعضاء البدن وقوام البدن بتمام أعضائه
 فإذا اجتمع ضروري وعن الاجتماع تنشأ المعاملات
 ويضطر الناس للأخذ والعطاء وتبادل المنافع — ولذلك كان
 للتكافل أركان هي الألفة بين الناس والعدالة فيما بينهم
 أما الألفة فوجه لوازمها أنها اذا تمت نشأ عنها التعاضد
 والتوازر والتضافر والتظافر والتناصر والتألب والاعتلاف
 والاتحاد وصار التعامل بينهم على أحسن نهج وأقوم منوال
 فانه لا تعامل الا بين متآلفين واذا تآلفوا وتحابوا اتفقت
 مشاربهم واتحدت أغراضهم وابتعد عنهم النفاق وانعدم الخلاف
 الذي هو أصل كل بلاء وأس كل شقاء واذا ذلك تنشأ الثقة
 بينهم ويحصل الأمن في تبادل المنافع فيقوون على نيل الخيرات
 وينهضون لاستخراج الغوامض وابرار المخترعات وتستسلم
 لهم الصعاب وتدين لهم المطالب على اختلاف أنواعها طوعاً أو
 كرها فان ما هو عزيز المنال صعب المرام بالتعاون والمساعدة
 والتناصر يصبح ميسوراً — قال سقراط حكيم اليونان (انى

لأن أكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم
بعض وذكر الحروب والضعفان ومن انتقم أو وثب على
صاحبه ولا يخطر ببالهم أمر المودة والألفة وما يحصل من
الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والأمن وأنه لا يستطيع
أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وإن مالت إليه الدنيا
بجميع رغائبها فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير فالصغير من
ظن ذلك - وإن قدر أنه موجود ويسير الخطب يدرك بالهويانا
فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى)

وأما العدالة فلائها حياة المجتمع وروح العمران فاذا
انعدمت من أمة لا شك أسرع إليها الفناء وحلّ بها الدمار
فتتقهقر وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى تصبح أتراباً بعد عين - ألا
ترى أنه إذا ساد العدل استتب الأمن العام وتوطدت أركانه
وإذا ما استتب الأمن العام اطمانت النفوس وهدأت القلوب
وارتاحت الخواطر فأمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه
ألا ترى أنه إذا انتشر العدل أمن الضعيف جور القوى والصغير
حيف الكبير وعاشوا اخواناً وحينئذ تهي الآمال وتقوى
العزائم وتنهض الأفكار وتنشر الهمم ويكثر العمران

وينقسم التكافل الى تكافل عائلي وتكافل اجتماعي
فالتكافل العائلي هو مشاركة ذوى القرابة فى الخيرات
ومعاونتهم فى السراء والضراء وتضافرهم فى تدبير أمورهم
المعيشية ولوازم حياتهم فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم
المرأة بتدبير المنزل ثم يتعاونان الاثنان على تربية اولادهما
وتثقيف عقولهم — وأيضاً يجب على كل من كان قادراً على
الكسب أن يساعد غير القادر عليه من ذوى لحمته — فعلى الابن
مساعدة أبيه الذى أوهنه الكبر والشيب أهله أو الذى
منعته عاهة وأقعده داء عضال كالزمن والمقعد والمفلوج — كما أنه
يجب على كل فرد مساعدة أقربائه البائسين منهم والفقراء
والمعوزين قال تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وقال
عليه الصلاة والسلام (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم)
والتكافل الاجتماعى أعم من الأول وهو قيام كل شخص
بوظيفة وتأدية كل عمل من الأعمال الدنيوية — يستوى فى ذلك
الكبير والصغير والأمير والحقير والغنى والفقير . فالملك يسوس
البلاد بعدله والوزير يدبر شؤون المملكة بحزمه والمشرع يسن
القوانين واللوائح . والمهندس ينظم . والطبيب يعالج العلل

والفلاح يفلح الأرض . وهكذا من أحقر عامل لأكبر مخلوق تكون بينهما الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمراً ولا يخطر ببال أحد أن هناك عملاً حقيراً وآخر عظيماً فكل ما يؤدي إلى المجتمع فهو نافع لأعضائه والكبير يترتب على الصغير — إذ المجتمع كجسم إنسان لا يقوم إلا إذا قام كل عضو بوظيفة خاصة به — فالعامل البسيط قد يرشد أئمة إلى طريقة جديدة لأتقان أى عمل حقير صغير لا يقل في السعادة والمنفعة عن أعظم رجل أتى بما جعل شهرته تطبق الآفاق لأن كليهما قد أفاد بنى نوعه — فسعداً لمن كانوا مفيدين لبنى نوعهم فقد أدوا وظيفتهم في الوجود فماتوا مرتاحي الضمير مطمئني الخاطر مكتسبين ثناء الجميع وعرفانهم بفضلهم — وسحقاً للمتقاعد الذي يعيش عالة على غيره وما أكفره بالنعم لا يقاسم ابن جلده الأتعاب ولا يشاركون في الأعمال بل يكون كما قال الإمام عليّ كالبيمة المربوطة ههما علفها أو المرسله شغلها تكثرش من أعلافها وتلهو عما يراد منها

وبالجملة إذا أراد الله بأمة خيراً ووقفهم إلى أعمالهم وتم فيهم التكافل تمت لهم بذلك السعادة وارتقوا إلى أسمى ذرا

الكمال وبلغوا شأواً لم يبلغه غيرهم في كل آن . أما اذا اتكل كل على غيره وانتظر كل شيء من غيره ولم يعمل لغيره ما استطاع انحطت مكاتهم وذهبت ريحهم ورموا بأنفسهم الى الهلاك -- فاذا الأمة تتبع في رقيها وانحطاطها مقدار ما تمهدا اليه نفوس أفرادها المكونين لها

٣٦

﴿ فوائد الاستقلال ﴾

الاستقلال كلمة غالية ولفظة عالية تهتز لها القلوب فرحاً وسروراً وتميل اليها الأعضاء شفقةً وانعطافاً وتطأطيء لها الرءوس خضوعاً وخشوعاً وتقبلها الأفواه لثماً وتقبيلاً فسعادة الأمة متعلقة بعيشها في بلادها على الوجه الذي تريد وتختار فلا تقهر على الخضوع لقوانين أجنبية أو على التخلق بعوائد غير وطنية

والأمة المستقلة هي صاحبة السيادة التامة في بلادها وهي التي تتصرف بحرية في تدبير شؤونها وسن قوانينها بل هي بيدها حظوظها وبيدها مستقبلها — فلا يسوغ لأجنبي التداخل في شؤون الأمة المستقلة بحال من الأحوال مهما قل عدد السكان

فيها أو صغرت مساحة أراضيها - فلا أصل إذاً في الأمور أن كل أمة تستقل في شؤونها استقلالاً داخلياً - يشعر العاى في نفسه بذلك فيقول (كل واحد أمير في محله) ولكن من المحزن المؤلم أن نرى كثيراً من الأمم غير مستقل بأموره تلك أمم مرت بها ظروف وألمت بها حوادث وأسباب أوقعها في يد الأجنبي وتحت نيره وحملتها سوء استبداده ومعلوم أن الأمم التي نراها اليوم في هذا العالم لم تكن على الدوام بالحالة التي هي عليها الآن فمنها ما اتسع نطاقها ومنها ما ضاقت أملاكها ومنها ما تلاشى وانتهى أمره فانقطع شأنه في التاريخ - وبتتبع تلك التغيرات ترى الأمة تعمر وتتقدم ما دامت وطيدة الدعائم ما دام فيها الشعور متحداً والمبدأ واحداً - وأن الأمة التي تنقرض وتلاشى هي المتفرقة أفرادها الفاسدة آدابها - وأن تكون الأمم الحالية لم يكن على نسق واحد وعلي وتيرة واحدة حيث أن بعضها حسن خلقه وتقويمه فسعد وبعضها بنى على غير أساس متين فكسبت عليه الشقاوة والتعاسة وإن أشد هذه الأمم عصبية وأطواهم دولة وأعزهم سلطاناً هي التي لا يقتصر في توطيد دعائمها على مصالح الأفراد العامة

بل على المشاعر والخواطر الواحدة فان الروابط القلبية العقلية
أمتن وأبعد انفصاما من الروابط المادية اذ يتجه بها حظ الأمة
نحو السعادة نحو البأس والمنفعة والشوكة

وقصارى القول أن العالم في تغير وتحوّل متواصل في قلب
وتبدل مستمرّ فان الأمة تبدو صغيرة وتتشط عزائمها للعمل
وتتحد مطالبها فيزداد بأسها وتعظم شوكتها وتصبح أمة عظيمة
معززة الجانب ثم لا تلبث أن يدخلها الغرور ويملاها العجب
فتهمل شؤونها ويظأ قدمها باب التتعم والرفاهية فتحيط بها
ظلمات تكون بلاء وعناء لا تسلم من مرضه بل ربما قضى عليها
تلك سنة في الأرض يسميها الحكماء قانون التاريخ فما يحصل
من التغيرات في قرن واحد ليس بالقليل — فليتيقظ من يقول
(كما مرّ اليوم يمرّ الغد — غدى كأمسى) وليتعض بأن هناك
تغيراً يقوم بالأمة في يوم كشروق الشمس وغروبها . وأنه
قد تكون الدقيقة الواحدة سبباً لسعادة الحياة أو علة لشقائها
وبالجملة أنه لا يسوغ لأمة أن تتصرّف في أمة أخرى
بما يخالف اختيارها واراقتها فالسيادة الداخلية للأمة محترمة
لا يجوز التعدي عليها — اللهم الا اذا سارت الأمة في طريق

ممقوتة طريق تجعلها أبداً مهددة لراحة الأمم واطمئنانها فينتد
يسوغ التداخل في شؤونها فيجوز اخضاع قبيلة وحشية تعيث
فساداً في أرض جيرانها من قتل وحرب وسبي ونهب—وكذا
إذا اعتادت أمة السلب في البحار فلجميع الحق في ردعها لأنها
تهدد البحر طريقهم العام— إلى غير ذلك مما يخلّ بالآداب
واستتاب الأمن العام

٣٧

﴿الحكومة الملوكية المطلقة والحكومة الجمهورية الديمقراطية﴾

والحكومة الملوكية الشورية

الحكومة صفوة رجال من الشعب يترشحون لتولى
شؤون الوظائف المناط بها ترتيب نظام الأمة والمحافظة على
دواعي راحتها وهم لا يمتازون عن الكافة بخصيصة من خصائص
البشر أو بمزية من مزايا الترفع عن أمثالهم من الناس إلا
بكونهم قوام الشريعة أو القانون فتجب لهم على الناس الطاعة
ما داموا في طاعة الشرع ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الشريعة
وتنظيم نظام الأمة باتفاق النفوس المتغالبة عند حدّ القانون
الذي هو سياج المجتمعات ومناط راحة الشعوب

والحكومات ضرورية للبشر فلا قوام لأمة ولا حياة
 لشعب الا بحكومة تهيمن على الشرائع والقوانين وتعمل بها
 في ترتيب معيشة الشعب ونظام الأمة وتنظر في سائر المصالح
 التي تعود على الهيئة المحكومة بالخير وتدفع عنها الشر والضرير
 وتفاوت نوع الحكومات في كل مملكة بتفاوت
 وتباين الأقطار

فمنها الحكومة الملوكية المطلقة وهي وراثية عادة أى
 ينتقل الملك فيها من الأب لابنه الأرشد أو للأرشد من
 العائلة — وتكون السلطة في قبضة فرد واحد تقلبها كيف
 شاء فيقضى بالحرب أو الصلح ويسن القوانين ويربط الاموال
 حتى اذا جمعت يتصرف فيها بلا رقيب ولا رصيد — وفي يده
 ارواح أمتة يمن على من يشاء الحياة ويقضى على من يشاء
 بالاعدام فلا يلبث هذا الرجل حتى يخون ما ائتمن عليه فيتبع
 هواه ويصبح مستبدا معتسفا قاسيا وتصبح أمتة معه في فقر وآلام
 ولقد أصاب من وصف هذا النوع من الحكومة حيث
 قال (لو كان الاستبداد رجلا وأراد أن ينتسب ويحتسب لقال
 أنا الشر. وأبي الظلم. وأمي الأساءة. وأخي الغدر. وأختي المسكنة

وعمى الضرّ . وخالى الذلّ . وابنى الفقر . وبنى البطالة . ووطنى
الخراب . وعشيرتى الجهالة

ومنها الحكومة الجمهورية وهى التى تدير شؤونها الأمة
بنفسها وتكون أفرادها على استقلال تام وفى مساواة عامة
ولكن هاته الجمهورية الديموقراطية لا يحسن العمل بها الا فى
الحكومات الصغيرة حتى يتيسر اجتماع أبنائها ولا تطول
مباحثاتهم فتشمر مناقشاتهم ولا تعطل الأعمال

وتتوسط بين الملوكية المطلقة والجمهورية الديموقراطية
هيئات حكومات تقرب من هذه أو تلك

أما الملوكية الشوروية فهى ثمرة تقدم الأفكار فى العصر
الحديث — التقدم الذى أوقف الملوكيات عن الاستبداد وقيدها
بالشورى فالملك اليوم يتبع قانونا نظامياً للملكة ويتقيد به فى
تدبير حكومته — وكما يقيد هذا النظام الملك فانه يضمن للرعية
حقوقها ويصون حريتها فيتعين حينئذ على القابض على صولجان
الملك والمتنعم بسريره ملكا كان أو امبراطورا اجترام قرارات
نواب الأمة الذين لهم الحق فى فحص المسائل العامة فيما
يسمونه مجلس النواب

فالحكومة النيابية هي التي يشترك فيها الملك مع نواب
 أمته في ادارة البلاد — وتنتخب الأمة نوابها بلا اعتبار نسب
 ولا حسب حيث المبدأ في هذه الحكومة هو المساواة
 وقصارى القول أن أرقى الحكومات هي التي تضمن
 ضمانا تاما للأمة استقلالها وسيادتها الأهلية في بلادها والتي
 تلائم وتوافق حاجات الأمة وأفكارها والتي لا تهضم فيها
 حقوق للأفراد ولا للجماعات فاذا توفرت هذه الشروط فيها
 عمّت العدالة أرجاءها وتناولت السعادة أفرادها
 فأرقى الحكومات وأجملها هي المؤسسة على هذه المبادئ
 الثلاثة الجليلة وهي الحرية والمساواة والأخاء.

٣٨

﴿ العدل أساس الملك ﴾

لله هذه الكلمة ما أكبر أمرها . وأعظم سرها . فلقد
 وضعت بها السبل وأشرق الأرجاء . وبسطت الأرض
 ورفعت السماء . ووضع الميزان وبتت روح الراحة في العمران
 كلمة هي عنوان صالح الأعمال في الحال والمآل . وهي الأصل
 الأصيل . والظل الظليل . والشجرة التي تجنى منها ثمار العوارف

ويتفياً على جميع الكائنات ظلها الوارف . كلمة كلما ذكرت
 محت الكروب . وأخذت بمجامع القلوب . وملاؤها سرورا
 وأفاضت عليها نورا . تنعطر الأكوان بأنفاسها الزكية . وتنتعش
 الأرواح برياضها البهية . تلك كلمة العدل الذى هو روح الوجود
 وقوام كل موجود . له أذعنت الأبطال . وانقادت شم الجبال
 وبه صار الموات خصبا . واليابس رطبا . والضيق فسيحا
 والعليل صحيحا . فهو شفاء الأبدان . وأصل كل احسان . أمر
 به رب العالمين . وأقامه سيد المرسلين . ذلك هو نبراس الهدى
 به تنجلي ظلمات النى والردى . والقطب الذى دارت عليه أرجاء
 الشرائع . والأس الذى شيدت عليه شريعتنا الغراء . وملتنا
 السمحاء . فالمستمسك به مستمسك بالشرع القويم . ومهتدالى
 الصراط المستقيم . والحائد عن طريقه واقع فى شرك الضلال
 ورام بنفسه فى مهاوى الوبال

فالعز فى اقتفاء آثاره . والاهتداء بأنواره . والذل فى

عدم الوقوف عند حده . حتى فى نفس ضده

فالعدل ميزان الله الذى وضعه للخلق . ونصبه للحق

به تلتئم الشعوب . وتأتلف القلوب . وتتصل أسباب النجاح

وتنتشر أعلام الفلاح . وتخصب البلاد . وتسعد العباد . قال
 تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وفي الحديث (بالعدل
 قامت السماء والأرض) وقال الشاعر
 عن العدل لا تعدل وكن متيقظاً وحكمك بين الناس فليك بالقسط
 وبالرفق عاملهم وأحسن اليهم ولا تبدلن وجه الرضامنك بالسخط
 وحل بدرّ الحق جيد نظامهم وراقب الله الخلق في الحل والربط
 فالعدل هو التوازن بين الأشياء ووضعها في مواضعها والانصاف
 استيفاء الحقوق مادياً وأديباً — والرحمة فوق العدل

٣٩

﴿ العدل بين الأجرام وسائر الأجسام ﴾

اقتضت حكمة الحكيم العليم في خلقه أن جعل بين جميع
 أجزائه من الأكبر الى الأصغر ميلاً طبيعياً وجذباً عاماً يكاد
 يقضى عليها بالاتحاد لولا ما ألقى فيها من قوّة الثقل التي بها
 قاومت تلك القوّة فحفظت أحيائها وتوازنت — وهذا التوازن
 هو الذي نسميه بالعدل فيما بين الأجرام وسائر الأجسام واليه
 الإشارة بقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) فعلى دعائم
 العدل قامت الأرض والسموات وترينتاً بأنواع المبررات فالشمس

والقمر وسائر الكواكب والأفلاك والأرض من ظاهر
 وباطن جميعها لا قوام له الا على تلك الدعامة - فلو فارق شيء
 منها خبطة العدل فنى لا محالة . فالعدل هو الذى يحفظ لها
 قانون التساوى والبقاء على هذا النظام البديع الاحكام - ولولاه
 لبغى بعضها على بعض وتصادمت وتلاطمت واختل نظامها
 ومحي رسمها وذهبت أدراج الرياح هباء منثوراً



﴿ عدل الانسان مع نفسه ﴾

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هو انابها كانت على الناس أهونا
 فكيف تظلمها حقها ومن لم يعدل بنفسه . فأولى أن يحل في
 رسمه وكيف لا وقد جافى جنبه بذلك عن مضاجع الخير
 والاحسان وألقى نفسه في مهاوى الذل والخسران وأهمل في
 جانبها العدل والوفاء . فحياته والمات سواء

حياتنا كالموت ان لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم
 وهل يرجى ممن أساء الى نفسه أن يحبس الى من عداه . فعديل
 الانسان مع نفسه حملها على المصالح . وصدتها عن القبائح
 ويختار لها ما هو الأ نفع والأ صلاح دنيا وأخرى ويهدبها ويعودها

التطبع بمكارم الا خلاق

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفضمه ينظم
ومن ذا الذى يحب لنفسه العطب وسوء المنقلب ويرضى
بالقعود . عن طلاب السعود . ويرمى بها فى بحبوحة الهوان
ولا يرعى لها من شئون أليس ذلك بحيوان أعجم أو حجر
أصم لا بل هو أسوأ حالا وأكسف بالا وماذا يصنع (اذا
اقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد
كنا فى غفلة من هذا : يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم
اللعنة ولهم سوء الدار)

٤٩

﴿ عدل الراعى مع رعيته ﴾

مما لا يحتاج الى برهان ولا يختلف فيه اتنان أن الراعى
العادل خير من المطر الوابل -- باسمه تساجلت الأطياف فى رياض
السعود ومن أفقه أشرقت الأقمار على كل موجود
ذلك هو الأمر الذى سارت بحديثه الركبان . فى كل
مكان . ونادى به المناد . فى كل ناد . حتى أصبح فى أفواه
الرجال . مثلا من الأمثال . ولا أعنى بالراعى خصوص الأمير

بل ما يعم الكبير والصغير . عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم
(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فالسلطان في ملكه
راع ومسئول عن رعيته والرجل في أهل بيته والمرأة في بيت
زوجها والناظر في مدرسته وهلم جرا
فبالعدل تخصب الأرض وتثمر الأموال وتنتظم الأحوال
وتدرّ الأرزاق ويزول الشقاق وبه يستقيم الدين ويقوى حبله المتين
فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى
فاذا قاد الأمة راعيها بأزمته . ونهج على شرعته . اتصلت
الأسباب . وتفتحت الأبواب . وسهل كل عسير . في الزمن
اليسير . وراجت الأمور . وذهبت الشرور . ووافى السرور
والتأمت القلوب . وانجلى الخطوب . وغرست في الأقطدة
محبتة . وحمدت على مر الأيام سيرته . وبقي ولو بعد عزله
أميراً . واماماً كبيراً . وهكذا بعد المات . تخلد ذكره الحسنات
فيرى على مرّ الدهور لدى الورى حياً بما أولاه من احسان
فمدار العمار على العدل والانصاف بين جميع الرعية
عليك بالعدل ان أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميمة ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

٤٢

﴿ عدل الرعية مع راعيها ﴾

يكون بأطاعته في صالح الأمور . في الغيبة والحضور
والتودد اليه . والمحافضة عليه . وشد أزره . وتقوية أمره
وشكره على جميل مسعاه . وحمده على ما أولاه . قالت الحكماء
(السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد) لا قوام
لأحدهما الا بصاحبه

٤٣

﴿ العدل مع الأئكفاء ﴾

هو عبارة عن كون التعامل فيما بينهم جاريا على سنن الحق
ومناهج الصدق في جميع الأفعال وسائر الأقوال كما قال تعالى
(واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا) وأن
يتعاونوا على البر والتقوى لا على الأثم والعدوان ويؤدوا
الواجب ويلينوا الجانب . وبالجملة أن يتخلقوا بكمارم الأخلاق
وحميد الخصال فيرتقون ذروة الكمال

وقد كانت الأمم السالفة والقرون الماضية من أجناس
المتنزهين وأصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم واختلاف

عقائدهم مجتمعين على انكار الظلم مجتمعين على اضراره اذ هو
أصل النقم ومسلبه النعم وهو يبدل العمار بالبوار والاحسان
بالأحزان . أسرع من الطير الى الأوكار . ومن الماء الى
الأنحدار . وبه تكثر الشكوى . وتعم البلوى . وتفتر الهمم
وتزل القدم . ويكثر الضرب والسلب . والقتل والنهب . والهرج
والمرج . ولا يدخل ولا يخرج . وتجف البحار . وتذبل الأشجار
وتنقطع الأسباب . ويتصل الخراب . قال تعالى (انا أعتدنا
للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها — والظالمين أعدّ لهم عذاباً
أليماً) وقال عليه الصلاة والسلام (الظلم ظلمات يوم القيامة)
وحق الله ان الظلم شوم وان الظلم مرتعه وخيم
وقال آخر

ألم تعلم بأن الظلم عار جزاء الظلم عند الله نار

٤٤

﴿ فوائد الأمانة ومضار الخيانة ﴾

الأمانة واسطة لبوغ الانسان مراتب السعد وسفينة
تنتشل الوضيع من لجج الضعة وتقذفه على سواحل السؤدد
والمجد وهي الأساس الذي لا يدمنه في اقامة الحضارة وتشيد

المدنية فكما لا يقوم البناء على غير أساس كذلك لا يتأتى
 إيجاد العمران بغير هدوء واطمئنان فان الانسان ان لم يأمن
 على نفسه وأولاده وماله فلا يمكنه أن يقوم بأى عمل فيقف
 لذلك دولاب التجارة فتبور الصنائع وتقل المكاسب فيحتال
 الناس على أسباب المعيشة ويتهاككون على تحصيل القوت من
 غير طرقه المشروعة فتفسد أخلاق الأمة وتنحط لقله العمل
 مداركها وينتهى ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعيها

فالأمانة أول صفة تحمد في المرء ولذا نرى الناس يفرون
 من الخائن بينما هم يفتدون الى الأئمين ويزفون اليه جميل الثناء
 ويعينونه على الدهر ويمدون به بالأموال . قال الله تعالى (ومن
 أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من تأمنه
 بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً) وقال تعالى (ان
 الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) وقال تعالى (والذين
 هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقال تعالى (انا عرضنا الأمانة
 على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها
 وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً) وقال عليه الصلاة والسلام
 لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)

والخيانة صفة ذميمة وخلق سيء ونقض للذمة وكفر
 بالنعمة وخبث في الطوية وسوء في النية . قال تعالى (ان الله
 لا يحب من كان خوانا أثيما) وقال الشاعر
 ان الامانة لو علمت كرامة تولى ذويها رتبة الاسعاد
 فابعد هديت عن الخيانة كم لها في أهلها من ذلة وكساد
 وقال الآخر

أد الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطيب المكسب
 وبالجملة فالأمانة سيف الدين وعماد الدنيا وهي أن تؤدى
 حقوق الخالق سبحانه وتعالى وألا تفشى سر من أودع اليك سره
 وألا تفشى أحداً في معاملاتك وأن تحافظ على من جعل تحت
 رعايتك وألا تنقض عهد من عاهدته وألا تختلس ما ليس لك فيه حق

٤٥

﴿ تأثير الأخلاق الفاضلة في الأمم ﴾

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
 الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها تصدر عنها الأفعال
 مع السهولة بدون حاجة الى التفكير والروية فان صدرت عنها
 الأفعال المحمودة سميت خلقاً حسناً وان أبعثت عنها الأعمال

السيئة القبيحة سميت خلقاً سيئاً قبيحاً . واخلق في النفس كاخلق
 في الجسم ويستعملان معاً أى ان حسن الصورة الظاهرية مطلقاً
 لا يتم بحسن العينين دون الأنف والقدم والخذ بل بالجميع ليم
 حسن الظاهر فكذلك لا يتم حسن الصورة الباطنية الا اذا
 استكملت وحسنت بها الأخلاق جميعها
 وأمها محاسن الأخلاق أربع فضائل الأمانة والعدل
 والاعتدال والشجاعة

ويدخل تحت ضد الأمانة الذى هو الخيانة المكر والخداع
 والتبذير والدهاء والعناد والكفر والشك والاشراك والتطير
 والغيرة ويدخل تحت الظلم الذى هو ضد العدل حب النفس
 والاستئثار والطمع والبخل وحب الرياسة والتسلط والافتخار
 وكفران النعم والغضب وحب الانتقام والحسد وما أشبه ذلك
 ويتدرج تحت ضد الاعتدال حب التمتع والامتلاء بالأكل
 والشرب والشراهة والحرص والتبذير والتفتير وخلافها
 ويندرج تحت ضد الشجاعة الجبن والتكبر والتهور
 والعجب والذل والجزع والخساسة والوقاحة والرياء والملق
 وغير ذلك . وان الفضائل أو اسط بين طرفى الافراط والتفريط

كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير قال تعالى (والذين
إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)
وأما العفة فهي وسط بين الشره والجمود. قال تعالى (كلوا
واشربوا ولا تسرفوا)

والشجاعة وسط بين الجبن والتهور وكذلك سائر الأخلاق
فكلا طرفيها ذميم وما توسطهما فضيلة
عليك بأوساط الأمور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا
وقال الآخر

ولا تغل في شيء من الأمور واقتصد كلا طرفي قصدا لأمر ذميم
فهذه الأخلاق الفاضلة إذا تمكنت من أمة وتمسكت بها في
غدوّها ورواحها وفي سرها وجهرها فلا بد وأن تكون أمة
حية راقية أمة مستقلة قوية تهابها الأمم . قال الشاعر

ليس دنيا لا بد من وليس الد
ين الامكارم الأخلاق

أنظر الى الأمم المتمدّنة ترى حسن عاداتها ومكارم أخلاقها
واعتلاف أفرادها سبب ارتقائها وتقدمها وواسطة حياتها
وشوكتها ونصير قوتها ووصولها

وانظر الى الأمم التي انحطت أو تلاشت تجد أسباب

ذلك طرحهم للأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة
وبالجملة ان الانسان يستمد القوّة في حياته من ثلاثة
أشياء (الشعور والعلم والأخلاق) فيجب أن يأخذ من كل
منها نصيبه حتى يقدر على أداء الواجب عليه نحو نفسه وأمته
وهذه الأشياء الثلاثة هي العوامل التي يسعى أبناء الأمم الحية
في استكمال نصيبهم منها فتجعل منهم رجالا يتفاوتون في الرقي
تبعاً لدرجة ما حصلوه من كل منها

٤٦

﴿ مستقبل الأمة برجالها ﴾

قوام كل أمة برجالها ولا رجال الا بالتربية لانها هي التي
تعين الطبيعة على انماء بدن الناشئ في صحة—وارهاف ذهنه في
سداد. وتقوم سيرته في رشاد. وتكسبه من صفات الرجولية
ما يؤهله لان يكون رجلاً حقاً في الغد — والمراد بالرجل
هنا ذلك الذي عناه أحد الفلاسفة حيناً رؤى في رائعة النهار
ويده مصباح وهو يتطوّف في شوارع مدينة غاصة بالناس
تطوّف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى فسئل عما يطلب فقال
أطلب رجلاً — هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا وقليل ما هم

وكل من تصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه ما انحطت أمة عن منزلتها الا لانها عدت رجالها وأنها ما عدت رجالها الا لانها لم تعن حق العناية بتربيتهم صغاراً فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شيء لهم من الرجولية سوى الاسم وانما تم التربية بثلاث طرق متوازية تفضى كلها الى تلك الغاية—أولها تربية البدن بحسب قوانين الصحة—والثانية ارهاق ذهنه حتى ينفذه نور المعرفة وتزاح عنه ظلمة الغباوة—والثالثة تقويم سيرته وهداية خطواته الى السبل المستقيمة والتكيب بها عن سبل الغي

فكل أمة حية لها في شأن حياتها أدوار عمرانية تصعد بها في سلم الترقى والحضارة الى أن تصل الى غايتها المتمناة وأول خطوة من خطأ التقدم التربية على الوجه المطلوب للملائم لأحوال الأمة والشامل لما به سعادتها ولا ينال الانسان هذه السعادة والحياة الطيبة الا اذا توفر حظه من الصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة ولا يحصل له شيء من هذه الصفات الا بالتربية كما يشهد به العيان وكفى به من برهان— فكما أن الارض لا تجود تربتها ولا تصلح للاستنبات ولا تؤدي خيرها

وبركتها الا اذا تعهدت بالحراثة والتماد الجيد والبذر والسقى
كذلك الانسان لا يتوقع منه خير ولا نفع ولا انتفاع الا
اذا تعهد بالتربية والتعليم — وقد قامت الدلائل على الانسان
ولو بلغ النهاية في كرم النجار وطهارة العنصر وكمال السجايا
مفتقر الى التاديب والتربية الروحانية كما أنه مفتقر الى التربية
الجسمية حتى يصلح للنهوض بأعباء مصالحه الدنية والدنيوية
قال عليه الصلاة والسلام (أدبني ربي فأحسن تأديبي)

ولما كانت التربية الجسمية ليست خاصة بالانسان بل
يشاركة فيها الحيوان لم يبق له ما يميزه عنه الا التربية الروحانية
وهي الخاصة التي بها يسمى انسانا

أقبل علي الروح فاستكمل فضائلها* فأنت بالروح لا بالجسم انسان
ومعلوم أن الارادة النفسية هي كغيرها من اللطائف المودعة
في الانسان ساذجة في مبدأ نشأتها قاصرة عن الجولان في
الاشياء قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون
شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)
فيجب تربية الانسان من صغره وتعليمه ما ينفعه في دينه
ودنياه ثم الزامه صنعة يشترك بها مع غيره في تبادل المنافع

حتى يتسنى له أن يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوى عليها ويكون
بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له — ولا يترك الى اختياره
لنفسه أو يتكل على تروة أهله وشرف بيته فيخلد الى الدعة
والبطالة حتى اذا شب لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين
بها على الكسب لو أحوجته الضرورة اليه — فان كرم الآباء
وتروتهم لا يعتمد عليهما الا ساقط الهمة قال الشاعر

لسنا وان أحسابنا كرمت يوما على الأحساب تتكل

بنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

على أن المدار في كمال الانسان على ما يدركه بأدبه لا بحسبه
ونسبه — فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية — ومكارم
الأخلاق أصدق نبا من الأعراق — والعنوان على شرف
الانسان وكرم أصله هو ما يفعله لا ما يدعيه

من لم يكن عنصره طيبا لم يخرج الطيب من فيه

أصل الفتي خاف ولكنه من فعله يظهر خافيه

فاذا أهمل الناشئ مع ما علم من سداجته وركود ربح انسانيته
حتى شب فكيف يكون — ليت شعري لا بد والله أن يرعى
مع الهمل أو يفترس مع السباع الضارية فان النفوس من

ميلها وشوقها أسرع اجابة لداعي الشر منها لداعي الخير - فالنفس
لولا التربية مجبولة على ذميم الأخلاق ميالة الى ما لا يحمد
مغبته كالهلح والجزع والطمع والشح والطغيان والظلم وحب
العلو والافقيات

والظلم من شيم النفوس فان تجرد ذا عفة فلعله لا يظلم
وقال تعالى (ان الانسان لربه لكنود) وقال تعالى (انه كان
ظلوما جهولا) وقال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه
الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين) الآية : وقال
تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر)

وبالجملة فالترية سر النجاح ومعراج الارتقاء وعليها نتائج
السعادة الدنيوية والأخروية فهي بصفاتها الكمالية أساس
الابتداع وغراس الاختراع وسر فضيلة الانسان على بقية
الحيوان ولولاها لما نشأت روح فاضلة في أفراد الأمة
والهيئة المجتمعة

٤٧

﴿ الأعمال قيم الرجال ﴾

ليس الحياة بأنفاس نرددها ان الحياة حياة العلم والعمل

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ومزاياه وما أودعه فيه من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر والبيان المصور واللسان المعبر والقوى المنفذة والأعضاء العاملة التي بجميعها تصرف في أنواع العالم وبسط بده علي كل الكائنات وكان له السلطان الأعظم علي ما في الأرض - ولم تتركب فيه تلك القوى الا ليجعلها عوامل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرفها بمعيار الحكمة في مجارى ثمرات ما أحاطه به من الكائنات وجعله حوله من كنوز الخيرات التي نوعها القادر وفق تنوع حوائج الانسان وجعلها صنوفا متفاوته النفع مختلفة الفائدة وأودعها خيرات كثيرة وبركات غزيرة ولم يجعله علي ما هو عليه من هذا الشكل وتلك الصورة الا ليعمل عمله الخاص به حسب رزقه المقسوم له وقد أمره بالسعي لنواله قال تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

فالسعي مقرون بالعمل والعمل يطلب الحركة والحركة تستدعي صرف القوة فمن يريد تحصيل الرزق وكسب العيش يلزمه أن يجتهد ويتعب ويصرف مقدارا من قوته في العمل - وما نراه من أن بعضا من الناس يصرف مقدارا عظيما من قوته

في أعمال شتى ولا يحصل الا على قليل من الفائدة . وبعضها
 آخر لا يصرف الا النذر اليسير من ذلك ويستحوذ على كثير
 من الفائدة ربما يتوهم منه أحد أن الرزق ليس مناسباً للقدر
 المنصرف من القوة وانما هو قسمة أزلية ليست مرتبطة بالعمل
 والسعي ولم ينظر في الأمر نظر حكمة ولم يعرفه معرفة حاذق
 بصير -- بل نظر الى ظاهر الأمر وحقيقته خافية عليه بعيدة عن
 مداركه فالله أمر بالسعي والعمل . والجسم هو القائم بذلك
 ظاهراً وأمور من قبل العقل - فمأعمال الجسم مقومة ومعتبرة
 الا حسب القوة الباطنة وكلما كانت هذه القوة كاملة كانت
 قيم أعمال الجوارح تابعة لها والعكس بالعكس قال عليه السلام
 (الناس يعملون الخيرات وانهم يعطون أجورهم يوم القيامة
 على قدر عقولهم)

ولا سبيل الى الاتيان بالأعمال تامة الحسن عالية القيمة
 وافرة الحظ الا بالعقل الكامل والعمل المحكم فبقدر وجود
 هذا وتفاوته تتفاوت أفراد الانسان وكلما كان العقل أصح
 والروية أغزر والاختيار أصدق كان الكمال أتم والعمل أقوم
 (ان الله يحب من العبد اذا عمل عملاً أن يتقنه)

إذا أكل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أفعاله وما ربه
 فإذا تم هذا للمرء أتى بأعماله تامة الحسن راتقة الصنع رائعة
 الابداع لا يوازنها ولا توازيها من — ألا ترى ما أبدعه الانسان
 من الأعمال الغريبة . أبدنه الذي أمكنه من ذلك وجعل له
 السلطان المتصرف في هذا العالم — كلا — ما الانسان من
 هذه الجهة الا شبح وتمثال لا يتميز به عن غيره ولا يفضل
 سواء وإنما فضله ومزيتة بقوته الروحية التي تستخدم جسمه
 وتوجه قواه الحسية والا فليست قوى جسمه بأكل منها في
 غيره من الحيوانات التي يقهرها ويستخدمها في أعماله . مثلا
 نرى الفلاحين يزرعون وكل منهم يبنى مقادير مختلفة والصناع
 تشتغل ومقادير الأرباح مختلفة وهكذا — وأسباب ذلك كله
 التفاوت في المعلومات — فمن يرغب في زيادة ربحه وكثرة فائدته
 فعليه السعى والاجتهاد في اجتناء الخيرات من أحكام
 هذه الكائنات قال تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى)
 وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما ينقى
 عنى حجة الجهل قال العلم قال ما ينقى عنى حجة العلم قال العمل
 وقال عليه السلام (تعلموا ما شئتم أن تعملوا فلن ينفعكم الله

بالعلم حتى تعملوا) وفي التوراة (حرك يدك أفتح لك باب
الرزق) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعدن أحدكم
عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر
ذهباً ولا فضة) وقال بعض الحكماء (الحركة بركة والبطالة
هلكة والكسل شؤم وكلب طائر خير من أسد رابض)
يأنفس ذوق لذة العمل وواظب لذة العدل والاحسان في مهل
فكل ذى عمل بالخير مقتبط وفي بلاء وشؤم كل ذى كسل
وقال آخر

دعى نفسى التكاسل والتوانى والا فالبسى توب الهوان
فلم أر للكسالى الحظ يجنى ثمراً غير حرمان الأمانى
وقال آخر

وكم حياء وكم عجز وكم ندم جمّ تولد للانسان من كسل



﴿ فوائد المزاجمة وتأثيرها في الارتقاء البشرى ﴾

لولا التزامهم في الأمور لأصبحت عمداً النظام على ذراها سجداً
من بديع حكمة الحكيم العليم أن جعل التزامهم بين الأنام
منشأً لتشييد النظام فبالمزاجمة استيقظ الناس من سنة الغفلة

ونشطوا من عقال الخمول وأجهدوا مطايا سعيهم وراء ما به
يرغمون أنف تلك العوادي التي حطت بهم رحالها وضربت
عليهم خيامها حتى أثقلت كواهلهم وألجأتهم الى شدة البحث
عما به يتخلصون من ربقة أخطارها وهول مضارها وكم خبايا
من الحقائق أبرزتها لهم معاول البحث فأصبحوا آمنين مخاوف
دهرهم يخوضون أبحر صعوباتها دون أن يمسه سوء ويركبون
متونها خاضعة ذليلة على حين أنها تروم انتياشهم كل ذلك بما
ألجأتهم اليه دواعي المزاجية وقد علم الله فيهم ذلك فنوعهم في
الخلقة الى ما ترى وأودع كل نوع من القوى وركب فيه من
الآلات ما به يقوى على تلك الصعوبات ويهزم كتابها الحرارة
ومن هنا تقلب الانسان وتنقل في أطوار شتى وتأنق
في الملابس وتفنن في المآكل والمشرب وزهى في تمتعائه بعد
أن كان هو وغيره من الحيوانات سواء يتغذى بعضه ببعض
ويهيم في الفلوات والآجام كما يهيم غيره يبتغى اصابة ما به يسد رمق
الجوع ويتقى ألم البرد من نحو الريش وأوراق الشجر وجلود
الحيوانات وغير ذلك مما به كفاية حاجة حياته الضرورية ويتخذ
الكهوف والمغارات مساكنه يأوى اليها كل ذلك بما أودعه

الله في جسمه من المنبهات

والانسان بما ركب فيه من أصل الخلق وما أودع فيه من المنبهات مزاحم لغيره مندفع الى نزع آثار الخشونة الأولى والتقلب على سرر النعيم - ولولا تلك المنبهات التي تحته على طلب حاجاته لا استولت عليه الغفلة عن تحصيلها وانتهى الى فناءه دون شعوره - ولهذا صار الانسان كما ترى مندفعاً الى تحصيل أغذية يعوض بها ما فنى وملابس ومساكن يتقى بها الحر والبرد وكل ذلك يدفعه الى حب الآخرة والاختصاص بالنافع ومزاحمة من يتخيل أنه يقف في طريقه - تلك حال كل انسان فهو ميال بطبعه الى الخروج عن حيز وضعه بما غرس فيه من الأمل الذي وضعه الله فيه رحمة ولولاه ما غرس غارساً ولا بنى بان بنيانا

مثلاً يرى الانسان أخاه لا بسماً توباً أجود من توبه مادة وأحسن منه شكلاً فيدفعه حب التمتع الى طلب مثله والأخذ في أسباب الحصول عليه وربما صادفه في طريقه ثوب أرقى وأجمل منظرًا فاذا رآه غيره أخذ يجهد نفسه كذلك في الحصول على مثل هذا الثوب الأرقى وهكذا حتى ينتهي بهم الأمر

الى ضرب من الثياب يدهش الناظر مرآه ويروق الخاطر معناه
ومع ذلك لا يقفون عند هذا الحد ولنعم ما كانوا يعملون
وعلى هذا المنوال يرى الانسان جاره في عيشة راضية توفرت
حاجاتها وتكاملت مسراتها وصفت أوقاتها فلا يهدأ له خاطر
ولا يستريح له فؤاد حتى يرى نفسه في رغد من العيش يساوى
جاره على الأقل فيبعث به ذلك الى أن يخلع ثوب بؤسه ويكشف
عن ساق الجد في سيره لنوال بغيته

ان لله في الخلائق سرًا من سنا برقه تحار العقول
لا ترى ذرّة من الكون الا ولها في الكون شرح يطول
هذه دارنا بها زاحمتنا عاديات من كل أوب تصول
تلك والله حكمة من حكيم لنظام الحياة أصل أصيل
وغرض الكل واحد هم عليه متزاحمون يدفع بعضهم البعض
عنه وينازعه ما في يده رغبة في الاختصاص به
كل له غرض يسعى ليدركه ولو تحمل في تحصيله المضنا

٤٩

﴿ لم لم تؤثر الخطباء والكتاب في المصريين ﴾
لا شك أن بين ظهرائنا أناساً أصبحوا عقبة بين الأدب

وذويه ولا يدن لهم الا التنفيذ واللوم على الخطباء والكتاب
 وتثييط هم المشتغلين بحرفة الأدب بحيث لو سمعوا خطيباً
 يخطب أو رأوا كاتباً يكتب لعب بهم الغيظ ودب في قلوبهم
 الحسد فترى منهم أسنة حدادا فبدل أن يقولوا هذا الخطيب
 مصقع ذرب اللسان ثابت الجنان رابط الجأش واسع المجال
 رحيب الباع له اقتدار على التكلم في أى موضوع من مواضع
 الكلام بعبارة تسيل رقة وسلامة وتستميل القلوب النافرة
 وترد جماح الضالين وتصلح ما فسد من أخلاق المولدين وتؤثر
 على فهم كل سامع - تراهم يشددون النكير ويبالغون في
 التنديد ويقولون ان هذا الخطيب كليل اللسان جامد القرينة
 مضطرب الجنان قد استولى عليه الهى والحصر وتمنطقت به
 الفهاهة وأخذته اللكنة - وبدل أن يقولوا ان هذا الكاتب
 في خطه من كل قلب شهوة حتى كأن مداده الأهواء
 أصبحوا يقولون ان جناب الكاتب له عبارات لا تخلو عن
 ركاكة التركيب وجفاء الأسلوب عن الفصيح المألوف في
 الكتابة والتأليف الى غير ذلك
 ولا يعزب عن الأفكار اندفاع أغلب المصريين الى

التقليد الأعمى من غير روية في الأمر وتبصر في عواقبه فتراهم
حينما يسمعون هذا الكلام يعضدونه وينصرونه ويميلون عن
الخطيب أو الكاتب

أما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد
أبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب

وكان للخطابة في الصدر الأول من الإسلام شأ وجيل
ومقام كبير ومكانة خطيرة فلذا خص الخلفاء والأمراء والعلماء
أنفسهم بالوعظ والزجر عن الشهوات والمحرمات والمنكرات
والمنهيات — ولعمري أنهم قاموا بها حق القيام وتأثرت بخطاباتهم
الجموع وفعلت فيهم ما لم يفعله السيف حتى رجعوا إلى طريق
الهدى والرشاد وقام بها من بعدهم الخلف الصالح وشغلوا
أنفسهم بهذا الموقف العظيم فحافظوا على الأخلاق الشرعية
والعوائد المستحسنة — ويا حبذا لو دام ذلك فقد خلف من بعدهم
خلف أضاعوا الصلاة وآتبعوا الشهوات وتهاونوا في أمر هذا
الموقف الخطر ولم يكثروا به فاسترسل الناس نحو شهواتهم
غير منقادين لواعظ ولا كاتب فبدلت نعمة العظمة والظهور
بنقمة التأخر والجمود — وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء

ما فرطوا في جانب الخطابة والوعظ جزاء استنكافهم من
 القيام بهذا الأمر النافع واشتغالهم عنه بمصلحة أنفسهم والتفرغ
 لاغتنام لذاتهم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)
 فصار الناس كالأنعام ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم
 فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النافعة ولا
 يبصرون النعي من الرشد - ففقدوا الاحساس الوطني وتفرقت
 قلوبهم وانحلت عزائمهم وخمدت نار حميتهم . ارادة الله التي
 أرادها لا محيص عنها ولا مناص منها ولا اراد لها
 اذا ما اراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتواكل
 أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب
 وكثيرا ما رأينا بعض المصريين يتوجه للمحال التي أعدت
 للخطابة ولكن بعد ما يسمع الخطيب ينهى عن خلق قبيح
 كما اذا نهى عن شرب الخمر مثلا تراه يتمثل بقول من قال
 - لا تنه عن خلق وتأتى مثله - ويفارق محل الخطابة وهو
 نادم على ما فرط من ضياع الزمن في غير طائل ولا ثمرة عادت
 لليه ويسرع الى محلات اللهو والطرب
 وبالجملة لا عجب في عدم تأثير الخطباء والكتاب

فان الأمة اذا استولى عليها الضعف ودخلت في الهرم بسبب
 نبذها القانون الأصلي وعدم محافظتها على العوائد الشرعية
 صمت آذان أفرادها وعميت قلوبهم وتشتت جامعتهم وانحلت
 رابطتهم تحسبهم أيقاظاً وهم رقود لا يتنبهون بعنقه ولا يرددهم
 عن استرسالهم وراء الشهوات لوم لائم ولا زجر زاجر سنة
 الله التي قد خلت في عباده

وانا نأمل في هذه الأيام أن يحصل احساس لدى اخواننا
 المصريين وتبث فيهم روح الغيرة فيعملون على ارجاع ما كان
 لهم من الفخر واحراز ما كان لأباؤهم من الفضل وما ذلك
 على الله بعزير



﴿ فوائد الجرائد ﴾

معلوم أن الجرائد أساندة قائمة بتهديب الأمم وبت مالم
 يعلم من أخبارها ونشر ما خفي من فنونها وآثارها وعليها آثار
 الاعمال السياسية وتقدم الأحوال المعاشية فهي حياة الأمة
 العلمية . ومادتها الأدبية . تبشر وتذكر . وتنذر وتحذر
 وتحدث عن الحوادث الواقعة . وتقدم لك موائد الفوائد النافعة

فهديك الى منافع كنت بها خفيا . وتبدي لك ما كان عنك
خفيا . وتهدى طرائف الأخبار . وظرائف الأسرار . وتكفيك
مؤونة الاستخبار . وكلفة السؤال والاستفسار . وكأنها مجاميع
مفرقة . وينابيع متدفقة . أو سفن مشحونة بشحون الأقوال
أو قوافل محملة أخباراً عن الأحوال . فهي السنة الأهم وترجمان
الملوك وجهينة الأخبار . وخزينة ذخائر الأفكار . وصيقل
الأذهان . ومرآة حوادث الزمان والسائح الذي يطوف البلاد
ويأتيك بأخبار العباد . وأنت لا تبرح من مكانك . فهي
للرئيس موقظة . وللمرءوس موعظة . وللتجار سوق بضائع
وللصانع معرض صنائع . وللشاري دلال . وللمدعي استدلال
ولأرباب الأقاليم إعلان وأعلام وللمؤرخين مجمع وقائع وأخبار
وللجغرافيين استكشاف خطط وآثار

وبالجملة يكون الانسان بها مطلعاً على وقائع عصره . عارفاً
بما تجدد بين بني عصره . من حوادث الزمان . وعجائب عالم
الامكان . وما هو صائر في الممالك المتمدية . ودائر بين الملوك
المتسكنة . وما هو جار بين الدول المتفقة . والممل المتفرقة . من
عهود تجدد . وشروط تؤكده . وآثار تغير . وصعاب تيسر

وما بينهم من نزاع ومقاتلة . وخداع ومخاتلة . وسكون وهدنة
وحركة وفتنة . وما حدث في أحوال التجارة . وأمور السياسة
والادارة . وما أبدته فحول العقلاء في مجامعها . وما أسدته عقول
النبلاء من بدائعها . وما ظهر من روائع الصنائع وعوارف المعارف
وطرائف اللطائف . ويعرف العوائد مذمومها وممدوحها
ويميز الآراء راجحها ومرجوحها . فيجتني ثمار الأفكار
ويقتني محاسن الآثار . ويكون كأنما طاف مشارق الأرض
ومغاربها . وجرب جميع الأمور ودري عواقبها . فلاتكاد تنزل
بساحته حادثة الاوقد أحاط علمه بنظيرها . وعرف غاية مصيرها

٥١

﴿ فوائد الاقتصاد . وما يترتب عليه من الاسعاد ﴾
معلوم أن حاجة الأمم الى المال كحاجة الجسم الى الغذاء
فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه فكذلك المال حياة الأمم
ولا قيام لها الا به وكما أن الغذاء اذا كثر في الجسم عن الحاجة
واستعمل منه فوق القدر اللازم كان مضرًا بالجسم وسببًا في
ضعفها واضمحلالها وسقوطها في مهاوى الذل والاحتقار وليس
ذلك قاصرًا على الأمم فقط — بل الأمم والشعوب والقبائل

والعائلات والأفراد في ذلك سواء— وفي المشاهدة أكبر دليل
 ولا ينبئك مثل خبير فكم من مسرف رأيناه قل بعد الكثرة
 وذل بعد العزة . وافتقر بعد الغنى . وأهين بعد التعظيم . وقل
 اعتباره وكثر احتقاره . وذهبت هيئته . وانحطت قيمته — وكما
 أن الاسراف والتبذير موجب للخراب والدمار كذلك البخل
 والتقتير موجب للدم واللوم والعار — فالواجب إذا استعمال
 الحد الوسط والتباعد عن طرفي الإفراط والتفريط في التصرف
 في الأموال قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا
 تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً) وقال تعالى (والذين
 إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال
 تعالى (ولا تبذر تبذيراً ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين
 وكان الشيطان لربه كفوراً) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين
 يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم
 سيطون ما بخلوا به يوم القيامة)

وبالجملة سوء التصرف في الثروة يجلب الخراب بخلاف
 الاقتصاد فانه يجلب الرفاهية والسعادة وكم خرب التبذير بيوتنا
 عامرة وبدد ثروته وافرة وكم أزل أميراً وصغر كبيراً وكم أغنى

التدبير فقيراً وأعز حقيراً وجعل العبد أميراً

قال الأصمعي سمعت بعض العرب يقول (من اقتصد

في الغنى والفقير فقد استعد لنوائب الدهر) وقال عبد الله بن

جعفر (كمال المرء في خلال ثلاث معاشره أهل الرأي والنظنة

ومداراة الناس بالمعاشره الجميلة والاقتصاد من بخل واسراف)

أنفق بمقدار ما استطعت ولا تسرف وعش عيش مقتصد

من كان فيما استفاد مقتصداً لم يفتقر بعدها الى أحد

وقال آخر

ولا تسرف بما تلقاه نورا

إذا لم يمن بالاسراف وفرا

وتقتير يريك اليسر عسرا

لدى الأقوام مرتبة وقدر

تفرّد في الملا بحثاً وخبراً

فرب حلاوة تؤذيك ضرا

وما من مسرف يعتزدهراً

توسط بين تبذير وبخل

فان النذر يمسى بعد حين

وان الوفرة في الدنيا ببخل

وكن في حالة ترداد فيها

وخير الناس مقتصد لبيب

وكن في كل أمر ذا اعتدال

فما من باخل أحياه مال

٥٢

﴿ اذا رزقتم أموالاً عظيمة فقيم تصرفونها ﴾
لا ريب أن المال روح تحي به أجسام الممالك وسراج
يضئ به ظلام الخطوب الخالك وسلطان قوى الشوكة والبطش
شديد العزيمة والبأس تدلل به الصعوبات وتحل به عقد المشكلات
وتتصرف صروف الزمان وتقام معالم الأفراح والأحزان
وعليه قوام الصنائع وابرز مكنونات العلوم وهو كشاف للمخبات
وفك طلاسم الفنون ونجاح الاختراعات والمشروعات وعليه
قضاء الحاجات في جميع المهمات فأى شخص رزق مالا لحظته
السعادة وامتدت عليه غصون السيادة والتفت الناس حوله
وأصبح الكل أهله وتشرف الكل بالانتساب اليه والسعى
في التقرب لديه

ان قلّ مالي فلا خلّ يصاحبني ان زاد مالي فكل الناس خلاني
فكم عدو لا جل المال صاحبي وكم صديق لفقد المال عاداني
هكذا يكون المال مجد الحياة وعز الممات
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
ولكن ذلك اذا كان مصروفا فيما يعلى عقبه المجد ويرفع صرح

العزة فاذا أنفق في الأعمال المبرورة والمشروعات النافعة كان
 زينة لصاحبه في حياته وحلية وجمالاً وسعوداً في مماته وجلالاً
 ولكن اذا كان الشخص عنده خزائن قارون وخضع له المال
 ولم ينفقه في اقامة معالم المدنية الصحيحة كانشاء المدارس والملاجئ
 والمستشفيات وكل ما يقيم أود الراحة ويرفع بناء العمران فانه
 يكون عليه شرّاً من الفقر ومجلبة لخزيه وعاره ووسيلة لذته
 وشقائه لأن الناس انما يتوجهون الى ذى مال طمعاً في نيته
 وحباً في الحصول عليه وينال شهرة عظي و يقترن اسمه بالاعلا
 قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة
 أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن
 يشاء والله واسع عليم) وقال تعالى (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا
 مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم)

وبالجملة المال زينة الحياة الدنيا والنفقة الى الدار الآخرة
 فيلزم صرفه فيما يكسب الانسان المجد حياً وحسن الذكر ميتاً
 ولا تنفع الأموال ولا العقارات ولا التجارات ولا غيرها بغير
 علم وأدب يهذب الأخلاق ودين يقرب الى الرب الخلاق
 وعلى وجه العموم يصرف في كل ما يعرض لك عمله

ولا يكون خارجا عن حد الشرع والكمال والاعتدال

٥٣

﴿ المرأة أستاذ العالم ﴾

قسمت العناية الآلية جميع الأعمال المثمرة على أفراد الجنس البشرى حسبما أوجدته في كل من الصفات والأمزجة وذلك مراعاة لما تقتضيه سنة التقدم وضمانه مصالح العباد من الوقوع في الفوضى والاختلال الناتجين من قيام أحدهم بأمر ليس في استطاعته عمله

وعلى هذا القياس قد وزعت الأعمال على الفريقين الكبيرين المكونين للجنس البشرى وهما الذكر والأنثى فاختص كل فريق بالعمل الذي يلائم مزاجه وقوته ومقدرته الى غير ذلك من الصفات التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى فيه— وكان نصيب الرجال من هذه القسمة جميع الأعمال التي للمجهودات البدنية فيها المكان الأول من حرث الأرض وزرعها الى الدفاع عن حومة المجتمع الذي يعيشون فيه وهو الوطن واختصت المرأة لضعفها في القوة الجسدية ولما أوجد الله فيها من صفات الصبر والاخلاص ورقة القلب ودعة

الأخلاق بأمور لهذه الصفات في اتقانها حظ وافر . وهذه الأعمال كثيرة جدا منها ما هو واجب عليها نحو زوجها اذ يلزمها أن تسهر على مصالحه وتكون رسول السرور اليه وتشاركه في جميع مشاغله وتطرد عنه الهموم والأحزان وتريح خاطره من النظر الى الأمور والمتاعب العائلية ليكون عنده الوقت الذي يتفرغ فيه هو أيضاً للقيام بواجبه خارج المنزل أما أهم واجباتها في نظر الأمة فهو ما يخص أولادها لأنها مكلفة بمراعاتهم والقيام بشئونهم في مبدأ حياتهم أي في الوقت الذي يحتاجون فيه الى عناية كبرى لضعف أجسامهم وعقولهم فهي التي تنظر في أمورهم الصحية فتحافظ عليهم وتراقبهم خوفا عليهم من الأخطار التي هم معرضون اياها من صغر سنهم وهي المكلفة أيضاً بتلقينهم المبادئ الأولية التي تبنى عليها حياتهم الأدبية في المستقبل فتعودهم على محبة الفضيلة واحترام الحق وعلى كره الرذيلة ومقت الباطل وتلقن في عقولهم الصغيرة التي تحفظ أول ما تسمعه أو تراه الصفات والأخلاق التي تؤهلهم متى كبروا للقيام بواجباتهم بصفتهم أفراداً من أبناء الأمة — فواجب المرأة عظيم ومسؤوليتها كبرى لا تقل عن

مسئولية الرجل خطارة وأهمية ان لم تزد عليه لأن على عملها تتوقف حياة الأمة أو مماتها ولأن ذلك الرجل الذي ينكر عليها هذه المسئولية لم يصل الى ما وصل اليه من قوّة الجسم والعقل الا بسعيها المتواصل وعنايتها التي تبذلها في تربيته وتعليمه وهو صغير — ولو أنصف الرجل الحقيقة وأنصف المرأة معها وقدر عملها في الهيئة الاجتماعية حق قدره وطرده من مخيلته المزاعم الباطلة التي علقت بها من كلام السلف واستبداده وغروره لطأ رأسه احتراماً لذلك المخلوق العجيب

المرأة وما أدراك ما المرأة هي ملك السعادة الذي يهبط على الزوج الحزين البائس فيفرج عنه كربه ويطرد جيوش الحزن والهمم والتعاسة التي تنتابه لما عندها من حسن الأسلوب ولمقدرتها على تصريف الأكدار والهموم فتجعل من البؤس سعادة ومن الحزن سروراً — هي التي تقول للرجل أبعد عنك ما أنت فيه من النعم والحيرة وأخرج لعملك سعيّاً وراء رزقك ودعني أنا أقوم بهذه الأمور فيخرج هذا ساعياً مجدّاً مجتهداً فتكسب الأمة من ثمرة سعيه

المرأة هي احدى العاملين في زيادة الجنس البشرى وتقويته

ووظيفتها في هذه الجهة كوظيفة الرجل بل أكبر وأشد
صعوبة لأنها تتحمل الآلام والأمراض فرحة مسرورة
في أيام الحمل ووقت الرضاعة ولا يشاركها الرجل في شيء من ذلك
المرأة هي التي تقوم بتربية هذه الأطفال وبمراعاة صحتهم
وهي التي تدرّبهم وتبرّئهم على المشي والحركة وتغير ملكتهم
البهيمية التي ولدوا عليها فتجعل منهم أناساً أقوياء عقلاء
قادرين على العمل والسعي — ولو شاءت لحرمت الأمة منهم
بأعمالها شؤونهم وتركهم هم وشأنهم بالارقيب

المرأة هي الساعد الأول والمرجع الأكبر لهؤلاء
الأطفال متى شبوا فهي التي تسرى عنهم أحزانهم وتجلي كربهم
وتشجعهم على تحمل المصاعب وتحفظ أسرارهم وتنعشهم بالأمل
الذي تبثه فيهم

المرأة هي طيب أولادها وممرضة زوجها إذا اختل
ميزان صحتهم فتعودهم وتسهر بجانبهم تقضي لهم حوائجهم وهي
التي تعنى باصلاح الفاسد وترميم العاطل من أمورهم فيكون
لهم من عملها رأس مال كبير

المرأة هي ذلك المخلوق الذي مليء حبا وحنانا تعرف

المعروف وتكافئ فاعله عليه أضعافا وتغضى عن السيئات التي توجه إليها— يتغيب الزوج عليها وهي صابرة على بعده قاضية جميع ما يطلبه منها حافظه له حق العشرة . يخوفها كل يوم ويدوس على حرمتها وهي تمر على عمله من الكرام مع ما تتحمله في ذلك من المعاناة والشقاء

المرأة هي المصباح الذي يضيء الحياة بنوره

هذه هي وظيفة المرأة في الحياة وذلك هو العمل الذي يجب أن تقوم به في المجتمع الانساني - ولعمري أنها وظيفة عسرة الخطه وعمل صعب الزاولة يحتاج الى صبر لا يطيقه الرجال ولا أظن أن هناك من ينكر أهمية تلك المهمة التي يجب أن تقوم بها لأنها هي الأساس الذي يبنى عليه حاضر الأمة والمييار الذي يقاس به مقدار التقدم والرقى والحضارة التي يمكن أن تصل إليها في المستقبل - فلو فرضنا أن النساء تعمدن التقصير في واجبهن وتوانين في أداء مهمتهن فسد نظام العائلة وصارت حياة الأفراد المكونين لها نقمة عليهم لا نعمة لهم لما يقاسون من اختلال هذا النظام ولا يطول الزمن حتى تنعكس مضار هذا الاختلال على الأمة فيصيبها منه داء الفوضى

الذى لا تقوم لها قائمة من بعده . ولو أهملت الأمهات تربية أولادهن ولم تعتن بصحتهم شبوا ضعافا معرضين للأمراض والأوبئة فلا يصلحون لعمل من الأعمال ولا تستفيد منهم الأمة لأن العقل الحكيم فى الجسم السليم ولأن المرض يشغل الإنسان عن كل عمل آخر— لو تغافلت الأم عن أمر تأديب أولادها وتبئهم الى الضار والنافع فى صغرهم صاروا متى كبروا سيئى الأخلاق فاسدى التربية قبيحى السيرة منهمكين فى اللذات البهيمية لا يعرفون من معنى الحياة أكثر مما تعرفه الحيوانات فيذهبون بالأمة مذهبهم ولا يطول الزمن حتى تتلاشى من الوجود— ولكن رب معترض يقول بأن انشاء المدارس ونشيد دور العلم يعنى عن وظيفة المرأة اذ ان المدارس كنفية تهذيب أخلاق الطلاب ومراعاة صحتهم وهذا الاعتراض مردود من نفسه لأن التربية شئ والعلم الذى تلقنه الأساتذة فى المدارس شئ آخر ولا يمكن لدور العلم أن تقوم بعد اعوجاج أخلاق أحد الطلاب اذا كانت فاسدة فى الأصل وان هى أرادت أن تسعى فى عمل من هذا القبيل كان مثلها مثل الرجل الذى يريد أن يقوم جذع شجرة بعد أن كبر

فيستعصى عليه تقويمه وينكسر الجذع . والسبب في أن المدارس عاجزة عن بلوغ هذه الغاية أن الطالب لا يمكن أن يذهب إليها إلا بعد أن ترسم في عقله صورة أخلاق أمه وما عودته عليه مدّة اقامته معها فلا يمكنه أن يمحو هذه الصورة من مخيلته وتبقى معه ماشاء الله أن تبقى حياته معه — وقد يعترض علينا آخر بأننا نبالغ في أهمية عمل المرأة ونزيد في تقدير كفاءتها والحقيقة أننا المقصرون وانما نشأ هذا الظن لأننا لا نتصور تأثير الأم العاقلة على أولادها من جهة وعلى زوجها من جهة أخرى ولأننا لا نحلم يوماً بأن امرأة تترك أولادها الذين في سن الرضاعة ليقوم الرجل بتربيتهم وبالغناية بهم ولا يمكن أن يقدر هذا العمل إلا رجل متوسط الثروة أو ضعيفها توفيت زوجته وخلفت طفلاً ليناً واذ ذلك يجب أن نتساءل ونبحث فيما اذا كان عنده الوقت الكافي والصفات اللازمة لتأدية تلك المهمة الشاقة

يظهر مما تقدم أن عمل المرأة هو الأساس الذي يبنى عليه مستقبل الأمة الذي يرتكز عليه حاضرها . بقي علينا بعد هذا البيان المجمل أن نبحث فيما اذا كانت المرأة المصرية تقوم

بالواجب عليها أم هي مقصرة أوجاهلة هذا الغرض . وليس
الجواب علي ذلك صعباً لأن مشاغل النساء المصريات معروفة
وأعمالهن لا تخفى على أحد منا . فالمرأة عندنا احدى اثنتين
فلاحة قروية أو متدينة حضرية . فأما الأولى فأنها لا تعرف
من الحياة ولا تفقه من فوائد المعيشة شيئاً . وجل ما تعتقده
أنها إنما خلقت لتكون وسيلة للذة الرجل وشهواته خادمة له
وعبداً عنده بل أن مرتبتها لا تزيد عن مرتبة الحيوان الذى
يحرث به الأرض وهى مرتدية بلباس من الجهل أسود من
الثوب الذى تلتف به عادة - واعتقادها فى القضاء والقدر عظيم
وعليه فان عمل الانسان وسعيه فى نظرها لا يمكن أن يجلب
نفعاً أو يدفع ضرراً فاذا رزقها الله بمولود تركته وشأنه بدون
عناية ومراعاة - واهتمامها به قاصر على اعطائه ثديها كلما بكى فاذا
شبع فأنها تدعه يحبى على التراب عارى الجسم يتقلب فى الطين
والأوحال التى كثيراً ما يوصلها الى فمه متى جاع وغفلت الأم
عن صرخه وبعد أن يأكل هنيئاً مرثياً يحس بحرارة الشمس
التى تؤثر على دماغه فيفرك عينيه بيديه الملوّثتين بالتراب والطين
ثم يقع فى سبات عميق وسط الطريق يقوم بعده مريض

العينين لا يرى الا هزيل الجسم ضعيفه ومتى قدر على المشى انضم
الى الأولاد الآخرين فيكتسب منهم كل قبيحة ويزيد في
تربيته الأدبية ما يراه ويسمعه كل يوم بين والده ووالدته من
الضرب والشتم والرفض واللطم الذى يبدأ الزوج بزفه الى
زوجته صبيحة ليلة العرس

وأما الثانية فانها لا تزيد فى التربيته والمعارف عن الأولى
الا أنها قد تكون أسوأ من تلك خلقاً وأكثر اهمالاً لو
لاحظنا أن الأولى تقوم مقام زوجها فى كثير من الأعمال
الخارجية عن المنزل وأما هذه فليس عليها واجب آخر—ومن
الأسف أنها لا تصرف وقتها فى عمل مفيد بل أنها تترك
أولادها مع المرضعة التى لا تعرف ان كانت حسنة الصحة أو
رديئتها ثم تسلمهم الى الخدم فيشبون منحطى الأخلاق ناقصى
التربية الاستقلالية مرضى أو معرضين للمرض

هذا هو حال المرأة المصرية وتلك هى أعمالها وبديهي
أنها حال لا ترضى أحداً لأنها تهدم نظام العائلة وقد كان من
نتيجتها انحطاط المصريين وتأخرهم فى معترك الحياة فققدنا
الاستقلال السياسى والأدبى والاقتصادى لأن صفات الثبات

والشجاعة والاقداء ورباط الجأش والمؤازرة والمؤاخاة
تلك الصفات التي يكتسبها الطفل مما تعودده عليه أمه لأثرها
في نفوسنا فصار المصريون وهم يزيدون عن اثني عشر مليوناً
آلة تعمل لفئة قليلة من الأوروبين وغيرهم لا تبلغ اثني عشر
الفا وهي نسبة مؤلمة

وقد نتج من جهل المرأة أيضاً انحطاط الآداب انحطاطاً
مرعباً بين الشبان والشيوخ فلا نشغل أوقاتنا إلا بالتافه المضر
من الأمور فانتشر الحسد بيننا وصار كل منا ينصب أحبوبة
لجاره يوقعه في شباكها ونخاصم الأثقاء وننافر الأحياء وانتشر
الكسل بيننا انتشاراً أقعدنا عن السعي وكسب المال من موارده
الشريفة وتمكنت من عقولنا الخرافات والبدع فصرنا أضحوكة
في أفواه الغريبين وتركنا العمل بديننا وبالآداب التي يأمر
بها غير مكترئين بغضب الله وسخطه فوقنا في تلك الحال
السيئة التي نحن عليها اليوم

أما آن الوقت الذي يقوم فيه عقلاؤنا والمتورون منا
بالاصلاح الواجب . أما آن لنا بعد كل ذلك الزمن الطويل
الذي نخر فيه الجهل عظامنا أن نقوم قومة واحدة فنعالج

ما نستطيع من أمرنا . أما آن لنا أن نقرر ونعترف بمركز المرأة
وبالعمل الذي يمكن أن تقوم به فلا ننظر اليها نظرننا الى العبيد
والخدم . ألم يحن الوقت لنقوم بتربيتها وتأهيلها لكي تكون
زوجة صالحة عاقلة فنكون قد أنصفناها وأنصفنا أنفسنا
لعمرى أن الحق واحدلا يتغيرولكننا نغالط أنفسنا فيه -- نقرر
اليوم أمراً ثم نقضه غداً ونتماعى عن النظر الى الحقائق فلا
يزيد أن ثبت ما للمرأة من الحق فى التعليم ونحرمها منه ثم
نطالبها بعد ذلك بتربية الأ ولاد والعناية بهم وبايجاد السرور
والحياة فى المنزل وهى مهمة لا يقوم بها الا من نال حظاً وافراً
من العلم والتربية

وليس أغرب من قول الذين أعماهم الغرور والاستبداد
فادعوا أن مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق هادم لنظام الحياة
مفسد لآداب المرأة وهو زعم باطل لا سبب له الا الوهم
والجهل الذى نشأ عليهما الرجال والا فكيف يمكن الجمع بين
التربية وفساد الأخلاق وهما ضدان اذا وجد أحدهما بطل
الآخر طبعاً . ولعل الذين يزعمون ذلك يستدلون على صحة
دعواهم بما يشاهدونه من تهتك الفتيات اللاتى نلن قليلا من

التعليم في احدى مدارس القاهرة أو الأقاليم . وهنا يجب أن
يحول نظر هؤلاء مرة ثانية الى أن التربية والتعليم شيان
مختلفان وان القليل الذي نلته من العلم هو قشور ولو أن هؤلاء
البنات تربين في أحضان أمهاتهن تربية صحيحة مبنية على الآداب
التي يأمر بها الدين الحنيف لتمكنت من قلوبهن أسباب الفضيلة
ولما كنا نرى لهذا التهتك الذي يعيونهن به أثراً بل لرأينا
منهن مثالا حياً علي صدق ما نقول . أما الغريبات اللاتي يهمس
القوم في المجتمعات علي آدابهن فانهن من الطبقة السفلى في
بلادهن وأكثرهن لا يعرفن لهن أباً ولا أما وقد نرحن الى
مصر طلباً للثروة فلننجا بطرق خسيصة أو شريفة ثم «اشترين»
بها زوجا ليس له هم في الدنيا الا حب المال وما أكثر الذين
يعبدونه بين الناس . وأرى بعد ذلك أن دعوى المدعين بأن
تربية البنات تفسد آدابهن دعوى باطلة ولا أجد ما نعا أبداً بعد
ما عرفنا مهمتها وعملها في تقدم الأمم من مساواتها بالرجل في
حقوق العلم والتربية عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم (طلب
العلم فرض علي كل مسلم ومسلمة)

٥٤

أذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقاً
يوجد بين كل الناس طرق للكسب—منها التجارة وقد
تكون جارية مجرى الاعتدال يقصد منها انماء المال ليصرف
الربح أو بعضه في لوازم المعيشة أو يزداد الباقي على الأصل حتى
يكثر وتتسع الدائرة فيدخل الى الانتفاع منها أقوام آخرون
عمالاً لصاحب المال فتعمهم روته ويكونون كعائلة للمالك يعنيهم
شأنه ويهمه أمورهم في الحال والاستقبال. وقد تكون التجارة
آخذة سبيل الاعتساف لا يقصد منها الا المال وجمعه من أى
طريق وجد على أى وجه أخذ ويدخل في هذا القسم المرابون
والغاشون في صنف البضائع ونوعها وجنسها وقيمتها وكثير
ما هم في كل بلاد وكل زمان—وكما أن هذا العمل يتأتى أن
يكون من عمل واحد فكذلك يمكن أن يكون من جماعة أو
شركة أو طائفة—وكما كبرت كبر ضررها في الوسط أو الجبل
الذى هي فيه

ومنها الزراعة ولا نخالها يتأتى فيها من حيث ذاتها ذلك
التقسيم الذى أمكن في التجارة لأن الزراعة لا يقصد منها الا

استثمار الأرض واخراج ما في بطنها من الخيرات بالأعمال
وانما الممكن تقسيمها الى ما يراعى فيه ذلك المقصد بالجد والبحث
عن النافع من الأعمال للوصول الى ذلك المقصد واختيار الأصلاح
من المزروعات مع ملاحظة مناسبتها للأرض والتقليل منه أو
الاكثار على حسب حالة الفصول والرواج—والى ما يراعى فيه
مجرد القوت لأصحاب الأرض بقطع النظر عن تلك الملاحظات
وقد يوجد هذا القسم الأخير في كل البلاد وان تفاوت في
القلة والكثرة باختلاف الأمكنة فترى المزارعين في بعض
البلاد يلحون على الأرض الحجرية حتى تنبت نباتاً حسناً
وينوعونه كل سنة ويتعمقون في الأرض أو يجعلون الزرع
سطحياً على ما يهديهم اليه العلم وتدلهم فيه التجارب
وبعض الناس قد رزقوا أرضاً من الخصوبة بمكان تصلح
لزرع كل شئ ولا تراهم الا عاكفين على زرع صنف واحد
أو أصناف معدودة ملازمين فيه طريقة واحدة كأنهم استغنوا
بجودة التربة عن الأعمال

ومنها التوظف والخدمة وهذه تنقسم باعتبار الى التوظف
في الحكومات والى الخدمة الخارجة عنها وباعتبار آخر الى ما يراعى

فيه تأدية الوظيفة والخدمة بما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات غير ملحوظ فيه الا نفس الوظيفة والخدمة بقطع النظر عن تؤدي له وما توصل اليه—والى ما لا يراعى فيه الا مجرد المعيشة والمحافظة على الراتب بصرف النظر عن اللوازم التى لا تقوم الوظيفة والخدمة الا بها — ويوجد من هذا القسم الأخير كثيرون فى الممالك الا أن عددهم يختلف بتفات التربية وتعيمها — وتفاوت قيام الرؤساء بملاحظة المرءوسين حق القيام— وتفاوت العمل على ما أوجبه القانون بلا تفرقة بين الأعاظم والصغار

ومنها الصناعة وقد تكون كالتجارة موجهة الى اجادة العمل وتحسين المصنوع مراعى فيه الربح والنماء وتوسيع دائرة الصنعة من حيث هى ويدخل فى باب الانتفاع بها الكثير من العمال - وقد تكون سائرة الى الاكثار من المال بصرف النظر عن وجهته وماأخذه — ويدخل فى هذا القسم الغشاشون فى المصنوع من جهة المادة أو التمويه وهم كثيرون وان اختلفوا فى الأمم باختلاف التربية العمومية وتفاوت مراقبة الحكام واحكام النظام وربما اختلف ذلك فى المملكة الواحدة

باختلاف الزمان

وقد يمكن ادخال بقية الطرق المستعملة بجلب الرزق التي فيها وجه الصدق والغش في تلك الطرق الأربعة فلم يبق بعدها سوى الطرق المحضة للغش والتدليس وهي أكثر من أن تدخل تحت عد أو يحصيها كتاب لأن الناس كلما رأوا منها قديما جددوا فيه بدعاوا واستنبطوا منه فروعا والحوادث لا تنقطع ولا تنحصر فلا بد من وجود تلك الطرق بدوام الزمان

ولنسردها منها بعض الشيء مما اتخذها أهله طرقا للعيش

والموت أحسن من السلوك فيها للمتقين

فمن ذلك طريق التكفف للقادر على الكسب بالعمل

وطريق السرقة والاعتصاب وطريق الخدعة والاحتيال وقد

يدخل في الطريق الأخير الدجالون والرمالون وكذبة الدعاة

إلى طرق يسمونها خيرية وليست منها في شيء لأنها مناقضة

للشرائع الحقة ومنافية للمعقول وقد أمرنا على لسان دعاة الهدى

بأن لا نصدق إلا بما جاءوا به من النور المطابق للمعقول أولئك

أقوام نصبوا الحبائل للبشر والشباك للصياد فضلوا وأضلوا

عن سواء السبيل - الآداب

٥٥

﴿ الناس من خوف الفقر في الفقر ﴾

يوجد بين كل أمة أفراد حبب اليهم من دنياهم الجمع
وكرهه أن تكون لهم يد في البذل أو أن يكون منهم على
الناس طول بل ان منهم من بالغ فجعل نفسه ومن تلزمه مؤونتهم
عداد الناس فلم يعطها حقها من الانفاق وضيق على ذوى قرباه
من الصبية والنساء فلم ينالوا من سعته غير الحرمان وفقدوا
بوجوده كل شيء من الراحة والنعيم وكان بقاؤه فيهم على كره
منهم وهولاه عنهم مشغول الفكر بالكنز والتحرز من الضياع
منهوك الجسم بما أخذ على نفسه من طريق الكف عن المشتريات
بل الحاجيات والضروريات فما كان أجوده من فقير صابر
يتحمل مضض الفاقة ولا يألم لبعده من النعمة ولا يجدمن ذاته
باعثاً الى اللذة فيعيش في شظف العيش وقشف الاضطرار
قري العين ناعم البيال ولئن ذكر بأن حالته لا تلائم ثروته
سخر بالناصح وانتصب مكان الواعظ وأخذيين فوائده التقتير
ومضار السرف وعد كل من حاد عن جدته مجداً في سبيل
الفقر مسرعاً الى العوز والاقلال وضرب لذلك الأمثال بمن

أنفق فأملق وبمن مال الى التبذير فال الى التدمير واحتج
 بالتخوف من مصيرهم والوقوع في عاقبة أمرهم
 ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
 قال الزمخشري (لا سرف في الخير كما لا خير في السرف)
 وهذه أيضاً حكمة نستين بها أن الطرف الثاني للتقتير وهو
 السرف مضر ضرر الطرف الأول بعينه لأن المسرف وهو
 من يعطى من ماله ما لا يستحق لمن لا يستحق همه أن يعثر
 ما جمع الأولون لغير فائدة ولا في طريق مصلحة وهو لا ينعم
 منه بشيء في نفسه ولا يستفيد منه من وكل اليه أمرهم من
 القرابة الشرعيين فهو معهم فقراء في أنفسهم وان عدتهم الفقراء
 من المترين ولا يمضى عليه وعليهم زمان حتى يصلوا مصير
 البائس ومن ضاقت به ذات اليد عن لوازم الحياة بهذه الحالة
 يتلاقى مع الطرف الأول في نقطة الاعدام وخسارة المال وقد
 جعل الله عاقبة الأمرين (التقتير والسرف) واحدة حيث
 يقول (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
 البسط فتقعد ملوما محسورا)

فرتب الملامة والحسرة على ارتكاب مانهى عنه في

الجانبين جانب غلّ اليد الى العنق وجانب بسطها كل البسط
 دلالة على أنهما يشتركان في شر العاقبة—ولاشبهة في أن اللوم
 كما يتجه على من غلّ يده الى عنقه كذلك يتجه على من بسطها
 كل البسط لأنه لا منفعة في المال المكنوز كما لا فائدة في المال
 الذي يصرف في غير وجهته وما خلق لأجله من المنافع في
 الناس—وكذلك يعدّ كل منهما محرّوماً من ماله ولا بد يوماً من
 مراجعة الواحد منهما عقله فيرى أن لا نفع له في ماله فتلحقه
 الحسرة على حرمانه من ماله وضياع حياته سدى في الجمع أو
 التفريق والتبديد بدون عائدة تعود عليه في مآل دينه أو دنياه
 وبإلها من حسرة يخشاها العاقل ويتحاشاها البصير فعاقبة الطرفين
 واحدة بلا نكران

حدّد الله الوسط بين هذين الطرفين وعينه كل التعيين
 بآية (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
 قواماً) فالسرف والتقتير طرفان والقصد بينهما قوام—وقد
 حسب البعض أن السرف لا يكون الا بالانفاق في المعصية
 اما في الوسعة الشخصية والمنزلية فلا اسراف—وذهب آخرون
 الى أنه في الأخيرة سرف كما هو في المحرمات وهما رأيان

لا بد بينهما من وسط كما هو بين السرف والاقتار—والعدل في ذلك ان كل نفقة في خير علي شريطة بقاء المادة الأصلية للثروة بالغة ما بلغت لا تعد من الاسراف في شيء أما الخير فقد بينته الشريعة المطهرة ودلت عليه أعمال السلف الصالحين وان الاقتار المذموم هو الامسك عن الانفاق في هذا الخير ومن باب أولى أن يعد الامسك عن الانفاق في اللوازم المعاشية تقديرًا شائنا أنواع الخير الذي أبانته الشريعة المطهرة كثيرة فقد رغبت في بذل كل ما يعود منه على المنفق أجر ولم تقتصر على الواجبات كالزكاة في النقود والزرع والماشية والعروض وزكاة الرقبة بانسلاخ رمضان وكخمس الغنائم وسلب القليل بل بينت كل ما فيه كرامة خلق وتطبع بفضيلة كالصدقة الجارية والوقف على نوع مخصوص والتبرع بالاحسان واعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم الى الانفاق— وليس من حاجة لسرد النصوص القرآنية والحديثية والأثرية فانها بين يدي كل من اطلع عليها من الناس ولا خفاء في فهمها ولا التباس فانها كلها من الصراحة بمكان يدركها معه حتى الأميون

يعدّ كريماً ولا يحسب مسرفاً شرعاً كل من خصص من ماله بعد أداء الواجب من الزكاة المفروضة جزءاً لا يضيق عليه معيشته للصدقات وله أن يجعل بذله لطائفة مخصوصة من الناس يعين صفاتهم ويجريه عليهم ما شاء من الزمن أو طول الحياة ويكون مقترراً ارتكب ما نهى الله عنه إن كانت عنده تلك السعة وخصصها لنفسه ولم ينتفع منها أحد سواه فإنه ربما جرّ ذلك إلى التقتير على نفسه ومن هم عائلة عليه فوقع من خوف الفقر في القفر وإن خاف من نسبته إلى الإسراف فلا سرف في الخير

يعتبر مقترراً ملوماً كل من منع المستحق ما يستحق من المال كأن علم بأن في جيرانه أو أهل محلته أو بلده بأسماً كبرت عليه نفسه فتعفف عن ذل المسألة الخافيات فقيراً ثم لم يواسه بما يقدر عليه من طعام أو مال يسد خلته ويدفع حاجته أو كان علم بأن في أولئك من كان غنيا فدهمه القضاء بما لم يكن في الحسبان فأمسى وهو في مصاف الفقراء ثم لم يبادر إلى نجاته بماله والسعي بجأه في اعلام الأغنياء بحاله حتى يجتمع له منهم ما يجعله رأس مال حياته في مستقبل الزمان

أو كأن رأى من أولئك من قضى على عائلهم بالموت
أو ليس لهم بعده من ساع على رزقهم وهم لا يقتدرون عليه
كأن كانوا صديقة أو مرضى أو كهولاً ثم لم يتعهد أمرهم بماله
وبسعيه في استنهاض أهل الخير لهم ودعوتهم إلى اغاثة أولئك
المضطرين— أو كأن شاهد منهم نسمات من اليتامى تدور في
الأزقة بلا عمل ولا كسب لقلّة ما يجدون ممن يأويهم ويربهم
ثم لم يسعفهم بالمال وبذل الجاه في استجماع ما يصلح شأنهم من
أغنياء أمتهم ومواطنيهم في البلاد— كل هؤلاء وأمثالهم يعدون
مقترين وممن يخافون الفقر وهم فيه

النوال والسخاء في هذا السبيل وأمثاله خير وفضل أما
قصره على المباحات فنقص وجهل— ولأن يبنى الرجل لنفسه
بيتاً من المكنة والمنزلة في قلوب مواطنيه لخير من أن يبنى
بين منازلهم قصرًا مشيداً يفسح فيه المدى ويكثر فيه الزينة
ويستجلب إليه البهار فان البيت في القلوب قوى الدعائم متين
الأساس كلما تقادم عليه العهد زاد رفعة وانفساحاً وذلك القصر
وان بناه بالاحكام حتى كان كالأهرام ببلوه الزمان وما لذته
لصاحبه وهو قذى في عين الفقير كلما رآه تضجر لحالة نفسه

أما ذلك البيت بيت المواساة والاحسان فهو قرّة عين الفقير
ومتنزه البائس والمسكين ومحط رحال المجد والفخار وان
زخرفه ليدوم بدوام الناس في الوجود

ومن الناس من تجده يسهل عليه الانفاق في الاستطالة

بالبناء الزائد عن حاجاته بكثير ولا يهاب المصرف في مثل
الأفراح والمآتم وغيرها فينفق ماله وراء الناس ويجنح الى
الخيلاء في الملبس والمطعم وهو لا يحتاج من ذلك الا الى جزء
من عشرات — ينفق هذا وهو مرتاح القلب غير متألم مما
يرميه به العقلاء من الخروج عن القصد في هذا السبيل — ثم ان
دعى الى مبرة شرعية تقاعس وكما أجهد الناصح نفسه وجدّ
في الطلب ازداد تقاعداً وتباعداً وكان هذا حاله في كل دعوة
الى مكرمة تطالب بها مكارم الأخلاق — فما لمثل هذا من دواء
ينفعه في تصرفاته الا الاجاء الى الخير فانه لا ينفع معه الدليل
ولا يفيد البرهان اذا ارتكز في دماغه أن عمله هو اللازم
وأن غيره من طلاب المآثر الباقية عابت مضيع للمال في غير
طريقه المعتاد فان لم يكن القسر لازمه ناصح وما هو من حيث
الوجود بقليل ودأب على تكبيره بالشرعية وتمثل له بآياتها

وأعمال أهلها فعدل عن طبعه ومال إلى الخير فعمله وتعود بالعمل عليه ففتجه وجهته إليه وإن وجد في الأمة كثير من أولئك وعز على الناصحين تهذيبهم فلا بأس من تركهم والركون إلى التريية في الصغر فإنها أقرب للمنفعة وأدنى إلى الانتفاع بعد مسرفاً شرعاً كل من صرف ماله أو شيئاً منه في محذور لضرورة أو مال في تصرفه إلى الخيلاء والرياء أو أكثر من لوازم الحياة وحاجياتها وزخارفها مقتصرًا عليها وتؤدي به ذلك إلى ضياع المال كاه أو معظمه والاحتياج إلى الغير بعد زمان وإن خرج به تجاوز الحد إلى الاستدانة لستر الحالة كما يفعله الكثير كان من السفهاء المغرورين وربما كان من اللازب أن يقوم عليه قيم يدير له شؤون المال ويتصرف بما فيه المصلحة لئلا يتكاثر الدين وهو في غفلة فلا يصحو إلا وقد نفذ الرزق أجمعه وأصبح من المقلين وتلاقى مع طرف التفتير ونادى عليه حاله والناس لا خير في السرف بحال من الأحوال - الآداب

٥٦

﴿ فوائد صناديق التوفير ﴾

إن من أهم ما يجب أن تصرف إليه العناية هو غرس

مبادئ الاقتصاد والتوفير في نفس الأولاد من الصغر حتى
ترتاح اليه نفوسهم عند الكبر

ولا شك أن صناديق التوفير عظمة الفائدة في كل بلاد
أنشئت فيها وعلى الخصوص في البلاد التي تكون فيها أبواب
التبذير واسعة فعلى كل عاقل يسعى في وضع كل ما يتوفر لديه
في إحدى صناديق التوفير المنتشرة في أنحاء القطر ولا ينجل
من قلبها فإن القليل مع القليل كثير

قليل المال تصلحه فبقي ولا يبقى الكثير مع الفساد
ولا بد من يوم يجد فيه مبلغاً يقوم بحاجاته بل بمعيشته بل الخجل
الأعظم هو عدم وجود مال متوفر لديه مع شدة حاجته اليه
قال الامام أبو بكر « انى لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة
الأيام في اليوم الواحد » وقال بعض الملوك (أفضل أن أرى
رعاياي يضحكون على بخلى من أن أراهم يبكون من اسرافى)
ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ومن لم يحسب الدخل
فقد أضاع الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر
وطاب نفساً بالذل

وأسباب الاقتصاد عديدة ومزاياه مفيدة وفوائده جمة

وعوائده عامة فان الأموال المقتصدة تنفع صاحبها عند وقوعه
في الحاجة (الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود)
وقال الشاعر

ان الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا
فأنعم بهذا المشروع الذي وسع ما ضاق وكبر ما صغر ووفر
ما زاد ويسر ما تعسر وشرح صدوراً كانت منقبضة وساعد
أناساً هم في حاجة الى المساعدة بلا مقابل ولا أجر - والله
درّ من شرع ومن تم ذلك العمل . العظيم القدر . الكبير
النفع . الجليل الوضع

وبالجملة الناس طوائف فمنهم الأغنياء الواسعو الثروة
الذين اذا لم يعيشوا بالترف الزائد لم يمكنهم أن ينفقوا دخلهم
كله وهو لاء يكفيهم أن يعتدلوا في نفقاتهم حتى لا تزيد على
دخلهم والا فان أسرفوا كثيراً لم يسلموا من الفقر - - وان
اقتصدوا كثيراً جمعوا مال الدنيا وأوقفوا حركة الأعمال وغلوا
أيدي أهل الصناعة والتجارة وكلا الأمرين مذموم - ومنهم
الفقراء والأواسط الذين اذا عاشوا بالحكمة والتدبير لم يزد

دخلهم على نفقاتهم الا قليلا وهم الفريق الأكبر من البشر
فهؤلاء يجب عليهم الاستعداد للعطلة والمرض والشيخوخة
بذخر النقود عند ميسر الحاجة اليها - وذخر النقود في
البيت قلما يفي بالغاية المطلوبة وربما تنفق علي غير حاجة شديدة
وذخرها في البنوك الكبيرة متعذر لأن هذه البنوك لا تستلم
الا المبالغ الكبيرة وتحبس فيها نصف سنة على الأقل - فاذا ما مست
الحاجة واقتضت الحالة وضع صناديق التوفير لذخر ثلاثة أو
خمسة قروش أميرية للفقراء من العمال وغيرهم فجاءت بفائدة
عظيمة وأصبحت من أفضل الوسائل لتهديب الناس وردعهم
عن الشرور وجعلهم من الذين يحسنون صنعا

٥٧

﴿ هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات في بلادنا ﴾
من الأجانب مشتركة بيننا وبينهم أو عائدة عليهم فقط
من أنعم النظر في أحوال الأمم الأوروبية وتأمل
في أمور الجمهوريات الأمريكية والمستعمرات الأسترالية
وسبر غور هذه الأمم بمنظار الانتقاد وبحث في أحوالها
وأطوارها وتأمل وافتقاد تجلت له في أحسن جلاب وظهرت

له حقائقها بغير حجاب واتضح له جليا أنها نالت قصب الرهان
 في مضمار التمدين والعمران وفازت بأمانيتها من اتساع نطاق
 الحضارة وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة فنشأ عن ذلك
 اشتراك المنافع بين الأمم واشتباك فروع التجارة بين جميع
 الحكومات والملل بتأسيس الشركات

أنظر الى الشركات الدولية كشركات السفن البخارية
 والسكك الحديدية والأسلاك البرقية وما أفادته من تسهيل
 المواصلات وتقريب المسافات فقطعت الفيافي والفلوات
 واخرقت الجبال والاكام والصحراوات وكثرت انتقال الأفراد
 الى كافة الممالك والبلاد على أحسن أسلوب وأتم نظام مما
 هو مشاهد بالعيان في كل محل ومكان

وانظر الى الشركات التجارية وما فعلته يد المنافسة في
 البلاد الغربية يندهش لك ويتحير فكرك

وانظر الى الشركات الصناعية وما وصلت اليه يد الصناع
 من المصنوعات التي عمرت جميع البقاع

وانظر الى الشركات الزراعية وما وصلت اليه في تلك
 الأقطار مما يدهش الأبصار ويبهج الأنظار فما غادرت شبر

أرض في تلك البلاد الا وأخصبته حتى منحدر الجبال أصبح رياضاً وبساتين يسر الناظرين ولا يبعد أن تستخدم قممها وذراها من غرسها وبنائها فتقدمت الأراضى تقديماً باهراً وصار الفدان الواحد يساوى مبلغاً وافراً ضعف ما كان يساويه قبلاً مرتين أو أكثر وهكذا بقيت الشركات التي غيرت نظام الهيئة الاجتماعية وأوجدت المنافسة في كافة المشروعات التجارية والصناعية وجعلت جميع الأفراد مشمولة بالمنافع العمومية ونشرت بينهم روح الحضارة والمدنية وصار الكل يشتغلون ويربحون ويكسبون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

٥٨

﴿ وصف روضة ﴾

بينما كنت ساجحاً في بحار العمل اذ حصل في نفسي فتور وملل وصدأت مرآة الجنان وسئمت القوى والأركان ونبتد القلم البنان وكلت الأفهام والأذهان وصار اللسان أصمت غيرناطق فسرت أهدق في جوانب الحقائق فاذا أنا بروضة واسعة الأرجاء فسيحة الانحاء تحار فيها الأبصار وتقتصر عن وصفها الأفكار ترايبها من مسك وكافور وحباًؤها

الدر النضير قد فاح أرجها وأضاءت سرجها جنة عالية قطوفها
دانية وطلحها منضود وظلها ممدود وأعلام أشجارها مرفوعة
وفا كهتها كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة خضرة نضرة أنيقة
طلولها وديقة وأغصانها وريقة ذات ألوان وأفنان وأكمام
وأكنان وثمرات حسان قد فاح الطيب من مجامر أزهارها
وصاح خطيب العندليب على منابر أشجارها وترنم البلبل على
العيدان فحمايل تمايل النشوان أو القيان الحسان وقد ملئت من
أنواع الأزهار وألوان النبات الباهر بدرّ وزبرجد وفضة
وعسجد تجوس المياه خلال ديارها وتشرق بأفاقها أنوار أنوارها
وبرزأبريزها وحسن تطريزها وأبدت من زينتها ما هو باللفظ
منعوت ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت عاليها من
رونق الورق المونق ثياب سندس خضر واستبرق فيها ما تشتهي
الأنفس وتلذ الأعين من أثمار ذات بهجة وأزهار تنعش المهجة
فتحلت بما يروق لسان كل إنسان وتجلت في رفرق خضر
وعبقري حسان

في روضة غناء غناها الصبا فترقعت طرفاً غصون البان
ومن نظر إلى ما فيها بعين الحقيقة وسرح بصره في هذه

الروضة الانيقة لشكر أيادي صانعيها ولجأ اليه وأثنى على
صانعيها وان كان لا يحصى ثناء عليه وقال تعظيماً لقدره (وما
قدروا الله حق قدره) وانشرح صدري بالوقوف على مغانيها
وجاد فكري حيث جال في معانيها وامتلاً قلبي من نورها
نورا وانقلبت الى أهلي مسرورا

٥٩

﴿ وصف مصر ونبيلها السعيد ﴾

لعمرك ما مصر وانما هي الجنة الدنيا من يتبصر
فأولادها الولدان والخور عينها وروضتها المقياس والنيل كوثر
مدينة ذات محاسن فيها أنهار من ماء غير آسن روضة
أريضة عيون أزهارها مريضة وأنواع البركات من نهرها
مفيضة ونوازع الهموم والغموم بها مريضة كأنها بدر والنيل
حولها هالة أو شمس في وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة
أو سرير ملك نصب في ميدان أو قلب جيش له مصر والجزيرة
جناحان مقرّ العلماء الأعلام والقضاة والحكام كم سكن
بها من خلفاء وملوك وأمراء ورؤساء ووزراء وفقراء وأغنياء
وكتاب وشعراء تقام فيها معالم العلوم والفنون ونعمات وألحان

وتدريس أفنان وقضاء أوطار وضرب أوتار كل نفس
 بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة فهذا
 يسعى في خلاص ذمته وهذا يوقعه القدر في حبال جنائته
 بخيائته قل كل يعمل على شاكلته

بها ما شئت من دين ودنيا واخوان تأسوا في المعاني
 فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنات المثاني
 وكم من قارئ فيها وقار أضرا بالجفون وبالجفان
 وكم من معلم للعلم فيها وناد للندى حلو المجاني
 فصل ان شئت فيها من يصلي واما شئت فادن من الدنان
 ودونك صحبة الأكياس فيها أو الكاسات منطلق العنان
 قال ابن اياس ان بعض الحكماء وصف أرض مصر فقال: هي
 في ثلاثة أشهر (لؤلؤة بيضاء) وثلاثة أشهر (مسكة سوداء)
 وثلاثة أشهر (زمرّدة خضراء) وثلاثة أشهر (كهرمة صفراء)
 وذلك لأن أرض مصر يركبها النيل وقت فيضانه فتكون
 بيضاء من اقتراش الماء عليها — ثم تصير مسكة سوداء متى نزل
 الماء عليها — ثم تصير زمرّدة خضراء وقت الربيع — ثم يصير
 زرعها أصفر كالذهب

فمن الناس من يسكن مصر ليعدها عوناً على تقواه ومنهم
من يدها للعبه وملهاه هذا يرعى فيها النجوم ويناجى الحى
القيوم وهذا ينقل ليله الى الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم
هذا بنظر اليها بعين الفكرة والتبصر فى عجائب القدرة وهذا
ليس له منها الا الابتهاج بنضارة الزهرة

رأيت رياض القدس فى روضة المنى على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق وفيها وجوه كالبدور البوادر
ويشبه سيب الماء فيها صوارما بأيدى الهناست لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله وفيها سرير السر سر السرائر
يحيط بأرجائها النيل الميمون فيرى من الأُسقام عيلا ويشفى
من الأوارغليلا

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدّمة والشرح للنيل
فهو حياة الأرواح والأُنفاس ويحشر له الناس ويحج فيه
الى المقياس وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ويبلغ الخلق
من النيل غاية النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل
ويركب اليه الملك والجنود ويكون للناس من مائه ولونه

المحمر ورود

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله في كل
سنة أجل معدود

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا كالروض تطفو على نهر أزهريه
وللوفاء عمود من أصابعه مخلق تملأ الدنيا بشائره

٦٠

﴿ فوائد النور ومضار الظلمة ﴾

النور حاجة من حاجات الجسم يسر من وجد فيه للحصول
عليه كما يتألم لفقدانه فهو يزيد الجسم قوة ونشاطاً والقلب طهارة
والفكر جودة — أنظر الى العصفور فانه يصفو حاله في النور
ويتزعم بالحانه ويفرد بصوته الجميل ويقضى وقته في سعة من
السرور وان حرمه اضطرب لفقده وفترت همته فلا تسمع له
صوتاً ولا لحناً — قال كبار الحكماء (المحل الذي لا يدخله
الشمس يزوره الطيب) وقال آخر (لا بد من طيب للعائلة
والأفضل أن يكون هذا الطيب نور الشمس) وانظر أيضاً
الى النباتات والأثمار فلا تثبت ولا تنضج الا بالنور — فهو أس
السعادة وأصل الوجود وسبب النمو والصعود وعليه مدار

الصحة والصفاء بل هو حياة من فى الأرض والسما فىلزم
الاعتناء بوصوله الى محلات النوم والمطالعة

٦١

﴿ فوائء اللغة العربية ومزايها على سائر اللغات ﴾

ان للغة العربية من الفوائء خزائن لا تنفء وكنوزاً
لا تنفى وبدوراً لا تحجب وعيوناً لا تنضب ورياضاً لا تدرى
ولكن لا يصل اليها الا من غاص بحرها وولى وجهه شطرها
وسبر كنه أغوارها وجاس خلال ديارها وجاب نجادها
ووهادها وراء مروجها وورء مناهلها - ومن المزايا التى
تترتب على معرفة العربية وتمتاز بها عن سائر اللغات الاعجمية
كونها أوسع من غيرها من اللغات وأكثرها طرقاً فى فن
الكتابات وأفصحها مقالاً وأفسحها مجالاً وأوفقها للنظم
طباعاً وأطولها فى النثر باعاً فىمكن أن يؤتى فى المقام الواحد
بدرجات من الاسهاب وأنواع من الايجاز تستطاب الى
غير ذلك من أساليب البلاغة والبراعة التى توسع مجال اليراعة
وكونها غير قابلة للانعءام كغيرها من لغات الأنام
لأنه نزل فيها كتاب عربى مبين تلاوته من أعظم العبادات

عند جميع المسلمين فما دام هذا الدين قائماً كان هذا اللسان موجوداً دائماً بخلاف اللغات الأخرى فليس فيها كتاب يتعبد بمجرد تلاوة كلامه لا اعتقاد أربابها أن الترجمة كافية في بيان مرامه . وقد أوصى أحد فلاسفة الألمان يوماً تلاميذه فقال (إذا أردتم أن تكتبوا فكراً تأمنون عليه كرور الأجيال فاكتبوه بالعربية فإن لها دون غيرها من اللغات مزية فقالوا وما مزيته فقال لأن في العالم أمة عظيمة العدد ترى من أصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى « القرآن » ولا شك في بقاء الأديان في الأمم العظيمة الشأن . وحينئذ فلا شك أن هذا الكتاب يبقى مابق هذا الدين وأن العربية تبقى مابق هذا الكتاب)

وما يطنطن به بعض الناس من قصورها إنما هو عن جهل بها أو لغرض يتعمس اخفاؤه وما يعترض به من أن الاستكشافات في هذه الأعصر كثيرة وليس في اللغة العربية كلمات للدلالة عليها فاعتراض ضخم في الظاهر فارغ في الباطن وما مثله إلا كفارغ بندق خلى من المعنى ولكن يفرقع فان باب الاصطلاح ليس مغلقاً في اللغة العربية مفتوحاً في غيرها وبالجملة اللغة العربية أليق اللغات وأكفلها بحاجة العلوم

فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف كلمة وعدد
كلمات الإنجليزية ١٠٠ ألف كلمة (علي أن معظم هذا العدد
الأخير اصطلاحات صناعة) وعدد مواد العربية ٤٠٠ ألف
(مادة لا كلمة) وبسبب غنى اللغة العربية وسعتها نجد فيها
للمعاني الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت
درجة التفاوت وبذلك لا يكون محل للالتباس أو الإبهام
في التعبير اللذين هما آفة العلم والأدب

٦٢

﴿ ما هي الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى ومضار
هجرها واستعمال اللغة العربية العامية كتابة ﴾
غير خاف أن اللغة العربية رابطة عامة لعدة من الخلائق
في المغرب والشارق ولحمة عظمى لجملة من الأمم صلتها من
آكد الصلات وحرمتها من أعظم الحرم - ولا يكفي في عقد
هذه اللحمة اللغة العامية لأن لكل شعب فيها طريقة خصوصية
فلهجة المصريين أو الحجازيين تخالف لهجة غيرهم من الغربيين
أو الشاميين فالأمر العام الذي ترجع هذه اللهجات اليه ويعتمد
في مبادلة الأفكار المختلفة عليه هو اللسان الصحيح الشريف

لسان التحرير والتأليف - أجل ان اللغة العربية مفتاح العلوم ومصباح الفهوم وواسطة لادراك ما يجده الانسان ويقع تحت العيون والآذان تجعل صاحبها قادراً على ارسال أشعة أفكاره الى أبناء جلدته فيستجلون ضياء أنواره ولا يجدون في طريقهم عقبات من العقادة تحجب عن الطالبين مراده - بخلاف من تقاعدوا عن الحصول عليها وتقاعسوا عن تعلمها وصرف الهمة اليها فلا يعرفون قيمتها الا عند الشروع في العمل ويأسفون حينئذ على حرمانهم من مزاياها بطاعتهم دواعي الكسل ويندمون ولا ينفع الندم حيث زلت القدم

وليس من وسيلة لحفظ لغة أمة أقوى من استعمالها في التعليم والتعلم ولا واسطة لنماء علم بين أمة ونشر التعليم بين بنيتها غير استعمال لغتها - فبديهي أن استعمال أمة لغة غير لغتها في التعلم والتعليم هو هجر للغتها وامانة لها فاللغات المسماة الآن ميتة ما صارت كذلك الا لهجرها

وهناك أمر أشد خطراً وأعظم وقعاً وضرراً وهو أنه لما كان السواد الأعظم من الشرقيين هم المسلمون وكان هذا الدين الاسلامي قائماً بالقرآن المجيد الذي هو باللغة العربية لزم

لأجل فهمه اللغة العربية بحيث متى انعدمت انمحق الدين
 الاسلامى وهلك السواد الأعظم من المصريين دنيا وأخرى
 لأن الدين هو ملاك الأمر والعروة الوثقى التى لا انفصام لها
 أجل — ان من أحب الله أحب رسوله العربى ومن
 أحبه أحب العرب ومن أحبهم أحب العربية ومن أحبها عنى
 بها وثابر عليها وصرف همته اليها فان العرب خير الأمم والعربية
 خير اللغات والألسنة — والاقبال على تعلمها من الديانة اذهى
 أداة العلم وواسطة التفقه فى الدين وسبب اصلاح المعاش والمعاد
 ثم هى لاحتراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر مكارم
 الأخلاق ولو لم يكن فى الاحاطة بمعرفة مبانيها والوقوف
 على حقائق معانيها وتصارينها ومجاريها والتبحر فى جلائلها
 ودقائقها ومجازاتها وحقائقها الا قوّة اليقين فى معرفة اعجاز
 كتاب الله المين وزيادة التبصر فى اثبات النبوة التى هى عمدة
 الأيمان لكفى بالعربية الفصحى فضلا يحسن أثره ويطيب
 فى الدارين ثمره

٦٣

﴿ فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وانارتها ﴾
 مما يستدل على حالة التمدين والحضارة ملاحظة كيفية
 الشوارع والأزقة— فمن أهم الواجبات افراغ الهمة وبذل
 العزيمة في تحسين هذه الكيفية واتقانها— على أنه لا يسع اهم
 التمدين قط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط
 والتخطيط مظامة الأرجاء قدرة الأتحاء بل يطلب منهم دائماً
 أن تكون مستقيمة عريضة ممهدة البلاط والخط— وذلك لأن
 الشارع أو الزقاق اذا كان ضنكا يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق
 امتداد النور الى مخازن الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين
 للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنزير والسل
 والأورام ونحو ذلك— واذا كان معوجا فانه يعسر انطلاق
 خطوات الناس فتعثر أرجلهم وتلاطم صدورهم وتتقارع
 جباههم وحينئذ يكون السير في الزقاق عرا كالا انتقالا واذا
 كان وعرا غير مستوفاه يصدع أقدام المشين ويسبب سقطات
 البهائم تحت أحمالهم الثقيلة فتتشم حوافرها وتكسر أرساغها
 فضلا عن المؤذيات التي تتجم من الشتاء في تلك الطرق الوعرة

فيؤثر فيها بحيرات من الأوحال تمنع الذهب والأياب وتقلل
 للمتجار والصناع الأبواب وعند هاتقف حركة الأعمال وتتعطل
 الأشغال وتتجرع الفقراء كأس الذل والهوان ولا يبقى سبيل
 لسلوك العميان — ومن حيث أن الأقدار والأوساخ لها
 أشد الأفعال السمية فلا يسوغ والحالة هذه تغافل أرباب التمدين
 عن ملاحظاتها. ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق
 والشوارع والخاصة لليوت والمساكن فرارا من تلك التأثيرات
 الرديئة ومراعاة لحق المدينة

٦٤

﴿ من كمال الشجاعة الحزم ﴾

علي كل حال فاجعل الحزم عدة تقدمها عند النوائب في الدهر
 فان نلت حظاً نلته بعزيمة وان قصرت عمك الحظوظ فمعدر
 اذا أخذ المرء بالحذر والاحتراس في موضع الشدة وعمل على
 الجراءة والاقدام عند انهاز الفرصة وكان بحيلته أوثق منه
 بشدته وبخدره أشد منه بشجاعته واختلس من يحاربه خلصة
 الذئب وعرف قبل انتشار الحرب طريق المهرب فقد أخذ
 بالحزم فان النفس أقوى ما تكون اذا وجدت سبيل النجاة

وسلامة العافية

ر كوكبك الأمر ما لم تبد فرصته جهل ورأيتك في الاقحام تغرير
 فاعمل صواباً وخذ بالحزم مأثرة فلن يذم لأهل الحزم تدير
 واذا اتسع للانسان المنهج فليحذر أن يضيق عليه المخرج
 واذا هممت وروداً أمر فالتمس من قبل مورده طريق المخرج
 فان نال الانسان حظاً وسعادة فقد حصل عليها بجدّه واجتهاده
 بطريق الاستحقاق — وان لم يحصل الانسان على مرغوبه ولم
 يجنى ثمرة أتعبه ونام عنه الدهر ولم تساعده الحظوظ فيلتمس
 له عذر بأن الدهر عكسه ورضاه من الغنيمة بعد التعب بالخسارة
 والفشل — بخلاف من نال أمراً بدون عمل فقد ظفر به بطريق
 الاتفاق — وان لم ينله فلا يجد من يعذره بل يسمع من يؤلمه
 ويرميه بالقصور والتقصير

وبالجملة ينبغي للانسان أن يكون الحزم قائده والتبصر
 زائده والتدبير مرشده والحكمة قرينه والعقل دليله — ولقد
 منح الله تبارك وتعالى النوع الانساني عقلاً ليستعمله اذا طرأ
 له شيء مهم يحتاج الى الروية والفكر وخص ذلك النوع بهذه
 الجوهرة الثمينة ليمتاز عن غيره

الحزم في غير وقت العزم معجزة والازدياد بغير العقل نقصان
فبالعقل يعمل ما لا يعمل الحسام فيدير شؤونه ويصلح أحواله
ويعمل في حياته بتعقل وتدبر وتبصر في العواقب

وذو يقظات مستمر سيرها اذا الدهر لاقاها اضمحلت نوائبه
يصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه
وأين يفر الحزم منه وانما مرأى الأمور المشكلات تجاربه
هذه الأمم التي نراها قدامتت أوج السعادة وارتقت مدارج
السيادة انما كان رائد أعمالها ومعظم سيرها التدبير والحكمة
والحزم— وتلك الأمم التي نراها في أحط درجة الجهالة وأسفل
مدارك الوحشية انما تستعمل الطيش والتسرع والتساهل وعدم
النظر في العواقب

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان
فلربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران
ولا عجب في ذلك فالحزم والتدبير أفضل شيء به يمكن الملك
أن يسوس رعيته والتاجر ماله والأب أسرته وأبناءه والداثن
مدينه وغير ذلك

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جدّه * أضاع وقاسى الصعب وهو مقصر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً * به الأمر الا وهو للقصد مبصر
فالتدبير يفعل ما لا تفعله القوّة والنظر في العواقب من
الفكر الصائب

٦٥

* الأيام صحائف الآجال فخلدوها بصالح الأعمال *
انما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسنًا وعى
التاريخ حياة الذكر ومدبر الحياة يسجل لكل واحد
المجد والشرف والفخار أو الذل والضعفة والعار - فهو الحكم
المطلق الواقف بالمرصاد يكافى من حسنت سيرته ويعاقب
من ساءت خطته

المرء بعد الموت أحدوثة يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره
وأعمال الانسان كالنجوم والحياة كالنهار والموت كالليل لأنه
لا يظهر فضل المرء الا بعد موته ولا يعرف مقامه الا بعد
ذوقه كأس الحمام - فكما أن النجوم لا تظهر الا في الليل كذلك
الرجل لا ترى أعماله الا بعد موته فان كانت صالحة ترى القوم

قد عدت مآثره وكان محمود الشهرة طيب الثناء يخلدله التاريخ
صفحة بيضاء—وان كانت طالحة فقد صب عليه ربه صوط
عذاب وأصبحه قومه باللعنات وصار اسمه لا يذكر الا مرادفا
بالتهكم مقرونا بالاحتقار وما ذلك الا لأنه حاد عن طريق الخير
وشذ عن فعل المعروف ولم يراع للعاقبة حتماً ولم يخش لها
بأساً ولم يدر ماذا يكون بعده مما يسجله التاريخ له من المجد
والفخار أو الخسة والاحتقار

وأفضل الناس من طمح ببصره الى الأمام وعلم أن
الآجال صحائف الأيام فخلدها أفضل الأعمال وجرّد تاريخه
من نقطة سوداء تشوّه وجه صحيفته البيضاء حتى كان مثالا
حسناً لمكارم الأخلاق وجمال الطباع نصيراً للمروءة فهذا
الذي يسجل له التاريخ ذكراً حسناً وحدثاً عاظراً وأثراً خالداً
يفرى على مرّ الدهور لدى الورى حياً بما أولاه من احسان
بخلاف من جعل مطمح نظره الشهوات واللذات وأفنى عمره
فيما لا يفنى ولا يثمن من جوع فحشر نفسه في زمرة من
ألا يخافون عقاباً ولا يتحاشون عذاباً فيغير الله نعمته وتحل به
مدنقته ويسجل لنفسه الخزي واللعنة الى يوم الدين وحقت

عليه كلمة العذاب

حياتنا كالموت ان لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم
وبالجملة ان من ترك له ذكراً حسناً يموت أبداً — قال

عليه الصلاة والسلام (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من
ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)
فهذه ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في
حق صاحب العمل تديم عمله وتجعله باقياً — فهذه الفضائل مخلدة
للذكر مؤبدة للأجر وبضدها تميز الأشياء

ناقت على الخيرات أهل العلاء فانما الدنيا أحاديث
وقال آخر

كن محسناً مهما استطعت فهذه الـ دنيا وان طالت قصير عمرها
ان المآثر في الوري ذرية يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها
فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاءت فان طفئت تضيع نثرها
فالدنيا دار كثير سكانها عديد قاطنوها تختلف آراؤهم بحسب
اختلاف مطالبهم ومشر بهم - وينقسمون الى فرق متعددة
كل منها يقوم بعمل دون غيره — فالأطباء يعالجون المرضى
والقضاة ينظرون في القضايا ومحكمة المجرمين — والمهندسون

لبناء المساكن أو اصلاح طرق الري — والنجارون لعمل ما يلزم للمنازل من أبواب ونوافذ وغيرها — والحدادون يسبكون الحديد — والكل يسعى في هذه الدار لينال قسطاً من المال يساعده في الحياة أو ليؤدى واجباً مفر وضاعليه وهو العمل — ولعمر الحق ما الحياة الا شقاء ونصب يولد الانسان با كيا علامة له علي شقائه فيها وعذابه الدائم الذي لا ينتهي الا بانتهاء أجله ويموت با كيا من شدة الألم وينتقل من داره التي يسكنها الى القبر الذي يجعله مأواه ومسكنه ويصير جسمه الذي كان كالزهرة النضرة جثة هامدة لا حراك فيها وبعد ذلك تتحول تلك الجثة الى رفات سحيق — فاذا تأمل الانسان وتبصر وعلم أن ذلك هو حاله لنبذ ملاذ الدنيا ولعافى النفس عن الهوى ولعلم أن الجنة هي المأوى فلا يترك حسنة الا ويأتي بها ولا سيئة الا ويتخلى عنها — ويكون حقيقة هو الرجل الذي عرف الحياة وقدرها وعرف الآخرة وأعد لها من الحسنات والفضائل ما يخلد له ذكراً حسناً

اذا كنت في أمر فكن فيه محسناً فَمَا قَلِيلَ أَنْتَ مَاضٍ وَتَارِكُهُ

٦٦

﴿ اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت
كبير حيث تكره ﴾

لا يخفى أننا نجد من شعورنا الانساني أن الأحوال
النفسانية المختلفة كالتفكر والاحساس والارادة صادرة عن
شئ باطنى قائم بذاته مغاير للجسم فهذا الشئ يسمى بالنفس
أو الروح - وبما أن شعورنا يبقى على حالة واحدة من الصغر
الى الكبر وأن الجسم تلحقه التغيرات المختلفة نعلم أن النفس
ليست بمادة وليست قابلة للقسمة وأنها شئ آخر مخالف للجسم
ولكنها مرتبطة به حيث نجدها تقسمه أحواله كالقوة والضعف
والصحة والمرض كما أن الجسم مرتبط بها ويقسمها أحوالها
كالفرح والحزن وخلافهما

ثم أن التفاعلات المتغيرة التي بين الجسم والنفس اما أن
تكون متسببة عن النفس أو عن الجسم - وذلك اذا كانت
حالة من أحوال النفس تولد من أثر ظاهرى فى الجسم تعتبر
تفاعلا سببه الجسم - واذا كانت حالة من أحوال الجسم تولد
عن أثر باطنى فى النفس تعتبر تفاعلا سببه النفس

وينتج من ذلك أن الأحوال الجسمية الظاهرية تكون محسوسة للنفس وأن الجسم تلحقه الحركة بواسطة تأثير النفس فيه وأقرب أجزاء الجسم من النفس هي الأعصاب لأنها توصل الآثار الظاهرية إلى النفس وتكون واسطة لها في تأثيراتها في الظاهر وتدعو الجسم بواسطة الاحساسات النفسانية إلى الحركة الاختيارية ولذلك يمكن أن تعتبر الأعصاب آلات للنفس

والأعصاب تكون فعالة إما بواسطة التأثيرات الظاهرية أو الباطنية فالظاهرية كالضغط والضرب أو الحرارة والنور والكهربائية — والباطنية كدورة الدم والأحوال الصادرة عن النفس — والأعصاب منها ما ترسل الآثار من محيط دائرة الجسم إلى مركز الاحساس النفسى وتسمى أعصاب الاحساس — ومنها أعصاب ترسل التأثيرات النفسانية الطالبة للحركة إلى محيط الجسم وتسمى أعصاب الحركة الاختيارية إن كانت مسبوقة بالإرادة — والاضطرابية إذا لم يسبقها إرادة وهناك حركة شبيهة بالاضطرابية كالضحك عند رؤية شيء غريب وكحركة الدم عند الحياء والخجل وكحركة الأعضاء

الصادرة تحفظا كتغميض العين اتقاء خطر . والحركات التقليدية كالتثاؤب عند رؤية آخر قد تشاءب وغير ذلك . ويعد من ذلك النوع الحركات الطالبة لها الآداب في المقابلة والمؤانسة الانسانية فهي وان كانت اختيارية فالتمرن عليها يجعلها كالاظرارية فالذى يتربى بأخذها تصير له عادة وطبعاً لا تحتاج في صدورهما الى ارادة منه

ولما كانت النفس في الانسان أمانة بالسوء ميالة للشر طلابة للراحة احتاج الناشئ في صغره الى مزيد عناية . فمن ألهم الله والديه أن يرضعاه تدي الأديب والجد من صغره ووهبه مع ذلك عقلاً كاملاً شبّ وحب الارتقاء يشب في صدره وذروة المجد مرعى نظره وخدمة الوطن كل أمله فلا يستصعب شاقاً ولا يجد في طريقه للمجد عائقاً . فهو ينفر من الراحة ويأنف الانغماس في اللهو مع السفلة ويمجد نفسه أعلى مقاما وأرفع منزلة من أن يدنس سمعته أو يلوّث صيته بالانكباب علي اضاءة الوقت فيما يضر ولا طائل تحته فيمقت جنبه المضجع وتبغض عينيه الكرى الا غرارا أو مضمضة ومن أهملاه والداه شبّ والكسل قرينه والهاوية قطينه

والفقر أليفه والعجز حليفه يعيش لياً كل ويقتل الوقت الثمين
ولا يميز بين الغث والتمين حتى اذا كبر صدمته مصائب الحدتان
واقترسته مخالب الزمان

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
قال الامام الغزالي (الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر
جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل
لكل ما ينقش ومائل الى كل ما يمال اليه به فان عود الخير
نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة -- وشاركه في ثوابه أبواه
وكل معلم له ومؤدبه -- وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم
شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه) وحينئذ فلا بد
للارتقاء الأدبي من التربية وهذه يجب أن يبدأ بها من الصغر

٦٧

﴿ فوائد ومضار الانتقاد ﴾

الانتقاد والفحص من أحسن الوسائل لاصلاح الأعمال
وترقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها من الفساد اهمالا أو سهوا أو
جهلا -- وان النفس المهذبة المترية لترتاح لمن يقوم عوجها من
عالم عليم وامام حكيم فيسمع قواه ويخشى لومه ويتقبل انتقاده

تقبل حسن فبذلك تتقدم العلوم والمعارف ولا يظهر منها الا ما هذبته العقول ونقحته الأفكار وأصلحته الأ نظار والأ بصار فتجلى في أحسن مثال وأبهى منظر وكال منطوقها الحقائق ومفهومها الدقائق يعلو وجهها البشر والسرور ويقرها جميع الجمهور وبذلك تقوم المصلحة العامة علي قدم الأمانة وتسير الأمة في سبيل الرقي والنجاح فيسمو عزها ويبسط سلطانها وقد اعتنى به الغربيون اعتناء عظيماً لأنه يدعو الحاكم والكاتب والتاجر والصانع لبذل جهده في اتقان عمله فتتقدم البلاد وتحسن حالتها حساً ومعنى فتراهم لا يزرغ بينهم كتاب ولا يشرق عندهم مخترع حتى يفحصوه فخص الناقد البصير فينظرون فيه من كل وجهة ويزنونه وزناً دقيقاً — وبذلك طهروا المطبوعات من المضر والتافه والساقط فلا يجسر على نشر ما كتب الا الكفاء القدير الواثق بعمله الطالب نفع وطنه والا كان عمله اذا أقدم تجارة يهددها سوق الكساد ولا تلبث أن تبور ويضرب بها عرض الحائط والانتقاد من أهم ما أنشئت لأجله الصحف والمجلات فهو أجل منافعها اذ به يرتدع الظالم عن غيه ويحبر المستبد على الوقوف

عند حده فهي توصل صوت الشعب وتعبّر عن رأى الأمة
لمن يقدر علي تليتها واجابة نداءها والاصاخة لمطالبها وتخفيف
ويلاتها ومصائبها

وبالجملة الانتقاد ضرب من ضروب الاصلاح اذا كان
الغرض منه الارشاد الى الصواب والتنبيه عن الخطأ والحض
على الصحيح . والا صار مجلبة للتقاطع والاحقاد ومثار التنافر
والعناد وحينئذ يسقط نفعه ولا يحسن وقعه بل يصير تعنتاً
ودعوى كاذبة يلصق العار بالمنتقد ويحط من كرامته لأن قصده
ارسال ما في كنانة غيظه من سهام التشفى والانتقاص

فاذاً يجب على المنتقد ألا يضرب بحسامه الا صفحا كي
لا يجرح شعور المنتقد جرحاً مميتاً قاتلاً — يجب عليه ألا تبلغ
لهجته الشدة ولا تتجاوز اللائق بالأديب من الرقة — يجب
عليه أن يدرأ العيوب بالشبهات فاذا لم يجد شبهة فلا
مناص من الانتقاد

كما أن الواجب على من انتقد عمله أن يقدر الانتقاد
الصحيح حق قدره وينظر فيه نظر من يريد الصواب وينشد
الهداية ويبحث عن موقع الخطل ولا يتعالى ويتغطرس شامخاً

بأنفه فما هو بالمعصوم وان هو مهما علا كعبه في فنه الا انسان
والله وحده هو الذي تفرد بالعصمة والكمال

٦٨

﴿التدبير والنظر في العواقب يفعلان ما لا تفعله الكتاب﴾
الرزانة والتؤدة والتفكر والتروى في الاقدام والاحجام
من الحكمة والعقل فلا يقدم العاقل على أى عمل الا اذا نظر
في عاقبته ان خيراً فخير وان شراً فشر — فالنظر في العواقب
من الفكر الصائب ومن لم ينظر في العواقب فليس الدهر له
بصاحب. فحينئذ ليست القوة للأجسام انما القوة الهائلة للتدبير
العظيم أمره. الرفيع قدره. الجليل شأنه. فكم أعز ملوكا وشيد
دولة ورفع صولة وأعلى مناراً ونصر جيوشاً وقهر جنوداً
هذا الاسكندر ذو القرنين بحسن تدبيره وقوة فكره
وسلامة عقله لما قرب من « فور » ملك الهند لمحاربتة وجده
قد جمع له العدة في أسرع مدّة من القبيلة المعدة للحروب
والسباع المضراة بالوثوب مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع
والحراب اللوامع فلم يقدم ذو القرنين على فور بل تمهل ودلته
فطنته وأنتجت له همته أن يتقدم الى الصانع الذين معه أن

يصنعوا له خيلا من النحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال مملوءا
جوفها بمواد نارية وتلبس وتقدم أمام الصفوف فعند ما تهجم
عليها الفيلة وتلف خراطيمها عليها ولت هاربة وألقت من كان
عليها وداستهم تحت أرجلها ومضت مهزومة — وقد تمت له
حيلته حسب أمنيته وانتصر على فور وقهره وأهلكه بحيل
ومكايد مع حسن تدبير ونظر في العواقب — ومن هذا القبيل
ما يحكى أن قنبرة اتخذت لها مسكناً في مكان كان طريق المورده
ماء يشرب منه فيل فيبما هو سائر منه اذ هشمت أرجله عشاها
فكسر بيضها وقتل فراخها فأخذت القنبرة تصيح بالبكاء
والعويل وررفت بمخاحيها على رأس الفيل وأقرآته السلام
وقالت له أيها الملك لقد خربت بيتي وقتلت أفلاذى — أهل فعلت
ذلك سخريه بمقامى واحتقاراً لحالى واستصغاراً لضعفى فأوماً
اليها باعتقاده كل ذلك فتركته ولم تنطق ببنت شفة — وأخذت
تفكر وتدبر فأرشدتها التأمل والنظر في العواقب الى مشاورة
أخوتها فطارت الى الطيور وأخبرتهن بما فعله الفيل معها من
الاستهانة وأشار عليهن بأن تسير معها فئمة ليفقأن عيني الفيل
حتى يضل ويعمى ففعلن ذلك وتم لها مرادها — ثم ذهبت الى

الضفادع وشكت ما حل بها من الجور وظلم الفيل وأخبرتهم
بما فعلته بالفيل من فقه عينيه ثم طلبت منهن المساعدة على تمام
هلاكه وأشارت عليهن بأن يتوجهن الى حفرة جافة قريبة
منه ويتقنن فيسمع الصوت فيظن أن الماء قريب اليه فانتقلت
الضفادع وتقنن فأسرع الفيل الى الحفرة لشدة عطشه فهوى
فيها وتكسرت عظامه ولم يقدر على الخروج من شدة ما اعتراه
من العمى والآلام . فررفت القنبرة بجناحها حتى سقطت
على رأسه وقالت أيها الملك المغتر بعظمتك وجلالك وكبر
جسمك وقوتك . الشامخ بزلومة أنفك الى السماء وأستك في
الماء . ماذا نفعلك هذا الجسم الكبير وهذا الهيكل العظيم وأنت
خال من العقل والتدبير احتقرتني واستصغرتني لضعف جسمي
وقلة بنيتي ووهمت أن القوّة في الضخامة والطول . وفاتك أن
القوّة للأفكار والعقول

٦٩

﴿ فوائد ومضار التقليد ﴾

التقليد التشبه بالغير ان خيراً فخير وان شراً فشر والعامل
من قلد غيره في الفضائل والكمالات ونافسه في اقتناص

الخيرات وزاحمه في كمال الأعمال وتشبه به في جلائل الأفعال
هذه أمة الغرب التي ما كانت تذكر قلدت الشرق
عند ما كان شمساً مشرقة أيام الحروب الصليبية فارتقت وأخذت
عن العرب أحسن العادات وأفضل الصفات وكمال العرفان
وأصبحت هي التي تضيء العلم والعمل على أرجاء المشرق الذي
غربت شمسهُ وأشرقت عليهم - وكلنا لاه يرح ويلعب وتفعل
الغريون بنا الأعيهم ونحن أطوع لهم من خيال وتبعناهم تبع
المقلد الأعمى - فياله من داء عضال اختلفت في أدوائه رجال
الشرق فمن قائل لا سبيل لنا الى الخروج من ربقة هذا الانحطاط
الا تقليد الأمة الفلانية واختار أمة من الأمم الغربية أشرب
في قلبه حبها فأخذ يبت أعمالها ويؤم أميالها - ومن مدّع أن
التقليد لهذه الأمة لا يوصلنا للغرض المطلوب وأنه يجب علينا
أن نقلد الأمة الشهيرة وانتقى له أمة أخرى مدحها وفضلها
على سواها وهكذا حتى كثرت الأحزاب واختلفت الأميال
وصار كل حزب بما لديه فرحاً . ونسوا أو تناسوا الدواء
الشافى وهورجوعهم الى عوائدهم وأخلاقهم والتمسك بعقائدهم
ودينهم - هؤلاء رجال الصدر الأول من الاسلام لم يبلغوا

هذه الدرجة الفخيمة التي يرتعد لها قلب الجبان ويعجب منها كل
 انسان لكونهم كانوا يرجحون غيرهم في الشجاعة ويقلدون
 أو لأنهم كانوا مستكملى العدد والعدد بل لأنهم اجتمعوا
 تحت كلمة واحدة وانقادوا للقانون الشرعى الذى هو كافل
 لأحوال المعاش والمعاد فكانوا يتحاضرون اليه في السلم والحرب
 وجميع الأعمال بحيث لا يبتون أمراً من الأمور الا بعد عرضه
 على قواعد الدين وأحكامه فان ساعدت عليه أتوه والأتروه
 وبهذه الحالة صار جانبهم محفوظاً وسلطتهم نافذة وقوتهم
 مشهورة وأعمالهم مرضية اذ كانوا لا يولون الأمور الا ربابها
 قائمين باقامة الحدود محافظين على شعائر الدين الى أن غير الأسماء
 والرجال ما فى أنفسهم واتبعوا شهواتهم وبدلوا وجهتهم
 وفرقوا كلمتهم فحقت عليهم كلمة (ان الله لا يغير ما بقوم حتى
 يغيروا ما بأنفسهم)

ولا تتشط أمة من عقابها أو تقوم من رقدتها أو تستيقظ
 من غفلتها الا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كذا كرمجد اسلافهم
 وتقليدهم فى أعمالهم وأفهامها أن لهم استعدادا للكمال ورجائهم
 الخير وتوسمهم اقبال الزمان وتبسم الدهر فى وجوههم

وبالجملة التقليد غريزة أودعها جل شأنه في نفس الانسان
لتكون داعية العمل ورائد الرقى ومبعث الحركة ومطلع
شموس المدنية وال عمران

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحياة فتراه
مولعاً بتقليد أمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن
أو قبيح — فجدير بالانسان أن يصرف تلك الغريزة الى النافع
من الاشياء ويجعلها وصلة بينه وبين أعظم الرجال فيقلدهم فيما
أتوه من جليل الأعمال فان شاء فليكن مرشداً حكماً أو
قائداً عظيماً أو طيباً ماهراً أو منشئاً محرراً أو سياسياً محنكاً أو
أصولياً بارعاً أو سلطامتجولاً أو قاضياً عادلاً أو وزيراً نصوحاً
أو خطيباً فصيحاً أو شجاعاً مدافعاً أو تاجراً رشيداً أو مخترعاً
مفيداً — فانه ان فعل ذلك علم مقدار نفسه في الوجود وقلد
تقليداً نافعا وأفاد واستفاد وان أضاع تلك الهبة النفسية وقلد
تقليد الغراب وكان كمن اغترّ بالسراب وبهره حسن المنظر
فشغله عن سوء الخبر وسار يخبط في أموره خبط عشواء لا يميز
بين السراء والضراء فذلك الذي رجع بصفقة المغبون وضل
ضلال المفتون وكان تقليده وبالاً عليه وضرراً على من التفوا

حواله وخذوا حذوه فضل وأضل

٧٠

﴿ الربا ومضاره ﴾

رغد العيش مبنى علي تبادل أعمال البر والاحسان بين
الناس وعلي مواساة بعضهم بعضا وأخذ بعضهم بيد بعض والا
فلا مدنية — وان تجرد من دين نزل من السماء الا وهذه
الخصال في مقدمة تعاليمه — ومن باع درهما بدرهمين فقد عمد
الى قطع تلك الروابط الثابتة ورضى من الحياة أن يعيش في
التجرد من الانسانية والمدنية فلا يحسن ولا يحسن اليه ولا
يؤاسى أحداً ولا أحداً يؤاسيه وهي خسارة كبرى يحتسبها
عليه نظام الدين والعمران

ذلك هو المرابي آثر منفعة نفسه على اقامة المصلحة العامة
وهي العمل بحكم المؤاساة والبر فجر ذلك اليه اذ فقد من الناس
من يؤاسيه اذا أجذب أو يبره اذا أترب — وأيقظ علي مطالبه
الأطماع وعرض ثروته لأهداف الأغراض واستبدل بشاشة
الوجوه وكنوز الضمائر ببهارج الظواهر،

وان من النفوس نفوسا تؤثر الكثير المظنون من المنافع

على القليل المقطوع به منها وإنما ينشأ ذلك من بعد الهمة أو من
الطمع الهائل - وما تلك الأنواع من النفوس بكثيرة العدد
في الناس وإنما الذي يغلب وجوده في جميع الطبقات هي التي
تؤثر القليل المحقق على الكثير المظنون لاسيما إذا كان هذا
مخفوا بمشاق ومكازره وكان ذلك مما يبلغ براحة واطمئنان
ومتى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين أخذوا إليه
وأعرض أكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة
وصناعة وزراعة لأن ما تأتي به هذه الأسباب من النمو المالى
على ما فيه من الجهد والعناء مطنون على العكس مما يجىء به
المكسب الربوى فإنه مع قلة مؤنته وخفة عمله مشهود ومتحقق
والنفوس أكثر ميلا وأشد ولوعا بما كان من هذا
الضرب من المكاسب - وهنالك مهب الفقر المدقع ومصعب
العجز المدمن وهما خطبان أليمان لا ينتظم بهما جنس ولا يصير
عليهما اجتماع - وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية - قال
تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى
يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا
وأحل الله البيع وحرم الربا) والحكمة في تحريم الربا هي أنه

يقتضى أخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدون عوض وهذا حرام لقوله صلى الله عليه وسلم « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » وقد أجمعت الأئمة أيضاً على حرمة أكل مال غير المسلم من الذين دخلوا بلادنا بأمان وعهود بخلاف الحربين

كيف لا وأنه اذا تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لا عرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع لما فيها من المشقة العظيمة ولا شك أن هذا يفضى الى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم الا بالتجارات والصنائع والحرف فاذا حصل الاعراض عن هذه الأشياء استغناء بالربا فلا بد أن يختل نظام العالم — وأيضاً الربا يؤدي الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف — فاذا حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط -- وأما لو كان الربا حلالاً لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين فيؤدي ذلك الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس — بل والى ذهاب أموالهم ووقوعهم في ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من أهل زماننا هذا قال تعالى (يحق الله الربا ويربي الصدقات)

٧١

✽ العائلة بالا باء خيرا بخيرهم وشرها بشرهم ✽
 العائلة وان كانت أخص المجتمعات فهي أصلها وأقرب
 للانسان من غيرها وتنتظم من زوجين متآلفين يأنس كل منهما
 الى الآخر — والازدواج الأدبي هو ما يكون ملحوظاً فيه
 الى الحكمة الآلية التي هي طلب العفة والتكثير وما وراء
 ذلك من قضاء الأميال الجسمية فخارج عن مقصد الآداب
 وان كان ذلك هو الباعث الطبيعي — ومن دواعي الازدواج
 طلب مصافاة النفوس والأانس والتعاون وغير ذلك من الصفات
 الفضيلة التي تؤذن بصفاء العيش وابتهاج النفس ولا يصدر
 ذلك الا عن ثابت محبة بين الزوجين لذاتهما

تم ان المحبة للذات اما ان تكون لجمال الخلق أو كمال
 الخلق فان كانت لجمال الخلق والظاهر التي وراءها الأخلاق
 الذميمة فقل أن تصل بالانسان الى غاية محمودة — بخلاف
 التي تنبعث عن كمال الأخلاق وحسن السجايا ولو كان
 دونها دمامة الخلق

وأهم الخصال الحميدة بينهما هي الثقة ببعضهما في جميع

الأحوال ومتى نفدت الثقة انحلت عرى النسبة بينهما وعاشا
مفترقين أهواء مجتمعين أجساما — ولولا ما شرع الله من الطلاق
لتفاقم الأمر وعز الصبر — ولذلك كان اختيار الزوجين لبعضهما
في الأمم السالفة لآسيا الأمم العربية من أهم الأمور فكان
العربي يقطع المراحل لاستوصاف خطيبته ويقصد أخير بشأنها
الدربة المحرب الذي عجم عود الأيام ليلقى عليه من وصفها
فيأخذ في سرد شمائلها من جمال الظاهر وكمال الباطن وحسن
السجايا التي يجب أن تكون عليها النساء وقتئذ وكذلك هي
عند استوصافها الزوج — فكان لا مطمح لنظرهما إلا الصفات
الجميلة من الكرم والمجد والشجاعة والعفاف

والزوج والزوجة سياتن في الحقوق ومتساويان في المعاملة
فكما أن سيد العائلة لكونه أقوى حماسا وأشد بأسا وأوسع
تصرفا كذلك هي رئاسة أمورهِ لتديرها المنزل ونظرها في
مصالحه وجلبها لراحته — فاسترقاقه إياها أو صرفها في خدمته
الخارجية عن حقوقه ضد العدل مناف للأداب حطة في الإنسانية
خدش لناموس الحياء — وكما أنها تقسمه الحزن والسرور
تقسمه كذلك الخيرات المنزلية فلاحق له في اختصاصه بأطايها

واستشاره بها نفسه ولو رضيت الزوجة

وتتوى النسبة بين الزوج والزوجة اذا صارا أبوين

لا تحادها على أمر واحد وهو « التربية » وفي هذه المرتبة تم

العائلة وتزيد الحقوق فتكون ثلاثة حقوق. الأبناء على الآباء

وحقوق الآباء على الأبناء وحقوق الأبناء على بعضها

فأما حقوق الأبناء على الآباء فهو الاعتناء بالتربية

الجسمية والعقلية وطبع محاسن الأخلاق وجميل الصفات

وتعليمهم التعاليم الدينية مع تمرينهم على العمل بها وأخذهم بالرفق

والتودد لا بالقسوة والتخويف — والتسوية بين الأشقاء

ولعت المحبة فيما بينهم وتعويدهم على اقتسام الحزن والسرور

بعضهم البعض وهديهم الى ما يصلح معاشهم من بعدهم والمحافظة

على ذلك كله وعدم التفريط فيه

وأما حقوق الآباء على الأبناء فهي الطاعة وخفض

جساح التواضع والاحترام والتعظيم من قدرهم والثقة بهم

والاحسان في المعاملة اليهم ومساعدتهم والشكر على أنعمهم

والخشية لا الخوف منهم

وأما حقوق الأبناء على بعضهم فالحب والاحترام والشفقة

والعدل في المعاملة وصفاء السريرة والمساعدة وغير ذلك — وما يكون منهم منافياً للآداب والمعاملة كظلم أحدهم الآخر أو الأضرار به فهو كقول لعقاب الآباء متبعين العدل والانصاف مع الاحتراس والحيلة كيلا يظن به من يستحق العقاب منهم أنه أدنى درجة من أشقائه أو من له الحق أن له الفضيلة عليه وبالجملة أن تربية الأبناء سواء الذكور منهم والإناث وتعليمهم العلوم والآداب من أول واجب على كل أمة تريد صلاحها وتقدمها وانخلاعها عن جلياب البساطة وانقاذ أفرادها من مهالك الجهل والتوحش والانحياز بهم إلى جانب التمدن والحضارة حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ويقوى تعارفهما وتتأكد ألفتها وتقتهما ويكون مجموعهما تمثالا للخير وصورة للآداب يبعثانها في أبنائهم وتكون العائلة مثالا للمجتمعات الخارجية ونموذجا للوطن ومنوالا للأمة

فالعائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم

إذا كان رب البيت بالطبل ضاربا * فشيمة أهل البيت كلهم الرقص
وكما تكون الآباء تنشأ الأبناء فلا يستخرج من الحديد الذهب
ولا يجنى من الشوك العنب

ينشوا الصغير على ما كان والده ان الأصول عليها نبت الشجر

٧٢

﴿ المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ﴾

حب النفس فطرة في كل انسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية بل هو خلق وجد مع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه

ولما كان الانسان في حالته الفطرية الأولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التي تنازعه في معيشته— بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذي يتبعه في سلوكه فلا يتأخر عن فعل أمر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحاً أو فيه شر للناس ولكن منذ اليوم الذي ابتدأ الانسان فيه أن يعيش في جامعة من أبناء جنسه متضامنة في وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص عند كل فرد من أفراد هذه الجامعة لما تحققت من أن حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده بل من وظيفة جميع أعضاء العائلة التي هو منها— فالقبيلة التي تشملها

فالحكومة التي ترعاه

ومن ذلك اليوم وجد في جانب هذا الواجب الذي تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها في ألا يعمل فرد منها عملاً يعود عليها أو على عضو منها بالضرر — ومع التقدم رويداً رويداً في نظام الاجتماع صار كل عضو من الأمة يتمتع بأعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء — وعلى ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد اليوم مرتباً بأهل بلده ارتباطاً شديداً نعم أن حب النفس لا يزال في فطرة كل إنسان بل أنه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل أن كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج في الحقيقة عن كونه شعبة من حب الإنسان لنفسه بالواسطة — بمعنى أن الإنسان يحب نفسه في كل إنسان وفي كل شيء يميل إليه

لكن لا ريب في أن الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعي حتى أضعفه أو على الأقل

رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها — فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة وهي ممنوعة اذا كانت بعكس ذلك والتربية الحسنة النافعة انما تظهر في اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس في آن واحد وفي الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم في تحقيق آماله لأن العمل اذا كان يحتوى على منفعة عمومية رضى الناس أجمعون وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم — وهذا التعاضد يساعد به العامل ولا شك في تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد

ومن الأسف أن الشرقيين قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس في تربية النشء فشبوا على ما تراه ممتازين بمهارة غريبة في انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير — فهم يتهافتون على العمل النافع لهم اذا كان فيه اضرار بالمصلحة العامة — وقد لا يقبلون عليه اذا تجرد من ذلك — فال موظف يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقاً واحداً وهو «الشغل»

والفرد من الأهالي لا يستعين في طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات وبجميع أعمال الزور حتى ضد

أقرب الناس إليه

وهانحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الآخر بدون
أن يمتزج به الا امتزاجا سطحيا — كل منا سائر في طريقه
مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط — مع أننا نرى غيرنا
على خلاف هذه الأخلاق

نرى الأمة المكوّنة من أربعين مليوناً من النفوس مثلاً
كل أفرادها علي قلب رجل واحد

وإذا ذكر اسم الوطن ألفت هذا المجموع العظيم مؤلفاً
من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأخرى فنية وهكذا بقدر
ما يوجد من فروع العلوم والفنون — نرى حب الاجتماع
في كل شيء وفي كل انسان عند الأمم الغربية — فلهذا يلزم
تعويد نشأتنا على الاجتماع بأمثالهم حتى اذا شبوا على ذلك كان
حب الاجتماع فطرة فيهم فلا يكون حب النفس من العيوب
المفضية الى انحلال أجزاءنا والاضرار بجامعتنا كما هو الآن

٧٣

﴿ فوائد الوقار ومضار الاحتقار ﴾

الوقار أو الاحترام هو محك التربية فكما كان نامياً في

أمة كانت تربيتها جيدة وإذا فقد كان فقدانه انذاراً بانحلال

جامعتها وستوط أبتها وعظمتها

وان أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعة شأنها هو

احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية مثل الدين والوطن

والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف

أو جميل أو نافع

وإذا كان هذا الاحترام عاما عند الجميع وشاملا لجميعها

كان دليلا على قوة تربية الأمة حيث لا يجراً على مخالفة هذا

التيار القوى الا نقر قليل

ونحن معشر المصريين لا نحترم وطننا ولا نعرفه وكثيرا

ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من

الأجانب والدخلاء وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب

في الحقيقة لنا

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً في نفوسنا لا في

الماضي ولا في الحال — اذ في الماضي كان المصريون يخشونها

ويرهبونها أشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة

واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة انقلب الخوف بناء على

حركة رد فعل طبيعي وبمعرضات أخرى الى استخفاف
وكلاهما بعيد عن الاحترام الذي يلزم أن يكون متبادلا بين
الهيئة الحاكمة والمحكومة

فاذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة
بالتفاتها الى راحة الأمة والاعتناء بسماع نداءها وتنفيذ رغباتها
كما ينبغي وبحسب الامكان - ومن جهة الأمة بأن تثق بوكلائها
ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التي تراها لازمة لها وتغيير
القوانين التي تراها مضرّة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر أعمالهم
حق قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتبهرهم ان أخطأوا
وتشجعهم على الاستمرار في الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى
يكون ذلك لزاما لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة
والعائلة - يلزم أن يكون أساسها الاحترام ونحن مع
الأسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيراً
ما يتغلب عليها هوى النفس

فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً
ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها - وقد يترك هذه حاملاً
ليأخذ غيرها كذلك - وهكذا يقضى حياته في تشييد بناء

عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لأنه لم يفكر إلا في لذة ذئبة لا تذكر في جانب الأضرار التي تتجم عنها - وإن أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق - وهو أبغض وجوه الحلال إلى الله تعالى - وقد اعتاد أهل مصر استعماله بطريقة شائنة جدا

لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل
فعلى الآباء أن يحترموا أنفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تربي نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هي الآن ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشتمون وقد يتضاربون ويفترقون

وأيضاً لم يوجد بيننا احترام للعلم والفضيلة ولذلك لا تميز في المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرزيلة بل في بعض الأحيان قد يكون احترامنا للثاني أكثر من الأول على أن المدنية الصحيحة تعتبر أكبر مكافأة لمن عمل عملاً صالحاً أن يحترمه الناس - وأكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث أن يحتقروه - ولا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوباً فيها

والرزية ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا أحس الناس بقوة
حكم الرأى العام وسلامته — ولا يوجد شىء يبرهن على فساد
أخلاق الأمة أكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها اذلا شىء
أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة

وبالأسف نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون
بمعارفهم وأعمالهم — ونرى شبانا يهزءون بالشيوخ ولا يثقون
بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم ان كانوا
من أصحابها ويزاحمونهم فى الأقوال والأعمال ولا يتأخرون
عن أن يتسوروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء
على مراكزهم

٧٤

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾
العالم الانسانى جميعه جسم واحد أعضاءه الأمم — صحته
الهدى — دأؤه النجى — دأؤه النصيح والارشاد فاذا لم يأمر الآمرون
بالمعروف وينهى الناهون عن المنكر خسروا الدنيا والآخرة
وباءوا بغضب يحارب ضائرهم وخسارة تنقص أموالهم وقتل

يحصد رءوسهم وانتهاك لحرمتهم وصبت اللعنة عليهم والخزى
والعذاب المبين . واذا قام الهداة بارشاد الرعية وأوقفوا
الأمراء عند حدّهم اذا ظلموا وعلموهم اذا جهلوا وذكروهم
اذا نسوا كان العدل وانتظم الأمر — ولم يأل الناصحون
من الأمم جهداً في غابر الأزمان في النصيح والارشاد ولم
يبالوا بما ينالهم من الأذى والموت قياما بما عهد اليهم وماتوا
به ضمائرهم — وهذا «بيدبا» حكيم البراهمة قام مقام الخصم
الألد في وجه «دبشليم» ملك الهند حينما طغى وتجر — فوقف
مدافعاً عن أبناء أمته الضعفاء في منزلة بين المنزلتين اما استقامة
الأمر وانتظام الجمهور واما سفك دمه وذاقته طعم الموت
الزؤام وأبي ذلك الفيلسوف البقاء علي الذلة والهوان فقال
بالنصح بغيته وأبقى له أثرًا يذكر بعده — فحيا الله الحكمة
والحكماء ومن معهم

وهؤلاء الخلقاء الأربعة عنوان العدل ونبراس الهدى
وعلم السعادة ومع ذلك لم يذروهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون
وكذا النصحاء وقفوا في وجوه بني أمية واستعذبوا
التعذيب ورضوا بالموت كما وقع (لحطيظ الزيات) اذ قال

للحجاج انك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة— وعبدالملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك اتماً وإنما أنت خطيئة من خطاياها وسيئة من سجاياها— فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو في الثامنة عشرة من عمره

وأيضاً ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون— هذا أبو جعفر المنصور دخل عليه عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي وقال له يا أمير المؤمنين أخاف أن تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع واتهره بالسيف فقال المنصور هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة— وسار الأوزاعي في نصحه ووعظه وزجره لأمر المؤمنين وإنذاره

فلولا الهداة والمصلحون في الدول العربية والمحارون والحكماء في الدول الغربية لغلب العزيز أذلها وأقلّ الكثير أقلها وأضحت طعمة للاكلين فريسة للقانصين فأسرع إليها الفناء وحققت عليها كلمة العذاب والشقاء— قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

فاصلاح الأمم يتوقف على توخي أحسن المثل التي ينتهجها

قادة الشعوب وانتهاج أوضاع المسالك التي يسلكها المصلحون
 ليسيروا مع الأمم سير الأستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من
 أبوابها وليخاطبوها بلسانها - وكما أن الأستاذ يحدث قلب
 التلميذ بما يشاء كل طباعه ويناسب أطوار استعداده فهكذا
 قادة الأمم مع الشعوب - هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله
 تبديلا - ومن غيرها فقد حاد عن الصراط المستقيم

٧٥

﴿ هل نحن في عصر المدنية ﴾

التمدين تمصير الأ مصار وتنظيم المدن وعداد مرافق الحياة
 فيها لتتال حظها من أصول حياة دهرها - وللمدنية خمسة
 مطالب «الغذاء» لصلاح الجسد و«الدواء» لاتمامه و«الثوب»
 لوقايتة مما يحيط به من الجو و« المسكن» ليقية من عاديات
 الوحوش واللصوص و« السلاح» لحفظه من عدو من جنسه
 يفاجئه - وتحوط هذه المطالب خمس دوائر
 الأولى لأركان المدنية الأربعة الأ مارة والزراعة
 والتجارة والصناعة

الثانية للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر

الثالثة للطبيعات وهى المعدن والنبات والحيوان والانسان
ثم القوانين العامة والكيمياء - ثم الضوء ونواميسه - ثم
الحرارة وقوانينها

الرابعة للبخار ونقله الأجسام وادارته الآلات واحداثه
الضوء ونقله البريد

الخامسة للكهرباء وتلغرافها وادارتها آلات أعمال الغذاء
والملبس والمسكن واضاءتها وحرارتها - فهذه هى الدوائر
الخمس التى أحاطت بالانسان وخدمت غذاءه ودواءه وتوبه
وداره وحصنه فرجعت الحياة وان تعاضم شأنها وكبر شكلها
واتسع نطاقها الى كسرة خبز وثوب وأمن

وليس التمددين اشباع البطن وستر الجسم والأمن على
النفس وما أحاط بها - كلا - فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى
المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم - وكأن هناك تسابقا بين
شهوات الأجسام وقوى العقول فكما يتسابق ذوو الشهوات
الى نارها يسبق الحكماء الى نورها - ولئن كان للأجسام غذاؤها
فالعقول بهاؤها وروحها . ولئن بقى بها الجسم ودوويت بها
عقله فللارواح فرح بمعرفتها وبهجة باذراكها - وهذه الأجسام

اذ خلقت عاجزة دبرتها العقول وجعل احتياجها سبيلا لاستنباط
الحيل والدقائق والنظر في الكثائف واللطائف واستخراج
الدقائق حتى تعرج الأرواح الى عالمها وتدرك أسرار ما أحاط
بها حتى سارع الانسان اليوم الى درس الطائر في حركاته
وسكناته فيسكن معه في جنته العالية التي لا تسمع فيها لاغية
أن المدنية ترفع الأخلاق بنسبة واحدة ترفع الخير والشر
معاً فان غلب شرها خيرا آلت بهم الى الدمار كدولة الرومان
وان غلب الخير الشربقيات الى أجل معلوم مادام القلب موجودا
فاذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع الفساد
وانما يبقى ثابتاً الى أجله فلا دهشة من سماع فساد الأخلاق
والغش والخيانة وعموم السكر في أمة عظمت مدنيته لأن ذلك
قليل في جانب شامخ عزها ورفيع مجدها فالبحر لا ينجسه شيء
ومتى زاد الضرر قلب المنافع آلت الأمة للخراب كمدنية
المصريين المبنية على شفا جرف هار — قال هنري الفرنسي
(اصحب الحمر معك لتبيد الجنس الشرقى) وذلك لأن القوم
علموا أن الشرقى غر ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من
العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المبكيات المحزونات

وبالجملة المدنية هي ترقى الأفكار الداعية لتحسن الأخلاق والاحسان في المعاملات — والمراد بترقى الأفكار انتقالها من المدارك الشهوانية الى المدارك الروحانية مدارك الضمير الحر والنفس الطيبة المهذبة وذلك لأن الانسان خلق وله نفسان واحدة حيوانية والأخرى روحانية — فالأولى هي الأمانة بالسوء الداعية الى الشهوات — والثانية هي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر — والأصل في الانسان أن تغلب عليه الأولى لمعاشرته للناس ومعاملته اياهم فتتملكه الرذائل ولكن اذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل وصار بعد أن كان لا يسير الا حيث يقوده طمعه وشرهه يسير حيث يرى الفضيلة فيتبعها

أما ما يظنه الناس أن المدنية والتمدن حسن الثياب والهيئة جميل السمات أو من يأكل أطيب الطعام وأشبهه ويلبس أحسن الملابس وأبهأها — أو الاسراف في الشهوات واللذات أو عدم المحافظة على الدين والشريعة أو التحايل على جمع المال وتثمينه أو غير ذلك مما تلوكه ألسنة المغترين بطواهر الألفاظ وهم عن معانيها غافلون فبعيد كل ذلك عن التمدن والمدنية الحققة

٧٦

هل الأفيدي اجبار الحكومة كل شاب على الجندية
 أو اطلاق سراح الموسر الذي يفدى نفسه وأسر المعسر
 معلوم أن الانسان لا يكمل حاله الا بالشجاعة والعدل
 والعفة والعلم فهذه أمهات الأخلاق ووجبات السعادات
 ورضوان الحياة بل هي الأساطين التي عليها بنيت الاستقامة
 والكمال والمدنية.

فالشجاعة هي القوام الأكبر للحياة ولا قيمة للعلم
 بلا قوّة تنفذه

في الجين عار وفي الاقدام مكرمة * والمرء بالجبن لا ينجو من العطب
 هذه الأمة العربية افتتحت هذه البلاد بحد السيف
 والسنان والسلم والصلح فربعوا في دستها أيام الدولة الأموية
 والعباسية والفاطمية — ولما ضرب المماليك مصر ضربات الظلم
 والاستبداد وبطشوا بطشهم فيها وتحكموا على النفوس وأكلوا
 اللحم وأذابوا الشحم وأهلكوا الحرث والنسل ظل القوم في
 ديارهم صرعى من الجور والعسف لا سلاح معهم فنسوا من شدة
 الفرع الأ أكبر حظهم من الجندية مدّة من الزمان وهم يتقلبون

على جمر الجهالة ويسبحون في بحار الضلالة ويرصفون في قيود
العبودية والاسترقاق—حتى اذا جاء «محمد على باشا الكبير»
فخرهم وأعتقهم وأطلق سراحهم وعلمهم العلم المنقود ودرهمهم
على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألقوا رحلة
الشتاء والصيف فيوما تراهم للروس مهاجمين وآخر في الحجاز
يقاتلون الوهابيين وطورا في بلاد الروم يقاتلون ومرة في
اليونان وكريد يتبارزون وآونة على الشام يزحفون— وكان
العلماء الأقدمون يأمرسون تلاميذهم بتعلم هذا الفن الجليل
فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة
فتقاذفها الأمواج لتكمل نفسه بالشجاعة— وبعضهم كان يقف
في المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعود عليها— واذا كانت هذه
الفضيلة من أشرف الخلال وأعلاها فلماذا يفر النشء المصري
من التحلي بها— واشتهر بين العامة أنهم يؤخذون ظلما وزورا
وكأنهم يساقون الى السجون

ليت شعري ما هذا الجهل والضلال المين الذي أضرب
بالأمة وأسقطها في يد الاحتلال— ان هذا لشيء عجاب كيف
يسوغ للأغنياء الجمع بين تقيضين اشترىوا بمالهم لأبناءهم العلوم

واشتروا بمالهم الجبن حيث يفدى الواحد ابنه بدفع البدل
 كأنهم يحذرون أن يتكمل الأبناء بفن الشجاعة
 وكذا الفقير جمع بين تقيضين معكوسين الجهل والشجاعة
 أليس من العدل أن يعرف الناس قاطبة ما القصد من
 نظام الجندية ثم لا يصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم
 الفداء - كلا - فان كلا المدرستين (مدرسة الشجاعة ومدرسة
 العلم) تهذيب وتدريب لا تعذيب وتعريب وابعاد وتخريب
 وانما هو درس وتعليم . غايتها خدمة الوطن الكريم - فاذا
 الأجدر أن يحشر الناس في صعيد واحد لا تفرقة بين غنى
 وفقير والا فما معنى الفدية وأى وجه لها الا الدلالة على الجهل
 المطبق وعدم ادراك الفضيلة وما الميزة بين الصنفين وكيف
 الفرار من الفضيلة - على أنها ان كانت فضيلة أفلا تم النوعين
 وان كانت رذيلة أفلا تشمل الطائفتين حتى يكون العدل مسوياً
 بين الطرفين - فاذا المسئولية واقعة على عاتق الحكومة المصرية
 التي لا تجعل الجندية اجبارية عامة لكل فرد من أفراد الرعية
 وتصلح شأنها حتى لا تكون في أعين الأهالي قذى بحيث
 يقلل مدة خدمتها وتحسن المعاملة بين الجنود في المأكل والمشرب

والرياضة وترخص لهم اجازات أسبوعية وسنوية يقضونها بين أهاليهم وأقاربهم وتمهد لهم سبل الراحة والرغبة في هذه الفضيلة الجليلة حتى تهرع اليها الشبان وتطرق أبوابها كما طرقت اليوم أبواب المدارس العلمية التلاميذ واكتظت بهم حتى ضاقت عليهم بما رحبت - وكانت قبلا المدارس خاوية على عروشها لا تؤمها التلاميذ الا كرهاً ووراءهم أمهاتهم تسخم الوجود وتلطم الحدود كما يفعل اليوم بمن أخذ جندياً - فاللهم قرب الزمن الذي تتساوى فيه مدرسة الشجاعة بمدرسة العلوم والكل عليهما يتهافون وفي فضيلتهما فليتنافس المتنافسون

٧٧

﴿ مدارج الانسان في معترك الحياة ﴾

الانسان في حال نشأته ودور طفوليته أضعف أنواع الحيوان قاصراً عاجزاً أهولوا يترصده الحيوان المفترس بمخالب وناب . وتكتنفه الطبيعة بمصائب وأوصاب . فيدب محاطاً بمكاره الطبيعة الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة ثم يشب فيقع في قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون منذ يدب إلى أن يشب عرضة للمهالك بين عاملين قوين أسهلها عليه

أقتلها له - وليس هذا حال الانسان باعتبار الطنولية فقط بل هو حاله أيضاً باعتبار أول وجوده على الأرض اذ أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان خلقه سليم الفطرة ساذجا ليس عنده من القوة الطبيعية والالهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع بها الآفات ويصد الهجمات اللهم الا مسحة من العقل الفطري كانت لا تغني عنه من الحياة شيئا ولكن الله سبحانه وتعالى أودع في خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمن النار في الزناد - فكما أن هذه لا تظهر الا بالقدح كذلك تلك الأسرار « وهي مدارك العقول الفائقة » لا تظهر الا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التي لا تتناهى في جانب العقل البشري - ومن ثم كان بدء صعوده من حضيض البهيمية الى أوج البشرية بالطرق التدريجية والالهامات العقلية التي تترقى بترقى الحاجة وتنمو بنمو وسائل التربية والتعليم ولا ريب أن الانسان يحتاج في تدير المعيشة الى وسائط كثيرة أهمها التعاون والاجتماع واحتياجه الى مساعدة من عداه من بني جنسه في تدير شؤون الحياة البشرية فكان ذلك من بواعت انضمامه في أول حلقة من حلقات الاجتماع

وقصارى القول أن الانسان بعد أن كان يسكن الغابات الكثيفة ويأوى الى ظل الأشجار الغضة ويأكل من نبات الأرض ويهيم من الحيرة فى كل واد دخل فى أول طور من أطوار المدنية وهو الاجتماع ثم أخذ يبنى لنفسه الأكواخ الحقيرة وينحت فى الجبال بيوتا - ومنها الكهوف الصناعية التى ترى فى كثير من الجبال اتقاء عوادم الطبيعة ودفعاً لمخاطر الوحدة ثم ما زال يتسع أمامه مجال الفكر وتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتى تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فما عنده حب التعالى بمظاهر الاجتماع والتغالب فى ميدان المظاهرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع فى المدن طلباً لرغد العيش وهرباً من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصر الأمصار وشيد فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور وكان فى غضون ذلك يجول بفكره فى مناحى الطبيعة باحثاً عما أودع الله فيها من الأسرار وأوجد من المنافع فى المواليد الثلاث ليسخر منها المصلحته ما شاء فيما شاء - ومن نعم الله سبحانه وتعالى ورأفته بهذا النوع الانسانى أن جعل له من العقل سلطاناً اذا أطلقه من وثاق

الأوهام تناول به أسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من
أعماق الأرض بلا حرج عليه لينتفع بها في الحياة الدنيا فيزرع
ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويتدع ويتفياً ظلل العمران
ويستمد مادة الحياة الطيبة مع توالي الأزمان من خلال المتاعب
والمشاق التي يتكبدتها في استجلاء الحقائق وإطلاق الفكر
في أطراف الوجود. يتناول به من أسراره قوة تدراً عنه غوائل
الضعف الطبيعي الذي فطر عليه وتدفع طوارئ الطبيعة وأخطارها
التي تكتنفه — وقد جدّ الانسان وراء هذه الغاية فوصل
وفعل في الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان
في كل زمان ومكان ولكن توصل الى ذلك تدريجاً بأعمال
الفكر والاسترشاد الى طرق السعادة بنور العلم الذي استمده
من الشرائع الآلهية واهتدى به الى تطهير النفس البشرية من
أدران البهيمية فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه حساباً
يهديه نوره الى الصراط المستقيم

وبالجملة خلق الله الانسان الأول آدم أبا النوع الانساني
الذي قال تعالى فيه للملائكة (انى جاعل فى الأرض خليفة
قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

بحمدك وتقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)

ولقد ثبت بالأدلة القطعية أن آدم كان راقياً لأن الخالق جل شأنه علمه كل ما يلزمه لحياته ولكننا الأيام وتقلباتها وحوادثها أنست أولاده مدنية أبيهم خصوصاً لما انقرض معظمهم فى حادثة الطوفان وتشتت من بقى منهم بعد رسوسفينة نوح على الجودى يطلب أقل عيش فى الأرض والذين تناسلوا من هذا الفريق درجوا على سنة آباءهم لا مقرر لهم ولا ماوى الا الأمكنة التى يجدون فيها الأعشاب والنباتات

فالانسان فى تلك الأزمان البعيدة كان يسكن الأكواخ الحقيرة والمغارات ويتخذ كل أدواته من الأحجار لجهله بما فى الأرض من المعادن التى لم تخلق الا له ولم يكن له عمل سوى استعدادة للملاقة أعدائه الحيوانات الضارية ومكث على هذه

الحال الأزمان الطويلة التي سماها علماء التاريخ بالعصر الحجري أو البربري أو عصر الهمجية ولكن لما كان بطبيعته قابلاً للرقى لوجود العقل فيه والحواس كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) نظر إلى نفسه وتحسرو وقال ما أتعسنى حظاً كيف يكون للحيوان سلطان عليّ وأنا أعمل وأختار ولي قوة علي الاختراع — وأنتبه من ذلك الوقت ودقق البحث حتى وصل إلى القصدير الذي لم يغنه شيئاً عن استعمال الأحجار لأنها أقوى منه وأشد صلابة ولا تغير حرارة الشمس أشكالها كما تغير أشكاله فجدد البحث حتى وصل إلى النحاس الذي خطر بباله أن يخلطه بالقصدير فحصل على البرنز الذي كان مبدأ سعادة له وافتتاح عصر جديد سماه علماء التاريخ بالعصر البرنزي

ولكن هذه الاكتشافات كانت سبباً عظيماً في استمراره في البحث حتى اكتشف الحديد الذي تم سعادته واعتبر فاتحة عصر جديد سماه أهل التاريخ بالعصر الحديدي ومن هنا ابتدأت المدنية وانتشر الإنسان من وهدة كانت بعيدة الغور وقويت مداركه ووجدت عنده من التجارب حقيقة سماها العلم

وفرع لها فروعاً عديدة وأغصاناً كانت ثمارها نجاحه وفلاحه
فكانت تلك الحقيقة أكبر سبب في تمدينه إذ بها ذلل العقبات
التي كانت أمامه واتخذ له موطناً يدافع عنه وعرف كيف
يكشف وكيف يحترق البحار والمحيطات وكيف يوجد الروابط
بين البلاد والممالك وكيف وكيف... الخ مما لم يتضح له إلا
بعد الآلاف من السنين

فالإنسان الآن بفضل العلوم وانتشارها ليس ذلك الذي
كان لا يعاشر غير الوحش بل هو العالم الراقى المدرك واجباته
العارف بمقدار حياته

٧٨

﴿ مدينة الإسلام ﴾

الإسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه
على ركن لسعادة البشر ركين ذلك أن عروج الأمم على معارج
الحق الأعلى وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأعلى وصعود
الأجيال على مراقى الفضائل وإشراف طوائف الإنسان على
دقائق الحقائق ونبيلهم السعادة الأبدية وفوزهم بالسيادة
الحقيقية كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها

منها صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام
 فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول
 بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر بل أن
 خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد
 ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم
 وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب
 له دون الحقائق ستاراً لا يخرق وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام
 على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف
 والفرع مما لا يفرع ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين
 رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم
 ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له في الاخافة وبهذا
 يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة - ثم يكون
 العوبة في أيدي المحتالين وصيداً في حبال الماكرين والدجالين
 وأول ركن بني عليه الاسلام صقل العقول بصقال التوحيد
 وتطهيرها من لوث الأوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله
 تبارك وتعالى منفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق
 الفواعل والأفعال وان من الواجب طرح كل ظن في انسان

أو جاد علويا كان أو سفليا بأن له في الكون أثرا بنفع أو ضرر
أو اعطاء أو منع أو اعزاز أو اذلال — ومن المفروض خلع
كل عقيدة بأن الله جل شأنه ظهر أو يظهر بلباس البشر أو
حيوان آخر لصلاح أو فساد أو أن تلك الذات المقدسة نالت
في بعض الأطوار شديد الآلام وأليم الأسقام لمصلحة أحد
من الخلق فضلا عما يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها
كافية في أعماء العقول وطمس نورها — وأغلب الأديان
الموجودة لا يخلو من هذه الأوهام — ان شئت فاضرب
بنظرك الى ديانة (برهما) في الهند — ودين (بوذه) في الصين —
ودين (زرادشت) في بقايا الفارسيين وكثير من أديان آخر
ومنها أن تكون عقائد الأئمة وهي أول رقم ينقش في
ألواح نفوسها مبنية علي البراهين القويمة والأدلة الصحيحة
وأن تتحامي عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها وتترفع عن
الاكتفاء بتقليد الآباء فيها فان معتقداً لاحت العقيدة في
مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمناً
والآخذ في عقائده بالظن ينصب عقله علي متابعة الظنون
والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها

يلتقى مع سابقه في مضارب الوهم وفجاج الظن وأوائك
المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعودت
ادراكه فلا يذهبون مذهب الفكر ولا يسلكون طرائق
النظر وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم المغاورة بالتدريج ثم تكاثرت
عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرّة
فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر
بهم البخت وبئس المآل ما لهم فإن كان لا بد من الاستئناس
لما نقول بقول أوروبي فهذا (كبزوا) الفرنسي صاوب
تاريخ التمدن الأوروبي قال (ان من أشدّ الأسباب أثرًا في
سوق أوروبا الى تمدنها ظهور طائفة في تلك البلاد قالت ان
لنا حقًا في البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها)
ولو كان ديننا هو الدين المسيحي وعارضها كثير من رؤساء
الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين
على التقليد - فلما أخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت أفكارها
نصلت عقول الأوروبيين من علة المغاورة والبلادة ثم تحركت
في مداراتها الفكرية وترددت في المجالات العلمية وكدحت
لاستجصال أسباب المدنية

الاسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقرير المعتقدين
بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيث الخاطبين في عشواء
العماية والقدح في سيرتهم — هذا الدين يطالب المتدينين أن
يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل
وكلما حاكم حاكم الى العقل تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج
العقل والبصيرة وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال
العقل وانطفاء نور البصيرة ويرفع أركان الحجة لأصول من
العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة وكلما جاء بحكم شرعى
أتبعه بيان الغاية منه في الأغلب وقلما يوجد من الأديان
ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية وأظن غير المسلمين يعترفون
لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة

ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل
الكثرة في الواحد أو الوحدة في الكثير وأن الواحد يكون
أكثر والكثير يكون واحداً مما تنبذه بداهة العقل فلما
أنكر العقل أصل هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل
فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدى لدليل
عليه ولا مرشد إليه يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل

ونبذ أحكامه حتى يمكن الايمان بهذا الأصل - مع أن العقل مشرق الايمان فمن تحول عنه فقد دابر الايمان - وأن فرقابين ما لا يصل العقل الى كنهه لكنه يعرفه بأثره وبين ما يحكم العقل باستحالته فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده ويقف دون سرادقات عزته وأما الثاني فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقود فكيف يصدق وهو قاطع بعدمه

*
* *

الاسلام أباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلًا وشربًا ولباسًا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارًا لنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبه تعثر بها اللهم الا حقًا محترمًا تصطدم به

أنهى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة

في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليها الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم «نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحة قليلة والأزواد قليلة»
علا صوت الاسلام على وساس الطعام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام
أعلام الكون ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون
والى طريق البحث هادون

صرح في وصف أهل الحق بأنهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بتمييز ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوا كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون — صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الا بآء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل

الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن
السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمى لعقول
على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق في
التمييز والقطرة سيان • بل للاحق من علم الأحوال الماضية
واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في
الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من
تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب
السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما
اقترفه سلفهم (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان
عاقبة المكذابين)

وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي
وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب -- عاب أرباب الأديان
في اقتنائهم أثر آباءهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم
وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أنا وجدنا آباءنا على أمة
وأنا على آثارهم مهتدون) فأطلق بهذا سلطان العقل من كل
ما كان فيه قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده إلى
مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع لله وحده

والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل في منطقة حدودها ولا
نهاية للنظر تمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان
طلما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر
وبهما كملت له انسانيته واستعدّ لأن يبلغ من السعادة ما هيأه
الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين
من متأخريهم أن نشأة المدنية في أوروبا انما قامت على هذين
الأصلين فلم تهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث
والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقاً
في تصريف اختيارهم وفي طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل
اليهم هذا النوع من العرفان الا في الجيل السادس عشر من
ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من
آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان

*
* *

الاسلام رفع بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء
الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية
استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضنا به على

كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة فقرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوءات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون) — (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

*
* *

الاسلام جاء والناس شيع في الدين وكانوا الا قليلا في جانب عن اليقين يتنابدون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فأنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بان دين الله في جميع الأزمان وعلى

ألسن جميع الأنبياء واحد قال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) — (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) — (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) — (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) — (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فن يقبل منه) وبالجملة لقد حكي التاريخ وهو اصدق حاك أحوال الأمم في الأزمنة الغابرة وقرراً أنهم كانوا على درجة كبيرة من الهمجية ولم يكن ذلك خاصاً بأمة ولا قبيلة بل كانت كل البلاد في هرج ومرج لا يهدأ للناس بال ولا يطمئن لهم فؤاد وكانت الحكومات منابع الظلم ومهاد الاستبداد. والافراد الحاكمون لا تهتمهم مصالح الرعايا ولا يلتفتون الا لأنفسهم وتنمية أموالهم وعظمتهم وكان الجهل والفقر لم يخلقا الا للمحكومين وحسبك

من ذلك ما كان عليه الفرس والروم مع أنهم كانوا أقدم
الناس في المدينة

وبينما هم في غفلتهم ساهوت وفي عظمتهم وكبريائهم
لاهون اذ ظهر نبأ الاسلام فأزعجهم وكدر صفو عيشهم لأنهم
رأوا أنه سيحط من عظمتهم ويغل من أيديهم بالرغم عنهم لأن
أساسه ايجاد المساواة بين أكبر كبير وأصغر صغير ويصعب
على أولئك أن يتنازلوا الى ذلك وقد علموا أنهم ان لم يرجعوا عن
غيرهم وضلالهم فستدرك الرعايا هذا المبدأ وتتألب عليهم وقد
كان ذلك فان الاسلام لما تقدم وكون معتنقوه الدول الكبيرة
في الشرق والغرب انتقلت تعاليمه بسرعة الى أهالي آسيا وأوروبا
فأدركوا المبادئ الدستورية وقاموا مرة واحدة يطالبون بها
حتى منحوها — هذا

ولما اكتشف أهل أوروبا بلاد أمريكا واستعمروها
انتقلت تلك التعاليم الى أهلها وكذلك الأمر في بلاد أستراليا
فمدينة الاسلام هي أساس ما نراه الآن من الحضارة
في كل أنحاء المعمورة ولا ينكر ذلك من له الملم بتاريخ ذلك
الدين المتين والافرنج أنفسهم يقرّون بفضل قوانينه ولقد أخذوا

عن العرب نماذج العمران وقدسوا فلاسفتهم كالعلامة ابن
سينا وابن رشد ونحوهما ممن نشروا العلوم والفلسفة
ولقد تواترت الأخبار ودلت الآثار على أن الناس في
القديم ما كان لهم عمل غير الاستعداد للحرب والنزال وما
كانت تلك النيران تنطفئ لحظة بل كلما كانت تخدم من جهة
تذكو من أخرى وكانت رحى القتال في دوران مستمر تطحن
فيه رقابا وتهرق دماء ولم يكن للأمن ذكر على ألسنتهم ولا
حقيقة تخطر ببالهم وبقيت تلك الحال آلافا من السنين الى أن
جاء الاسلام فأوقف الحروب لأنه علم الناس كيف يتحدون
وفتح لهم أبواب السعادة التي كانت مغلقة في وجوههم وأرشدهم
الى أن النجاح إنما يعدو بسرعة خلف محبة بعضهم لبعض فلما
وجد الأمن واطمأن كل علي ما يخاف عليه التفتوا الى البحث
عن خيرات الأرض فأخرجوا ما في باطنها وتفتنوا في المخترعات
حتى وصلوا الى درجة لم تكن تخطر للقدماء على بال وذلك
يسير على العقول ما دامت هادئة فان المرء اذا كان مكر
الخواطر مشتت الفكر فلا يمكنه أن ينظم بيته فضلا عن أن
يخترع هذا

والعرب بفضل ذلك الدين قد تركوا ما كان عليه من الكبرياء والعظمة فان العربي كان يأنف من أن يطأطأ رأسه حتى ليصلح شرك نعله كما كان الفقير منهم لا نصيب له من القول والعمل بجانب الغنى وكان كل واحد منهم له وجهة فلا تكاد القبيلتان تتحدان بل الشخصان ولكن الاسلام جاء بضد تلك الشيم القبيحة التي لا تلائم العمران فجمع الغنى والفقير في صف واحد في الصلاة وفي صعيد واحد في الحج وجعل للثاني نصيباً في مال الأول حتى يكون هناك انعطاف وميل — وبعد أن كانت كل قبيلة يحكمها حاكم مستقل يخالف حكام القبائل الأخرى والكل على خلاف جعلهم يخضعون لكلمة واحدة ويعملون بيد واحدة حتى صاروا أول الناس بعد في الحضارة والمدنية وقد كره العرب فيما لا يوافق الهيئة الاجتماعية من القتل والزنا والظلم والاسراف وعقوق الوالدين وشرب الخمر والتناز باللقاب والتفاخر بالأنسب وغير ذلك من أمهات المفاسد في القرآن (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً) — (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان

فاجتنبوه لعلكم تفلحون) — (ولا تنازروا بالألقاب بئس
الائم الفسوق بعد الايمان) وغير هذا من القوانين العظيمة
وكان الواد في العرب فاشياً فكانت البنت لا حظ لها في
الحياة فأنزل الله تعالى في ذلك (ولا تقتلوا أولادكم خشية
املاق نحن نرزقكم واياهم ان قتلهم كان خطأ كبيراً)
(واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) كل هذا مع الحث
على ما يرقى شأن الانسان ويجعله حياً بمعنى الكلمة كالا جتهاد
في طلب العلم والاقتصاد والسعي وراء الرزق ونحوها من أمهات
الفضائل قال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض
وابتغوا من فضل الله) — (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) ومن ذلك سرى
للعالم كله ما جعله يرفل في ثياب العز — وهماهي قوانين الاسلام
السياسية يعمل بها أهل الحضارة وقد أدرك بواسطتها كل
واحد ما له من الحقوق بعد أن كان مستعبداً لاحقه في أى
طلب ولا اختيار له في أى عمل ولم يكن الاسلام دين قسوة
وغلظة وانما كان دين لين وعطف وشفقة وهذا هو الدين الذى
جعل نفوس معتنقيه تميل اليه وتشفق به قال تعالى لرسوله

عليه الصلاة والسلام (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا
من حولك) ولم يكن من قوانينه التكليف بما فوق الطاقة بل
كلف القادرين فقط الذين يمكنهم تأدية العمل من غير أن
يلحقهم منه ضرر قال تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)
وقال (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال (يريد
الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وفي الحديث « بعثت
بالحنيفية السمحاء » وهو دين التسامح لأنه مبني على الاتحاد
والألفة وهذا من أكبر الداعيات اليهما

ولو رجع الانسان الى تاريخ الذين صدقوا في الدين
واعتنقوه بحق وولوا الرياسة الكبرى كالخلفاء الراشدين ومن
عدل بعدهم لوجد ما يحق له أن يفتخر به وليس بغريب فان
الدين هو كذلك غير أننا نعده مما يفتخر به لقلته عندنا الآن
ولقد كانت أفقر امرأة تدخل على أمير المؤمنين وتشتكى
بكل جراءة ما ألم بها من ظلم أو فقر لعلمها أن العدل يمنع
أصحابه من الطغيان

ومما يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه
خرج ذات يوم من المسجد ومعه أحد أصحابه واذا بامرأة علي

ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام . ثم قالت
 رويدك يا عمر حتى أكلمك كلامات قليلة فقال لها قولي فقالت
 عهدى بك وأنت تسمى عميرا فى سوق عكاظ تصارع الصبيان
 فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب حتى سميت
 أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية واعلم أن من خاف الموت
 خشى الفوت . فبكى عمر رضى الله عنه فقال لها صاحبه كفى
 فقد أبكيت أمير المؤمنين . فقال عمر دعها أما تعرفها قال لا
 يا أمير المؤمنين فقال له هذه بنت حكيم التى نزل فى حقها
 (قد سمع الله قول التى تجادل فى زوجها وتشتكى الى الله
 والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) اه وتلك هى الحرية
 التى نسمع بها الآن وما عندنا منها شىء

فان الحرية هى أن يتمتع كل فرد بما يبيح له الشرع أن
 يتمتع به وليست تضييع الأموال فى الميسر والخمر ونحوها فبذا
 لو رجع ذلك الوقت الذى كان يدرك فيه كل امرئ حقه
 وحبذا لو أصلحنا من أنفسنا وقومنا من اعوجاجنا الذى أودى
 بنا مع علمنا أن ديننا هو الذى يرفعنا ويجعلنا فوق الاعناق وما
 مثلنا الآن الا كخادم أرسله سيده ليقضى له حاجة ودله علي

طريق يسير منها فخالفه وسلك غيرها فجاء با كيا يقول لقد
ضربت يا سيدى وأهانى فلان فقال له السيد معنا ألم أدلك
على سبيل كنت تأمن على نفسك من الأخطار لو سلكتها
فتحن كذلك يعاقبنا الله بتسليط غيرنا علينا جزاء تركنا
الطرق التي وضحها لنا المولى رحمة بنا

ونحن في كل الأزمنة والأمكنة نفسح لغيرنا من أهل
الأديان الأخرى ونوسع لهم صدورنا فنعاملهم ونجالسهم
ونعينهم على نوائبهم ونجالسهم في أفراحهم وأحزانهم ونسليهم
إذا حلت بهم نازلة أو ألمت بهم ملة وليس هذا بغريب علينا
ولا مدهش لنا وان أدهش غيرنا فان هذا هو ديننا الذي بنيت
قوانينه على التسامح فانه أوصى بأهل الذمة خيراً وجعلهم معنا
في المعاملات سواء لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكذا الذين طلبوا
منا أن نعطيهم الأمان من حرّم علينا دماءهم وأموالهم وكل شيء
يضرّ بهم وخصوصاً أهل الكتاب فانه أحل لنا الزواج بنسائهم
وأكل ذبيحتهم بقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل
لكم وطعامكم حل لهم) - (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات
من الذين أوتوا الكتاب) وقد أوصى بهم حتى في الجدل

لاظهار الحقائق اذ قال (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) — (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) فما أحسن هذه الدعوة وأرقها على القلوب وأخفها على الأسماع وهكذا كانت سنة المسلمين من قبلنا ومعاملتهم لمن خالفونا في وجهة الدين حتى في الحروب اذ كانت الأوامر تلقى على القواد هكذا « لا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تفلحوا شجراً مشراً »

وفي ارشادات أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه لبعض قواده (وستمرّون على أقوام في الصوامع رهبان ترهبوا لله فدعوهم وما انفردوا له فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوه) وحسبك ما هو معلوم من أن المسلمين كانوا يكتفون بأخذ الجزية ممن فتحوا بلادهم دون أن يتعرّضوا للأديان مسلمين دخولهم في الدين لتوفيق الله جل شأنه

ولا أظن دارس التاريخ يجمل ما عمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل بيت المقدس الذين طلبوه بنفسه فسعى اليهم وأمنهم على كل شيء ولو كان هذا الدين ضيق الصدر

لحق على كل هذه الأقوام التي ترتزق من بلاده وتعيش كما تريد وكان السلطان محمد الفاتح ترك الأروام وهم حائرون في البحار يوم فتح مدينة القسطنطينية ولم يسترجعهم ويعطهم الامتيازات التي يعا كسون بها أمير المؤمنين الان - فمأوسع الاسلام صدرا وأكثره ميلا الى السعادة - والاسلام صالح لكل زمان ومكان فان أساسه الألفة والاتحاد. وهذا المبدأ مبدأ مساواة من ورائه كل خير وسعادة - والعالم من نشأته يسعى وراء ذلك وان دينا من تعاليمه حفظ الحقوق ومنع الظلم وسفك الدماء لأولى أن يجب ويعض عليه بالنواجذ

وهل الدين الذي يعلم الناس كيف يعيشون ويأمرهم بالعمل ويحذرهم من نتائج الكسل ويحثهم على الاقتصاد والنظافة والسير الاكتشاف وتربية الأ ولاد والتعلم وترك اللهو واللغو اللذين يضيعان الأوقات النفيسة ويفرس فيهم جميل الفضائل ويوجد فيهم الغيرة على أعراضهم وبلادهم يتهم بالتقصير ويرى من اعتقه بالذائل منسوبة اليه مع أنه برىء من أن يدعو الناس الى الرذيلة

وهل الفضائل التي ذكرت وأمثالها كانت مطلوبة في

الأزمان السالفة فقط — أو كانت فضائل والا ان صارت رذائل

كلا فهى هى لم تتغير ولم تزل كل الناس تعدو وخطفها
 ورب قائل يقول ان قطع اليد فى عقاب السارق أو رجم
 الزانى أو جلده أو جلد شارب الخمر أو نحوها من عقوبات
 القانون الاسلامى أمور صعبة وحشية

فأقول له أظنك لا تنكر أن العقاب على جريمة اذا كان
 صارماً كان أذى الى الانزجار وأظن أن قطع يد واحد من
 بلد يكفى فى "تأديب كل أهل ذلك البلد من حيث السرقة وكذا
 الرجم والجلد — على أن العضو اذا أصابه مرض وخشى من
 تعديه الى بقية الأعضاء يجب استئصاله . ولا ريب فى أن الزنا
 اذا تسوهل فى عقاب مرتكبيه فشا وازداد الى حد لا يجد
 فيه كل واحد السرور الذى يوجد عادة من جهة الأولاد
 فضلاً عن أن ارتكاب أخف الضررين أمر واجب عقلاً كما
 هو واجب شرعاً

إذاً كل زمان يصلح له هذا الدين المتين لأنه يدعو الى
 الفضائل ولا يكرهها عقل وهو سهل (يريد الله بكم اليسر ولا
 يريد بكم العسر) ذلك وان التهمين لهذا الدين بالوحشية وعدم

الموافقة للأعصر الحاضرة يعملون به في معاملاتهم والقوانين الأساسية عندهم مستنبطة منه ولذا لم يظهروا إلا بعد أن غلبهم وهجم معتقوه على بلادهم واستعمروها فهم يعملون به لياخذوا مجداً قدرأوا أهله عليه في الأزمان السالفة والأعصر الخالية

٧٩

❖ من سعى رعى ومن نام لزم الأحلام ❖
كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات من ردد طرف البصيرة في نظام هذا الكون وما أبدعته به يد القدرة رأى أن الحكيم العليم قد ركب من أمور تنوعت صفاتها وتغيرت مظاهرها وهي على اختلافها ليست في الحقيقة إلا مادة واحدة عملت فيها عوامل القدرة فنصبتها على هذه الشرائط متنوعة الصفات مختلفة الأحوال حسبما تقتضيه طبيعة حياتها وحكمة وجودها لايسة من حلل النظام وحل الأحكام ما يشهد للحق جل شأنه بالتفرّد في صفات الكمال - ومن بديع حكمته أنه لما انتقل الانسان من الوحشية الى المدنية أثبت له ذلك الانتقال وجوب الأعمال . ونادته الجماعة حتى على التعامل . فمن لا يؤثر أن يعمل لا يا كل - فاندفع كل الى

الخبيط في مهنته والفوص في حرفته فذهب يبارك الجمادات
كل كثيف . ويباشر الصنائع كل خفيف ويمارس العلاقات
كل عليل منقطع ويتاجر بالبضائع كل كليل مبتدع . ويستقصى
الموجودات كل دقيق مخترع وهكذا قد انخرط الجميع في
الارتباط وغرق الكل في لجج الاختباط فكل طائر على
أجنحة الطيش ليقطع آفاق العيش فترى البعض يشكو الكلال
والبعض يندب الملل وهذا يتوجع في التعب وذلك يتفجع
من الوصب فأعين تبكي من العسر وأفواه تضحك من اليسر
كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن
فأبصار الجميع شاخصة الى غرض واحد وهو طريق العيش
والرزق فهم عليه متراحون بواسطة حرف ومهن وأسباب
مختلفة فالناس بين مزاحمة تقتضي تنافراً ومساعدة تقتضي ائتلافاً
وليسوا في ذلك سواء « فطرة الله التي فطر الناس عليها »

فالإنسان مسوق بحسب خلقته وما تقتضيه فطرته الى
الشغل والعمل ليمرن نفسه - ولذلك كان مضطراً طبعاً لأن
يتبصر زمن صحته فيما يكون اذا أصابه مرض يمنعه عن العمل
أو اعتراه وهن الشيخوخة وضعف القوى - ولهذا جاء الحديث

الشريف « تزود من صحتك لسقمك . ومن غناك لفقرك . ومن شبابك لهرمك » وبعبارة أخرى . سنة الله في خلقه هي أن ينظر الانسان في الحال الى ما يؤول اليه أمره في الاستقبال بل هذا النظر الذي يطلبه الوجود هو قاعدة سلامة الأوطان ورأس المدنية وال عمران — وهذا انما يدعو الانسان الى أن يدخر في يومه شيئاً من ثمرة عمله في هذا اليوم يستعمله في يوم ثان اذا طرأ عليه ما يمنعه من العمل فاذا كان اليوم الثاني كان غير محتاج لنفقته لسبق حصوله عليها فاذا لم يعرض عليه ما يمنعه من العمل أمكنه شغل هذا اليوم في تحسين آلات عمله أو مبادلة عمله ذلك اليوم بالآلة اللازمة له من غيره ليسهل عليه العمل بعد بما ادخره قبل — وهذا المدخر هو رأس المال فرأس المال اذاً هو جزء من ثمار أعمال سابقة يستعان به في الأعمال اللاحقة — وظاهر ان لكل انسان رأس مال هو ما ادخره فالنجار الذي يملك فارة وقدوماً ومنشاراً صاحب رأس مال . والحداد الذي يملك كيراً وسنداناً ومطرقة صاحب رأس مال . ومالك محراث للحرث أو مسطرين للبناء أو مقص للخياطة كل من هؤلاء صاحب رأس مال

وليس رأس المال قاصراً على النقود أو الأرزاق المستعملة
 في استنتاج أرزاق أخرى أو مؤونة أو آلة بل الإدراك رأس
 مال والأدب رأس مال والبرّ والخير رأس مال لمن يسديه
 وحب الوطن رأس مال بل جميع الأعمال فالسابق منها رأس
 مال في الحال والحالى رأس مال في الاستقبال

فالطفل الذى يتعلم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ
 وطنه وما كان عليه سلفه حاصل بتعلمه على رأس مال واذا
 تعلم بعد ذلك صنعة زاد رأس ماله وحينئذ لا يتوقف نجاحه
 فى المعيشة الا على أن يكون عاملاً صادقاً أميناً مؤدياً لواجباته
 والذى تعلم الشريعة وأحكامها حاصل على رأس مال يحصل
 له به الفائدة -- والاعتبار باستعمال رأس المال فى ارشاد الناس الى
 صالحهم واقامة العدل بين الناس ليقف كل عند حدّه فيحصل
 الأمن وتحفظ الحقوق -- والطبيب له رأس مال هو معلوماته
 التى اكتسبها بالتعلم وانتفاعه منه موقوف على حسن استعماله
 لهذه المعلومات - والسياسى الذى جرب الأمور واختبر
 الناس يملك رأس مال تختلف قيمته بحسب تجاربه ومعرفته
 لأحوال العالم وضروريات أمته . ورأس المال هذا يستعمله

السياسى أيضاً كما يستعمل التاجر رأس ماله فى الاستغلال فيبذل منه فى صورة مقترحات ما يعود على الأمة التى يشتغل من أجلها بزيادة ثروتها ورفعتها ورفاهيتها بنسبة رأس ماله

ولرأس المال من أى نوع كان أهمية عظمى فلاغنى لأمة عنه والا فكيف يكون الاستنتاج اذا أعوز النجار القدوم والحديد الكير والصناعة القوريقة والبناء المسطرين والخياط المقص والزراع المحراث وكيف تكون حالة الأمة اذا لم يحصل أفرادها على المعلومات الأدبية والدينية والعلمية والابتدائية التى أصبحت اليوم ضرورية لكل انسان وبها يتميز عن غيره من أنواع الحيوان

وكيف تكون حالة الأمة اذا لم تتخذ رجالا من أهلها أهل حزم وعزم ودراية سبروا الزمان وأهله يؤتم بهم فيحصل بين أفرادها التضافر والتعاون والتحابب ويكون للأمة بمقترحاتهم أميال معلومة تسعى لها اذا لا فوز لأمة اليوم فى معامع المزاحمة وميادين التمدين والحضارة الا اذا تمسكت بصفوة رجالها وأقدرهم وأمضاهم فى العمل — لا جرم ان الأمة تقهر وتخسر بقدر ما يعوزها من ذلك فالاستنتاج بدون هذه

الآلات ينقص نقصاً فاحشاً ولو أجهد الصانع أنفسهم في العمل
فلا تكون محصولات البلاد كافية لمعاش الأمة وحياتهم وتصبح
الأهالي فقراء ويعتريهم الاضمحلال والذلة والهوان
فان الثروة العمومية للأمة تتعلق كل التعلق بما ذكرناه
من رأس المال وبينها وبين حالة الأهالي ارتباط شديد فكما
صارت الأمة أكثر عدداً وأعز شأنًا زادت الثروة العمومية
بحسب نسبة حسابية يزيد عدد الأهالي تبعاً لنسبة هندسية فإذا
بلغت الثروة العمومية ثلاثة أمثال ما كانت عليه يبلغ عدد الأهالي
تسعة أمثال ما كانوا عليه — وكما أنه لا سبيل للحصول على
رأس مال الا بالعمل والادخار أى السعى والحرمان كذلك
لا بقاء له من غير مشاركة على العمل والادخار — فمن أنفق من
غير أن يكتب فأنما يبدد ثروته ويمدّ يده الى الفقر لأنه
يشتم ثمرة العمل السابق الذى استجمع بالسعى والحرمان فيكون
فى طريق الخراب طريق فيه يرى رأس ماله انتقل من يده
الى يد غيره أكثر منه نشاطاً وأحسن تبصراً

فالعمل المستجمع لا يحفظ الا بالعمل فكما أن الملابس
تنهك والمنازل تتشعب ان لم يتداركها العمل كذلك الأعمال

السابقة لا سبيل لحفظها والانتفاع بها الا اذا اُمدت بأعمال لاحقة — وكما أن المباني ان لم يتعهدا أصحابها بالأعمال تسقط وتهدم وتنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض فيتداركها آخرون بالعملة ويستجوعونها فتصبح بناء آخر جديداً ولكن في يد ملاك آخرين — ولذلك العمل المستجمع في السابق ان لم يكن مقرونا بالعمل في الحال تبدد وانتشر واستولى عليه آخرون فينتفعون به فلا يحفظ للتاجر رأس ماله في استقلاله الا بالعمل والمثابرة عليه والاضاع سعيه السابق وما قاساه في الحصول عليه من التعب والحربان — وكذلك الامر في رأس المال الذي يكون في صورة مقترحات لا تحصل جميع فوائدها الا اذا حصلت المثابرة لحق الهيئة الاجتماعية التي استعملت في صالحها هذه المقترحات خسارة عظيمة هي ضياع أعمال مدخرة ادخرها السلف لينتفع بها الخلف ولا سبيل لهذا الخلف أن يدخر خلفه رأس مال الا اذا زادت الأعمال التي ادخرها سلفه بعمله والمثابرة عليه — الآداب

٨٠

﴿ فوائد النور الصناعي المسمى بنور الغاز ﴾
 من غرائب نتائج الأفكار وعجائب مناهج الابتكار
 نور الغاز الذي انتشر في شوارع مصر انتشار الروح في الجسد
 حتى قالت له الظلماء لا أقيم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد
 فيا له من مخترع أرانا عجائب المقدور وأخرجنا من الظلمات
 الى النور فسبحان من قدر ما كان وما يكون ويخلق ما لا
 تعلمون — كيف لا وما تلا منشور نوره على جنود الظلماء
 حتى كتب الله عليهم الجلاء وما دبّت أرواح مواده في عروق
 مجاريه ديب السيل حتى كتبت أنامل مصايحه في صحيفة الجو
 (فمحونا آية الليل) وجعلنا آية الغاز مبصرة ولا أينعت على
 أغصان القوائم زهور أنواره حتى انتظمت في أجياد الطرق
 عقود أزهاره — كم قومت أسنة أشعته فخرقت حاة الظلماء
 ونظقت أسنة أنواره

كأن مشكاة نور الغاز حين بدت انسان عين لها بالناس أبصار
 وما كان يظن أن الأحجار تنتج أنوارا ولا أن الأماء تلد
 أقمارا وغير عجيب أن تنتج الأفكار شبيه هذه الأنوار فما

الفكر الا شعاع نور العقل وهالة نبراس الفضل واذا كانت
القوى الجسمية انما استكشفت الفحم الحجري لما بينهما من
المناسبة الجرمية ثم لم تعرف جميع مزياته بل استعملته في ضرورياته
فلا غرو أن اتجهت شمس الأفكار اليه فأباحت لنا من
مكنون الحكمة ما أعلمنا أن النور كائن في الظلمة ومن تأمل
في القوتين وقرن بين المزيتين علم أن الشيء انما ينتج مثله
والفرع انما يشبه أصله وثبت بالدليل لديه ان شبيه الشيء
منجذب اليه

٨١

﴿ وصف حقيقة الأزبكية ﴾

بينما أنا مشغول بالدرس اذ حصل فتور وملل في النفس
فحضرني أحد أصحابي وصديق أحبابي فقال هيا بنا نخرج الى
بعض المتزهات لتزيل من ذهنك ما به من الترهات وتسمع
هناك الألحان وضرب المثلث والمثان وتنزه الأَبصار وتقتطف
الأزهار فقلت له أي متنزه تعني لأكون على بصيرة في شأني
فقال (الأزبكية) أردت وهي التي عينت فانها جالبة الأفرح
سالبة الأتراح فأخذ هذا الحديث بمجامع فؤادي وجلب لي

النشاط من كل وادى فذهبنا نستبق اليها سراعا ومددنا في
 مسيرنا باعا فباعا وقد حل وقت الأصيل والجوّ صاف والنسيم
 عليل فدخلناها بسلام آمنين وحيثنا جميع الرياحين وتنت قامت
 أشجارها وتغنت قيان أطيارها والروض قد جلال للعين زبرجده
 والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده فما أعجب سندس
 رياضها وبياض حصبائها وخرير مياه فساقبها المرمرية كأنه
 معدن لؤلؤ سائل من أفواه فضية

والريح تجري رخاء فوق بحرتها وماؤها مطلق في زى مأسور
 قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير
 فهي جنة مفتحة الأبواب فيها كل شيء يجلو النظر ويذهب
 الصدا عن الأبواب فرؤيتها تسرّ النفوس الزكية وتزيد في
 العقول الذكية وضعها بهيج عجيب ورونقها بديع غريب من خرفة
 النواحي والأرجاء مزينة الجهات والأشحاء

زينت بالنقوش فهي عروس قد غدت من نقوشها في تمام
 فأجل طرف طرف عينك وانظر أوجها في جمالها القلب هائم
 وغصون المنى بروض الهاني أثمرت فاقطف زهور كرائم
 كأن الليل فيها نهار من كثرة الأضواء والأنوار محتفة بكواكب

من الغاز يستضيء بها كل من جاز وفيها قصور شاهقات
وأبنية شامخات

هكذا هكذا المباني فدعنا من مبان في الحسن لا تدخل العد
فوق أنهارها غصون عليها ثمر الحسن يانع ومنضد
لوراها رب الخورتق والايوان بل والسدير أصبح مكمد
كم بها للعيون مرأى بديع يجلب الأنس للذي راعه الصد
وقال آخر

بالأزبكية طابت لي مسرات ولد لي من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك ساجحة كأنها الزهر تحويها السموات
مدت إليها الروابي خضر سندسها وغررت في نواحيها حمامات
والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأذواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط من فضة واحمرار الورد طغنائات
وللنديم بها عيش تساعده على اغتنام دواعيه المسرات
يروح منها صريع العقل حين يرى على محاسنها دارت زجاجات
وللرفاق بها جمع ومفترق لما غدت وهي للندمان حانات
فقضينا تلك الليلة في هذه الحديقة الغناء في لهو وطرب وفرح
وسرور وصفاء نتجاذب الراح بالراح حتى مطلع فجر الصباح

٨٢

﴿ فوائد القضاء والمحاماة وأيهما أنفع للهيئة الاجتماعية ﴾
 ان القضاء من أرفع الأركان وأقوى دليل علي ذلك
 استتباب الراحة به والأمان فلو لم يكن قضاء لأخني علينا
 الزمان ولشبت نيران البغي والعدوان ولتحرّق أجسام الضعفاء
 وتمتع بين ذلك بالنهب الأقوياء وغير خاف ما يحدث من ذلك
 على كثر الدهور والأيام من اعدام الجنس البشري اذ أن روح
 القوة لا بد أن تكون لدى الناس بدرجات فمنهم قوى ومنهم
 أقوى ومنهم سباق غايات فيقلد الفريق السابق زمام السلطنة
 فيفتك بالكل

فلهذا كان المقصد من القضاء انما هو نصب قسطاس
 العدل في الأحكام واصدار الأمر باذاقة القاتل كأس الحمام
 مع عدم الميل الى شر الوسواس الخناس ومن غير رعاية الخاص
 والعام من الناس — ولا بد للقاضي أن يكون رجلاً حراً بالغاً
 عاقلاً سليم السمع والبصر واللسان متصفاً بصحة التمييز وقوة
 الجنان بعيداً عن السهو والغفلة مأموناً في حالي رضاه وغضبه
 عدلاً فلا يكون مرتكباً للكبائر ولا مصراً على الصغائر وأن

يكون عارفاً بالناسخ من الأحكام والمنسوخ والمقيد والمطلق
والخاص والعام قادراً على استنباط الأحكام بالقياس
وينبغي أن يكون شديداً من غير عنف ليناً من غير ضعف
مستشيراً أهل الحزم والاجتهاد وأن يكون مكانه مرتفعاً عن
محل الخصمين وأن يمحو الخصمين على أن يصلحاً ذات بينهما
فإن أيما أصدر الحكم عليهما وأبرمه وأن يمتنع من بيع وشراء
لنفسه ومن إقامة وكيل في ذلك معروف له في البلدة لثلاثيائه
الناس ويحرم عليه قبول الرشوة وإذا حضر خصمان فلا يستقبل
بالترحيب صاحب الشرف منهما بل يسوي بين الوضيع والرفيع
والجليل والحقير والغني والفقير والصغير والأمر — وينبغي
له أيضاً ألا يقضى بين الناس وهو متأثر بأي مؤثر خارجي
أو داخلي كالسرور الزائد والحزن الشديد والبرد المؤلم والحر
الذي يكاد يذهب بالعقل والجوع والعطش وغلبة الناس
والمحاماة مهنة شريفة وصناعة محتاج إليها في البلاد المتقدمة
ذات الشأن والثروة إذ معلوم أنه كلما زادت الثروة وتطلعت
الناس إلى الأزيد منها كثرت بينهم المنازعات فيحتاجون إلى
المحامى وهو وكيل في الحكم والمخاصمة يتكلم مكان المرء بما

بعجز عنه ويدافع عنه بما لم يعلمه ويشهد له بما لم يخطر على باله
 فيثبت الحق لأهله ويكفي موكله مؤونة التعب وينوب عنه
 في مخاصمته فترى المحاميين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه
 ويقوى جنانه استعداداً للنزال في ميادين المقال وتأهباً للدفاع
 في مواقف النزاع ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم ورفع
 التهمة والجرم - ويمارس هذه الصناعة اليوم كثير من الفضلاء
 جعلوا نصر الحق نصب أعينهم وان دخل فيها جماعة ليسوا من
 أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب لا يهمهم الا
 الحصول على الدرهم والدينار بأى وجه كان يدافعون عن القضية
 ولو علموا ضعف أساسها ويقدمون عليها ولو بدا لهم عدم
 نجاحها ويقفون ضد الحق وان كان جليلاً فأولئك ليسوا من
 المحاميين فى شىء وشقاء الأمة بهم أكثر من نعمها - فيجب
 على المحامى أن يكون عالماً بصناعته محيطاً بدقائقها وأن يكون
 ذا مروءة وشهامة وعفة ودين ونفس شريفة تنأى به عن الدنيا
 فصيح اللسان قوى الجنان مراعي المصالح العامة جاعلاً دأبه
 نصر الحق مرشداً للناس وهادياً لهم الى أقوم الطرق حتى
 يؤتمن على أمورهم ويوثق به فى شؤونهم وتملكه الأمة

قيادها وتعطيه زمامها

ومن يراعى حكمة المشرع
واحذر من النفاق والخيانة
تهدى الى الحق كما يهدى العلم
وهو الى التحقيق منك يهتدى
اذا شرحت ما تريد استمعوا
وصنه عن زور وعن بهتان
لمظهر الفساد في العباد

يا أيها الشهم المحامى الأملعى
عليك بالصدق وبالأمانة
فأنت خصم فى القضايا وحكم
وأنت للقاضى أجل مرشد
وأنت قاض والقضاة تبع
فانظر الى قولك سامى الشأن
واعلم بأن الله بالمرصاد

وبالجملة لا مشاحة فى أن للقضاء الفضل العظيم والنفع العميم
لجميع المخلوقات فهو الهيئة الحاكمة التى تردع الظالم عن ظلمه
وتوقف كل واحد عند حده فهو الذى ينقذ الأبرياء من مخالب
الأشقياء بل هو الدعامة الوطيدة التى يبنى عليها أساس العمران
ويتوقف عليها عمار البلدان واستتاب الأمان فى كل مكان وزمان
فاذن هو الأنفع للهيئة الاجتماعية ولا يمكن الاستغناء عنه
بحال من الأحوال بخلاف المحاماه فىمكن لرب الأمر أن
يتولاه والله الموفق لهداه

٨٣

﴿ فوائد الصدق ومضار الكذب ﴾

الصدق أفضل خصال الانسان وأوضح دلائل الايمان
وأجل مواهب الاحسان وأكمل نعم الملك الديان وهو دال
على جلاله القدر ونزاهة النفوس وعلو الهمة وصلاح الشيم
والشمائل وبه تمام المكارم والفضائل فمن تحلى به فقد أحرز
الفضل بكماله وجمع الخير في أقواله وأفعاله لأنه أوضح دلائل
العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب الى السلامة
وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة وقد وصف
المولى به نفسه حيث قال (ومن أصدق من الله قيلا) وقال
تعالى (يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال عليه السلام (عليكم
بالصدق فان الصدق يهدي الى البرّ وان البرّ يهدي الى الجنة)
وقال الشاعر

الصدق يمن ومنجاة ومحمدة فيه الكرامة والاقبال والشرف
وأما الكذب فهو أوضع كل خطاة وأجمعها للمذمة والخسة
وأكبرها ذلا في الدنيا وأكثرها خزيافي الآخرة وهو من
أعظم علامات النفاق وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق

والأعراق لا يؤتمن حامله علي حال ولا يصدق اذا قال — قال
 تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وقال
 عليه السلام (آفة الحديث الكذب — أعظم الخطايا اللسان
 الكذوب) وقال الشاعر

لا يكذب المرء الا من مهنته أو عادة السوء أو من قلة الأدب
 فالصدق أوجبه العمل وأكده الشرع وان كان لا يوجب
 نفعاً ولا يدفع ضرراً فمن اتخذه سنة كانت له أحسن جنة وبه
 يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستتر القبائح وأن
 الكذب رمد عين السيادة ومطفىء سراج المروءة والسعادة
 وموهن قوى الجلالة وسادّ طريق الاحسان ومحبط عمل
 الانسان وهادم بناء الايمان لأنه من الأفعال التي لا تقبلها
 العقول ولا تستجيزها الديانة — قال بعض الحكماء الكذب
 ملجأ الفجار وسبب العثار وقلما نجأ منه من اضطر الى الاعتذار
 فاذا من الحق على كل عاقل والوجب على كل فاضل أن
 يأخذ نفسه باجتنابه وينزّهها عن سقطته وارتيابه وأن يتحرى
 الصدق وان توقعه وأن يرفض الكذب وان نفعه
 وبالجملة ليس الكذب فضيلة من الفضائل ولا سياسة

من السياسات كما يفهم بعض المارقين المتملقين وليس مما يعلى
 قدر الانسان بل بالعكس يسقط المروءة ويذهب ماء الوجه
 ويدل على ضعف الايمان بالله تعالى فمن اعتاد الكذب اعتاد
 الناس ذمه وأكثروا من السخط عليه كذلك الله يمهله حتى
 اذا أمسكه لم يفلته فانه ظلم نفسه وظلم الناس بجانبه لاسيما اذا
 كان رئيسا من الرؤساء أو ممن يفهم فيهم الناس أنهم
 ناصحون أمناء — قال تعالى يصف حال الكذابين يوم تجزى
 كل نفس بما كسبت (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله
 وجوههم مسودة) وان الكذاب الذي صار الكذب خلقا
 له وليس ببعيد فان العادة طبع تان كما قرّر الفلاسفة لا إخال
 باله يصفو يوما لأنه بعيد عن الحقائق راكب سفينة قل أن
 تنجو به وممتط مطية قل أن تصل به الى حيث يريد — قال حكيم
 لي حيلة فيمن ينسب وليس في الكذاب حيلة
 من كان يخلق ما يقو ل فحيتي فيه قليلة

وفي الحديث الشريف (الكذب رأس كل خطيئة) ومما روى
 أن رجلا أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل في الاسلام
 فقال يا رسول الله انى أعمل من اخطايا ما لا يمكننى أن

أبتعد عنه فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام أتعاهدني علي
ترك الكذب قال نعم فلما ذهب الرجل وأراد أن يشرب الخمر
قال في نفسه أنا ان شربت الخمر وسألني رسول الله صلى الله
عليه وسلم عنه فبم أجيب وقد دخات في الدين ان أجبت بنعم
أقام علي الحد وان أجبت بلا فقد كذبت وقد عاهدني علي
ترك الكذب اذاً فلا تركته فتركه وكذا بقية الموبقات
وحسن اسلامه

ولكنما الصدق فضيلة حسنة لا يحصد غارسها في نفسه
الا اثماراً طيبة وخيرات جزيلة وقد حث الله تعالى عليه في
القرآن الكريم اذ قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين) وقال يمدح أهله (رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)
وقال عليه الصلاة والسلام (الصدق منجيك وان خفته والكذب
مرديك وان أمنتته)



﴿ أيهما الأتفع للهيئة الاجتماعية الطيب أم المعلم ﴾
ان المولى تبارك وتعالى خلق الانسان ضعيفا مجرداً من

العلوم والمعارف لا يميز بين الغث والتمين قابلاً لطوارئ العلل والأسقام تأنها في لجج الضلالات والأوهام يخبط في أموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء فمتى وصل ليد المعلمين العلماء سلبوا جهله وقادوه الى الهدى والاهتداء وأما الأطباء فيصلحون الأجسام من العلل والأسقام بالأدوية والعقاقير وكلاهما لا يسد مسد الآخر في التدابير

وحيث لا تفضيل بينهما والحاجة ماسة لكليهما وانما التفضيل بمقارنة نتائج أحدهما بالآخر وهي تقضى بتفضيل المعلم على الطبيب اذ هو مقوم للروح الحاكمة على البدن -- ولا ريب في أن الروح أشرف من الجسم وأعلى . كيف لا وأن الطبيب حسنة من حسنات المعلمين الأعلام فمقامهم بين العالم فوق كل مقام ولهم الشرف الأسمى والاحترام

٨٥

﴿ وصف الامتحان المنعقد بنظارة المعارف ﴾

في منتصف الساعة الثانية صباح يوم الاثنين الموافق
عشرين ربيع الآخر سنة ١٣٢١ دقت الأجراس فأندهشت
منا الحواس وتسلط في قلوبنا الوسواس من هول محفل

الامتحان وما أدراك ما الامتحان ان هو الا يوم لا ينفع فيه
 خل ولا رفيق ولا مال ولا صديق الا من أتاه بقلب عليم
 وذوق سليم (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى
 السمع وهو شهيد)

فدخلنا الى الخيام وكأننا سقينا كأس الحمام وأخذ كل
 منا مضجعه وعرف كل واحد نمرته وموضعه ورأينا لجانا
 معقودة وأبوابا مسدودة وقسوة سائلين وتشديد مراقبين
 وطلبة يهمسون ولا يتنفسون فاستولى علينا الشيطان وتحققت
 الأذهان من الحرمان واستوى الجاهل وذو العرفان والشجاع
 والجبان في هذا الميدان الا انى تسابقت تسابق الفرسان في
 المضمار وأعربت بكل لسان عن وجوه الاضمار وثبت قدمي
 وأطلقت لسان قلبي وحليت الطروس باللطائف وطرزته
 بالظرائف وكشفت نقاب العضلات وحللت صعاب المشكلات
 فله الحمد من قبل ومن بعد اذ رميت السهام لنيل المرام
 وأصبت المرمى في نهاية الامتحان الذي يكرم فيه المرء أو يهان

٨٦

﴿ التاريخ وفوائده ﴾

ليس بانسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره
ومن وعى أخبار من قبله أضاف عمراً الى عمره
التاريخ مرآة الأ عصر الغابرة والحاضرة به ينير العقل
ويحيي القلب ويلجم الارادة ويدعو الى المقاصد الحسنة وهو
نور الحق وحياة الذكر ومدبر الحياة ورسول القدم — فبه
معرفة أحوال الأمم وبلدانهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والأدبية
وصنائعهم وأنسابهم الى غير ذلك فيعتبر بأحوالهم الماضية والتتصح
بها قال تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مز دجر حكمة
بالغة فما تغني النذر) وقال عز شأنه (وكلاً نقص عليك من
أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة
وذكري للمؤمنين) وقال الامام علي لابنه الحسن رضي الله
تعالى عنهما (أي بني اني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي
فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم
حتى عدت كأحدتهم بل كأني بما انتهى الى من أمورهم قد
عمرت مع أولهم الى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره

ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت
لك جميله وصرفت عنك مجهوله)

وبالجملة التاريخ أجل العلوم قدراً وأجلاها في ظلمات الحيرة
بدرًا يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله وأشباهه فيحوز
المراتب العلية ويفوز بالمطالب السنينة اذ به تستنير الفكر والألباب
وتعلم حوادث الأزمنة والأحقاب وبمرآته ينكشف ما دونه
الأولون من العلوم والصنائع ويظهر ما خفي من أحوال القرون
السالفة وأخبار الأمصار الجامعة وما فيها من الآثار والمنافع
فهو أعظم مربٍ للانسان يدعو الى التحلى بالفضائل والتخلى
عن الرذائل فاذاً هو مدرسة عامة تسمو فيها العواطف وتشرف
الاحساسات التي عليها المعول في ارتقاء الأمة الى أرفع الدرجات
وهو الضامن الوحيد لتهديب النفوس وتوسيع المدارك

٨٧

﴿ علو الهمة من الايمان ﴾

المعالى وما أدراك ما المعالى — المعالى نداء الأحرار
ونبات الأفكار مطية العقلاء وتاج الملوك وشعار الأمراء
ومنار الفلاسفة والحكماء ومقصد الأدباء والشعراء فهى

غاية مطلبهم وجلّ غرضهم وكلهم يسرون اليها كالأُسود
الظافرة لا يرهبون خطراً ولا يقدمون حذراً
دعيني أجدّ السعى في طلب العلي فأبلغ سؤالي أو أموت فأعذرا
فللمعالي سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها الا المقدم
الجسور ولا يتغلب علي عقباتها الا الحرّ الصبور
لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلامن قدم الحذرا
والرجل الخامل ينظر الى المعالي من بعيد وهي بين يديه
أقرب من جبل الوريد

اذا ما تمنى المرء ادراك غاية عليه باهمال التقاعد والكسل
فلا تبلغ الغايات من دون همة ويحظى بها الانسان بالكد والعمل
وأول السبل الى درك المعالي هو الاقدام والتعب فالذي لا يقدم
على الأمر الخطر بكل عزمه لا يناله والذي لا يتعب في غايته
ولا يسقيها من ماء فكرته ان يدركها وكيف يرقى العلا
من طبعه الكسل

يا من يسامى العلا عفواً بلا تعب هيهات نيل العلي عفواً بلا نصب
فلقد جعل الله سبحانه الراحة في بساط التعب والمجد من شاحنات
المصاعب وتاج العلي علي هام المجدّ المجاهد — قال عليه السلام

(لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم) وقال الشاعر
 دعيني أنل ما لا ينال من العلي فسهل العلي في الصب والصعب في السهل
 تريدن ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل
 وقال آخر

ان كنت تطلب عز آفاد رع تبعاً أو فارض بالذل واختر راحة البدن
 ثم ان الاقدام والتعب لا يصلحان للنجاح الا اذا رافقتهما حكمة
 ودراية واستقامة وثبات وصبر وحسن أخلاق

فقل من جد في أمر يحاوله واستصحب الصبر الا فاز بالظفر
 فمن شمر عن ساق الجد وجد مفتاح الجد ومن عشق المعالي
 عائق العوالي ومن جلب در الكلام جلب در الكرام ومن
 ركب الأمل الواسع لم يستبعد المحل الشاسع
 وقصارى القول أن ترقى الأمم بعلو الهمم

كل له غرض يسمى ليذكره والحري يجعل ادراك العلي غرضه
 وقال آخر

ولم أر في صفات الناس عيباً كنعق القادرين على التمام



﴿ مزار الحرب وفوائد السلم ﴾

الحرب الحرب وما أدراك ما الحرب هي باعث الهول
والكرب والظعن والضرب أولها شكوى وأوسطها نجوى
وآخرها بلوى وهي خدعة يوم لك ويوم عليك

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول
حتى اذا حيت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل
كيف يفعل الانسان فعل الوحوش الضارية فيقتل النفوس
البرية ويترك البلاد متخرّبة خالية قتل الانسان ما أكفره
وما أشره وما أصلبه وما أكثر طمعه في ملك غيره وحسده
فقاتل الله الطمع المجلب للخراب المسفك للدماء المزهق
لأرواح العباد المهدي لشوكة الأمانة المدحض لنموّ الزراعة
والصناعة والتجارة المضعف قوة أسباب الارتقاء المفرق الأبناء
من الآباء والآباء من الأبناء

بخلاف السلم فان به تأمين العباد على الأموال والأولاد
وترتقى البلاد وتمنح المجد والإسعاد وينتشر العمران وتوطد

دعائم الأمان وتنتظم سلوك الوفاق وتنقسم عرى الشقاق
وبالجملة فالحرب ميدان تسفك فيها الدماء — ميدان الكر
والفر تمشى الجنود الى ميدان الحرب وهي تبكى وتتودع من
الدنيا نادمين على ما قدّمته يداهم من الشرف حين على ماجنوه
من أعمال الخير يمشون ودمع العين ليس له انقطاع — قلوبهم
راجفة أيارهم خاشعة ولسان حالهم يقول أهذا يوم الحشر
والميزان أهذا يوم الزحام أهذا يوم الوعيد أهذا اليوم الذى
سنقف فيه بين يدي الله ويسأل كل منهم على ما قدّمته يداه
لا حول ولا قوة الا بالله انا لله وانا اليه راجعون — واذا تقابل
الفريقان وانتشبت الحرب بينهما واشتبكت السيوف
واضطربت النيران واتقدت نار الحرب وتصلصات الدروع
من وقع البيض وزلزلت الأقدام من ولولة الأنجاد ورنين
القسي وقراع الرماح وأقبلت الآجال تفرس الآمال أمطرت
السماء رصاصا وأظلم الجوّ واكفهرت السماء وصمت
الألسنة ونطقت الألسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب
وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب وتلاصقت القنا والقنابل
وتعانتت الصوارم والمناصل وبلغت القلوب الحناجر وأدركت

السيوف المناصر وضاق المجال وتحكمت الآجال فلا ترى الا
 رءوساً تندر ودماء تهدر وأعضاء تتطاير وتتناثر وأجساماً تتزائل
 وتتمايل حتى تملت الرماح من الدماء فتعثرت في النحور
 وتكسرت في الصدور وكثر أنين القتلى وجرت أنهار من
 دماهم تسبح الواحد الديان

ترى كثيراً من الجنود في ساحة القتال ملقاة على الأرض
 قتلى وجرحى يئنون من كثرة الألم ترى الواحد منهم رافعاً
 يده مشيراً بها على ما أصابه واضعاً الأخرى على قلبه متحسراً
 على ما ناله فهذا شاب كان يفتخر بشجاعته وصارت الوحوش
 تأكل لحمه

فما أرخص القتل في ساحة القتال وأرخص الرجال الشبان
 وأكثر الشرك بالله فبئست الحرب فانها كلمة ترتجف عند
 سماعها قلوب الملوك وتشيب لرؤياها الحفود
 بئست مصائبها ودواهيها العظمى فانها توقف أحوال
 التجارة وتعطل المعامل والشركات وتكثر المشاكل والمنازعات
 والحروب الداخلية والنهب والسلب والقتل

٨٩

﴿ فوائد المشورة ﴾

تأن وشاور فان الأمو ر منها جليّ ومستغمض
 فرأيان أفضل من واحد ورأى الثلاثة لا ينقض
 المشورة واجبة على كل ذي حزم متعينة على كل ذي
 لب وفهم وهي حصن من الندامة وأمان من الملامة وأحمد
 للرأي وأنجح للسعي فالمستشير على طرف النجاح والمستبد
 تلعب به الرياح والمشورة مع السداد والسخافة مع الاستبداد
 قال تعالى (وشاورهم في الأمر) وقال عليه السلام (ماخاب
 من استخار ولا ندم من استشار) وقال عليّ رضي الله عنه
 (نعم الموازنة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد) قال الشاعر
 اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
 ولا تجعل الشورى عليك غضاصة فان الخوافي قوة للقوادم
 فالمشاورة لقاح العقول ورائد الصواب ومن شاور عاقلاً أخذ
 نصف عقلة — وهي عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه
 ومن أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ
 عاذراً — وحينئذ لا عذر لأحد في ترك المشورة وان كان من

أهل العقل والرشاد وذوى الرأى والسداد فان المشاور قد يكون له فى بعض الأمر هوى ولبعض الوجوه ميل فربما جنح الى هواه ومال الى ميله والمستشار انما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره — قال بعض الحكماء من استشار أهل العقول أدرك المأمول

شاورسواك اذا نابتك نائبة يوما وان كنت من أهل المشورات فالعين تنظر منهما ما دنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة وبالجملة ان فى المشورة سعادة عظيمة وحياة طيبة — قال تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقال لقمان لابنه وهو يعظه (يا بني اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة الى فعله فقال ابنه كيف أجعل عقل غيرى لى قال تشاوره فى أمرك) وقيل للأحنف بأى شىء يكثر صوابك ويقلّ خطؤك فيما تاتيه من الأمور وتباشره من الوقائع قال بالمشورة لدى التجارب ومخض زبدة الآراء

وقد قيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم

وقال الشاعر

الرأى كالليل مسودّ جوانبه * والليل لا ينجلي الا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى * مصباح رأيك تزدد ضوءه مصباح
وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في المشورة سبع خصال
استنباط الجواب واكتساب الرأى والتحصن من السقطة
وهي حرز من الملامة ونجاة من الندامة وألفة للقلوب واتباع
للأثر ولكنا الانسان لا يشاور كل أحد بل من كان فيه
ذلك غير آخذ رأى جاهل وعدوّ وحسود ومرء وجبان
وبخيل وذى هوى

فالمرء اذا شاور اخوانه في شؤونه أغناه ذلك عن كثرة
التجارب ووفر عليه جزءاً كبيراً من أوقاته وأظهر له صديقه
من عدوّه وما شرعت تلك الفضيلة في الدين الا لحكمة عمرانية
قد ظهرت جلياً منذ ظهور الاسلام فان الرسول عليه الصلاة
والسلام كان يأخذ آراء أصحابه في الأمور المهمة — اذ من الثابت
انه استشار في أسارى بدر فأشار أبو بكر بالفداء وأشار عمر
بالقتل فعمل برأى أبي بكر وكذلك الصحابة كانوا يتشاورون
ولم تزل المجالس الشورية الرسمية التي أصبحت الأهم تتغنى

بها الا من الاسلام ومن قاموا بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بتأسيس مجلس شورى بعد موته لينتخب من يكون أميراً وقد انتخب عثمان رضى الله عنه — ولم يقطع دابر الاستبداد ويضرب على أيدي المستبدين الطاغين الا الشورى التي قيدت كل مطلق — وهما هي الأمم قد أصبحت تحكم نفسها بنفسها وتقترح على حكومتها ماشاءت أن تقترح بواسطة في ذلك المجالس الشورية ولو حافظ المسلمون على هذه الدعامة الكبرى والأساس المتين لما تقوض مجدهم ولا سقطت دولهم

٩٠

﴿ الزراعة وفوائدها ﴾

الزراعة هي الأم المغذية والمادة المقوية لنوع الانسان وسائر أنواع الحيوان فهي مادة الحياة وروح المدنية وقوام الحضارة قال الله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ — وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً كله — ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل التمرات ان فى ذلك

لآية لقوم يتفكرون - وبارك فيها وقد رفيها أقواتها) وقال عليه السلام (ما من مؤمن غرس غرساً فأكل منه انسان أودابة الا كان له صدقة) وقال أيضاً (التمسوا الرزق من خبايا الأرض) وقال الشاعر

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر
ولرفعة شأنها وعظيم منيتها اعتنى بها قدماء المصريين حتى أنهم
لم يدعوا قدر شبر من أرض الا عمروه بالزراعة -- وذكر
المؤرخون أنه قد كان من أصول دولة الفرس أن يبرز الملك
بجلائته مع أعيان أهل دولته ويباشر حراثة الأرض بنفسه
في أول يوم من أيام السنة تنويهاً بشرف الزراعة وتبنيهاً على
ما يقتضى لأهلها من التشويق والشجاعة

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه أن غرس بعد الكبر
فقال لأن توافيني الساعة وأنا من المصلحين خير من أن توافيني
وأنا من المفسدين - وقيل لأبي الدرداء وهو يغرس جوزة
أغرس بعد الكبر وأنت شيخ وهي لا تطعم الا بعد عشرين
سنة أو ثلاثين فقال وما على الا أن يكون الأجرى والهنا لغيري
وقيل فلاح المعيشة في الفلاحة

﴿ فوائد النباتات والأشجار ﴾

من النعم التي لا تحصى ولا تكاد تستقصى النباتات التي
 منها الأقوات والأدوية والفواكه والملابس والزينة والعلف
 والرعى والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن
 وغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها والورق والأزهار
 والأصول والعروق والفروع والصمغ لضروب من المصالح
 وقد أودع الله فيها من البركات ما صير الحبة الواحدة تخلف
 مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل وجعل الأشجار والثمار
 والأزهار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فتجلى
 عن القلوب درنهما عند مشاهدتها وتشرح الصدور برؤيتها
 وتنتعش النفوس لرونق بهجتها — ففيها منافع مختلفة التأثير
 منها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة
 لذيدة عند تناولها وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند
 جفافها وانفصال وقت نضارتها

ومن حسنات الأرض علي بنى الانسان التي أبرزتها
 الزراعة تلك الأشجار التي شابهت الانسان في أطواره ونشأته

حتى اذا انضجت واستوت علي سوقها وتفرعت غصانها
أمدت الانسان بكثير من الفوائد وجزيل من المنافع ينحى
الانسان منها التمار التي يتفكه بها مما لذ طعمه وطاب جناه
(تسقى بماء واحد وتفضل بعضها علي بعض في الأكل)
وأزهاراً يائنة ذات عرف شدي ورائحة زكية يستخرج منها
المياه العطرية ويستعمل بعضها في الأدوية الطيبة مما يكون
شفاء للأمراض ومزيجاً للعلل ومنها تكون الحدايق الغناء
ترى الأشجار فيها وارفة الظلال قد تمايلت أغصانها واهتزت
أفنانها وأينعت أزهارها ودنت قطوفها تضوع المكان بطيب
نشرها وتنعش النفس برويقها - فاذا هب النسيم وتناوحت
الأغصان تعطرت الأرجاء وتمثلت الجنان في الرياض وبها
يستظل الانسان من الشمس فتقيه حر الهجير - وتغرس في حافتي
الطرق لهذه الفائدة فتكسبها رونقاً وزينة وتلطف هواءها وتنقي
جوها فما دامت قائمة علي ساقها تمد الانسان بالمنافع المختلفة
والفوائد المتنوعة حتى اذا انقضى أجلها قطعت منها أخشاب
ذات فوائد عظيمة تستعمل في الأبنية والمنازل والأدوات
المختلفة التي لا يستغنى عنها مكان وتصنع منها السفن التي تمخر

في البحر وتشق بحيزومها عباب الماء وتكاد شراعها تصافح
السحاب فتسير في البهار وهي الجوارى المنشئات في البحر
كالاعلام تحمل في جوفها الناس والبضائع وتنقل الاخبار
من مشارق الارض لمغاربها كما يستعمل الخشب في الوقود
وغير ذلك من الفوائد التي تتمتع بها الانسان وقضى منها ما ربه

٩٢

﴿ البخار وفوائده ﴾

ان قوة البخار شاملة أهم الصنائع والاشغال ونشاهد
قدرته الباهرة — من ذلك سير البواخر البحرية وقطر السكك
الحديدية والمطابع والعمل في المناجم والغزل والنساجة وغير ذلك
فلاستخدام البخار في السفن وحدها قيمة لاتعد لها قيمة
اذ اغنتنا السفن البخارية الآن عن الرياح واختلاف الفصول
فضلا عن اسعافها لنا علي تقصير المسافات بسرعتها الفائقة
وللبخار أيضاً عمل يذكر في الأسفار البرية فيحمل
الانسان على جناحه براحة وسرعة يعجب منهما وقد أحيا مدنا
وأمصاراً زاهرة وحالك للبشر المنسوجات ووفر البضائع فهبطت
أثمانها ونقلها براً وبحراً بأجرة رخيصة ووصل بعض البلاد

بعضها صلة موثوقة العرا وأراح الناس من أتعاب لا حد
لها ولا نهاية ووزع في الوقت نفسه الأشغال والأعمال على
جموع وجماهير تعدّ بالملايين

تلك قوّة لا يعترىها الكلال فتدأب في العمل نهاراً
وليلاً اذا غذيت بالوقود وتقوم بواجباتها قياماً دقيقاً وقد أمست
الآلة البخارية مسعفة للانسان ومساعدة له في جميع أحواله
فلا بدع اذا قلنا ان البخار رقى بالعالم المتمدن الى ذروة المجد والفخر
وبالجملة ان البخار هو القوّة العظمى التي ظهرت منها
العجائب وبدت الغرائب فتكاثرت بها أعمال الصناعة وأخصبت
أرض الزراعة وراجت أسواق التجارة واتسعت طرق الثروة
وكثر أنواع النعمة — من ذلك الآلات البخارية التي تروى
مقداراً عظيماً من الأرض مع السهولة والراحة وبذلك تضاعفت
ثمرتها — ومنها قطارات السكك الحديدية والسفن البحرية
والطواحين وآلات البخار التي تدار بها معامل المصنوعات
والمنسوجات والمطابع وغير ذلك من ثمرات البخار وقوته التي
تحار في وصفها الأفهام وتعجز عن حصرها الأقلام

﴿ التجارة وفوائدها ﴾

التجارة تاج الأمانة وينبوع البركات والأرباح توفيقات
 بها تزيد ثروة البلاد وتتوفر أسباب الرفاه للعباد - قال تعالى
 (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن
 تكون تجارة عن تراض منكم) وقال تعالى (وأحلّ الله البيع
 وحرّم الربا) وقال عليه السلام (أطيب ما يأكل الرجل من
 كسبه والكسب في القرآن التجارة) وقال عليه السلام
 (التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك

رفيقا) وقال عليه السلام (تسعة أعشار الرزق في التجارة)

كن تاجراً حراً بأى مال ولا تكن مستخدماً بحال
 وكن اذا تاجرت ذا اداره لتدرك الربح من الخساره
 واجتنب الربا وصنع الغش فان مولاك شديد البطش
 فان بالتجارة الأثاما نالوا المنى وحصلوا المراما
 فهى قوام الملك والعباد فى كل موطن وكل ناد
 وهى لعمر الحق لولا الخطر أول ما به الفتى يفتخر
 لاسيما مع العفاف والشرف وصور رأس المال من داعى التلف

والحق ان التجارة لجديرة بمزيد الاعتبار فان فيها غنى
 لأولى الأبصار ولذلك الأمم التي في مقدمة التمدن حريصة
 على جميع ما ينمي أسباب التجارة ويزيدها اتساعا وازدهارا ومهارة
 هذه دولة انكلترا ما نالت نفوذها في كثير من الممالك الشرقية
 الا بتجولها في البحار للتجارة ولأهميتها قد اعنتت الأمم الغربية
 بتلقيها لأبنائها في مدارس خصوصية أنشئت لذلك

وبالجملة التجارة لها تأثير جلي وسبب قوى على التمدن
 والخيرات في جميع الأوقات لأنها رسول التعارف ومنهل
 التآلف تزيد البلاد في المال نموا ورفعة وعلوا وبعدما تكون
 فقيرة حقيرة تصبح غنية خطيرة ثم انه يلزم التاجر رأس مال
 كاف لعمله وأن يختبر أولا الأصناف التي يريد أن يتجر فيها
 ويخالط أهلها ويعرف مصدر ورودها ومقدار اللازم منها وما
 يلزم لها من العمال الأصدقاء ويخصص لها مكانا تروج فيه
 ويرتبها ترتيبا سهلا للتناول ويرصدها في دفاتر سهلة المراجعة
 ولا يستدين أكثر مما يمكن أن يقوم بوفائه في مواعيد سداده
 وألا يبيع بالدين الا لكل مؤتمن موثوق به في حسن المعاملة
 سبل المعيشة في الحياة كثيرة وعظيمها عند الرخاء تجارة

فهي الشهامة والكرامة في الورى والمرء في دار الحياة كرامة
لا خير في عيش اذا لم ترعه عند التناول في المقام سلامة
وبها يعيش المرء حرا سالما لا يعتريه من السخيف ملامة

٩٤

﴿ الصناعة وفوائدها ﴾

المعارف تتنوع حسب مواضعها فمنها ما يحسب مركزها
الخصوصى النفس الانسانية الخالدة وهذه تسمى المعارف الدينية
ومنها ما يعد مركزها الخصوصى العقل البشرى وهذه تسمى
المعارف العلمية ومنها ما يختص بالقوى الجسدية والحواس وهذه
تدعى المعارف الصناعية وهي أفضل وأجلّ الوسائل لتقدم
البلاد ونفع العباد ودعامة الحضارة وارتقاء الأُمارة وتوطيد
مركز الادارة ومنبع الثروة والغنى وغاية التقدم وللمنى بل
روح العمران وتاج السلطان وحمى الأوطان وراية الأمان
في كل زمان ومكان — وقد قيل صناعة في اليد أمان من الفقر
وحرقة المرء كنزه — وقال الامام عمر بن الخطاب انى لأرى
الرجل فيعجبني فأقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني
أفادتى الصناعة كل عز وهل عز أعز من الصناعة

وللصناعة الأسيقية (عددا) لكثرة فروعها ووفرة معداتها
 ونتائجها. والأسيقية (رتبة) بالنظر الى سعة علومها ويا نفع أثمارها
 ودقة أصولها وسمو درجاتها ولها من طول الباع في اسعاف
 ما سواها من المهن ما يعزز مقامها ويؤيد شرفها مدى الأيام
 وكل بلاد تروم التقدم والارتقاء أدبيا وماديا تجد أن المفتاح
 لما ترومه الاعتناء بالصناعة

ان الصنائع والفنون كلاهما مما به الانسان قدرا يرفع
 وهما الوسيلة للسعادة فاشتغل بهما فانك للبلاد ستنتفع
 واختر لنفسك ما يكون صنيعه حسناً فقيمتك التي قد تصنع
 ودع التكاسل والبطالة انها سبب يعوق عن المعاش ويمنع

٩٥

﴿ تكون المطر ﴾

المطر هو قطرات الماء الحاصلة من البخار الذي يصعد
 الى الجو فيصير غيوماً وسحباً تسوقها الرياح بين القبة الزرقاء
 وسطح الأرض على أبعاد مختلفة — وعند ما تبلغ هذه الغيوم
 والسحب بعد ميل أو ميلين ارتفاعاً تبرد وتنخفض درجة حرارة
 الهواء فلا يستطيع حملها فتجتمع دقائق هذه السحب منضماً

بعضها الى البعض الآخر فتكوّن منها قطرات المطر فتسقط
 لكونها أثقل من الهواء الكروى — والغيوم فى الجوّ عند
 سيرها كثيراً ما تصادم رءوس الجبال وأحياناً تتغير جهة سيرها
 أو تصب ما فيها من البخار مطراً على رءوسها وجوانبها
 وقد يحدث المطر أيضاً من مصادفة السحب مجارى رياح
 درجة حرارتها أوطى من درجة حرارة الغيم السابح — وكثيراً
 ما تجمد الأمطار عند انحدارها بسبب شدة البرد فتزل برداً
 أو ثلجاً فسيحان الخالق العظيم

٩٦

﴿ الماء وفوائده ﴾

مما أنعم الله به على عباده الماء العذب الذى به حياة كل
 من علي وجه الأرض من حيوان ونبات . قال تعالى (وجعلنا
 من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا من
 السماء ماء مباركا) وقال الشاعر

وعارض مبتسم قد استهل
 حتى اذا أترى الثرى من وبله
 ومدّ أطناب النعام وأظل
 وأخصب الجذب تولى وارتحل
 ومن حياة بحياه اذ نزل
 كم أنزل الله لنا من رحمة

فهو الذي أغاث الأنام وأروى الهضاب والآكام وأحيا
النبات والسوام وجعله مزياً للآذران عن الأبدان والأوساخ
عن الثياب والمكان

وبالماء يبيل التراب فيصلح للأعمال والبناء وبه يرطب كل
يابس ويستعين به كل زارع وغارس وتطفأ به النيران ويرتوى
به الظمان والعطشان من انسان وحيوان في كل زمان ومكان
وتصلح به المطبوعات وغير ذلك من جميع الموجودات تلك
حكمة الحكيم العليم فسبحانه وتعالى المتفضل العظيم
وبالجملة فالماء من أجل النعم الآلية وأعظم المنن على كافة
البرية التي لا تقدر أن تقوم بشكر المنعم عليها بعشر المعشار
ولو أنفدنا في ذلك الأقلام والبحار فقد جعله الله تعالى حياة
كل شيء وجعل نفعه عاماً لكل موجود ولم يجعله ملكاً لأحد
من الوجود ولذا امتنَّ به علي عباده امتناناً في الكتاب مسطوراً
فقال (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) فيه يزول ظمؤنا وبه
يعود ما ينقص من كمية الماء في الدم بسبب التبخير والتبول
وباقى الافرازات

﴿ اللغة العربية والتاريخ ﴾

اللغة هي الألفاظ التي بها يحصل التفهيم والتفاهم — والتحقيق أن المولى سبحانه خلق آدم متكلماً بلغة نجمل تعيينها وأنها لم تزل واحدة حتى كثر عدد أولاده وضاعت بهم أرض شنعار^(١) التي نزلوها بعد الطوفان فعزموا أن يبنيوا هناك مدينة عظيمة يرفعون بها برجا يناطح عنان السماء ثم يتفرقوا — ولما كانت نيتهم بذلك غير حميدة أحبط الله مسعاهم وبدل لغتهم بلغات أخرى فلم يعد بعضهم يفهم كلام بعض فكفوا عن العمل قبل اتمامه وتبددوا في مشارق الأرض ومغاربها ولما حصلوا ما ربههم وقصد كل فريق جهة فنزل نسل سام بآسيا ونسل حام بأفريقيا ونسل يافث بأوروبا ولكن لم يستمر أهل كل جهة متحدين في الرئاسة واللغة مجتمعين بمحل واحد بل انقسموا إلى أقسام شتى وتوزعوا في جهات مختلفة وصار لكل شعب على مدى

(١) أرض شنعار هي الصحراء الكبيرة الممتدة شرقي دجلة بين

بغداد والموصل وفارس حيث كانت مملكة بابل وأشور تنقسم اليوم

أقساماً كثيرة منها الكردستان وأذربيجان وهمدان

الأزمان لغة خاصة به وعوائد تلامم طبائع اقليمه وأحوال
تشاكل أغذيته واحساسات تضاهي مؤثراته وشعور يوافق
مناظره الى غير ذلك مما توجهه مشتملات الأقطار ومواقع
القرى والأمصاار - ولم تزل كل لغة تترقى شيئاً فشيئاً مع
اتساع الاجتماع الانساني يتناقلها قوم ويزيد فيها آخرون حسب
تجدد الأمور ومقتضيات الأحوال حتى بلغ كل قوم من
لغتهم ما يحتاجون اليه

ثم ان اللغات تنقسم باعتبار الاستعمال وعدمه الى حية
وميتة فالثانية ما تكلم بها بعض الأقسام ثم أهملت ولم يبق لها
أثر الا في الكتب كاللاتينية والعبرانية والقبطية . والأولى
هي التي دام استعمالها وعددها ألفان ونيف وأهمها العربية
والأفرنسية والانجليزية والألمانية والروسية والايطالية
والصينية - والظاهر أن العربية والسريانية والعبرانية من
أصل واحد بدليل شدة المشابهة بينها في كثير من الأمور
كالاشتقاق والتصريف وأنها سامية الأصل فان أول من تكلم
بها بنو سام الذين لم يختلطوا بغيرهم من أولاد عميهم منذ تفرقهم
ولم تمكث العربية أن أخذت تنتشر بانتشار أهلها في شبه

جزيرة العرب حتى أصبحت أكثر اللغات ألفاظاً وأوسعها
 تراكيب وأعظمها اتقاناً — غير أنه لما تألفت القبائل ومضى
 عليهم دهر طويل لا كتابة عندهم ولا رابطة بينهم اختلفت
 لغة كل قبيلة عن غيرها ونشأ عن ذلك تعددها — فمنها لغة
 قريش ولغة تميم ولغة طي وهلم جرا غير أن ذلك الاختلاف
 لم يكن الا قليلا في بادئ الأمر لزيادة المشابهة بين أحوالهم
 وقرب منازلهم فقد كان بإبدال حركة بأخرى ككسر الكاف
 في نحو عليكم وبكم في لغة ربيعة أو بإبدال حرف بآخر كإبدال
 الحاء عيناً في لغة هذيل وإبدال كاف الخطاب سيناً مع المذكر
 وشيناً مع المؤنث في لغة مضر وإبدال لام آل ميماً في لغة حمير
 أو بالحذف كإسقاط همزة التكلم وأحرف من أواخر بعض
 الكلمات في لغة بعضهم فيقولون أنا كرمك في أنا كرمك
 واجتمعت القبي في اجتمعت القبيلة أو تخفيف الهمزة في لغة
 تميم فيقولون فار وبير وشوم في فأر وبئر وشؤم كالاختلاف
 الواقع أيامنا في جهات مصر فترى بعض سكانها يبدلون الباء
 الساكنة ميماً إذا تلاها نون فيقولون في ابن وجينة وتبين امن
 وجينة وتمن وبعضهم يبدلون الميم بباء فيقولون اقمع بكانك أى

مكانك ومنهم من يبدل العين المتلوة بالطاء ميمًا فيقول في أعطاني
 أنظاني ومنهم من يغير الخاء غينا فيقول غير غير في خبر خير
 ومنهم من يجعل الميم دالا فيقول دئت من الدبل في جئت من
 الجبل ومنهم من يحذف أواخر الكلمات فيقول يا محمولا تقف
 في الطرى في محمود وطريق ومنهم من يكسر التاء والياء
 والنون من أحرف المضارعة اقتداء بما كان عليه قبيلة بهراء
 وهو كثير في الكلام المعتاد - وطال ذلك الاختلاف بين
 العرب حتى أفضت بهم الحال إلى أن اختلطت على بعضهم
 لهجات بعض وصارت أغلب القبائل تستعمل في تأدية المعنى
 كلمات غير متداولة في القبائل الأخرى وأصبح التفاهم فيما
 بينهم بلغة واحدة أمراً بعيداً

ولما كانت العرب مجبولة على الغيرة وحب الافتخار
 بأنسابهم وأحسابهم وشجاعتهم ومهارتهم في الفروسية
 وانتصاراتهم في الحروب وغير ذلك من الأمور التي كانت
 ولم تزل من أسباب الفخر حملهم ذلك على القاء الخطب في
 المحافل وانشاد القصائد يظهرون بذلك فضلهم وتقدمهم على
 غيرهم - ومن نبغ منهم يلقب بالخطيب وحصل شرفاً عظيماً بين

أبناء جلدته خصوصا اذا كان شاعرا فانهم يحلون له ارفع محل
ويحسبونه فخرا لقبيلته وحماية لأعراضها وذودا عن حقوقها
به تخذ ما آثرها ويعلو قدرها ويذيع صيتها فلذا كان له النفوذ
التام واليه ينتهى الحل والابرار - الحسن ما حسنه والقبیح
ما قبحه يرفع الوضيع بمدحه ويخفض الرفيع بذمه . بكلامه
يأخذون ويستشهدون واليه يرجعون وعليه يعتمدون . فتتبع
من ذلك بحكم الطبيعة تنافس شديد بين الشعراء والخطباء من
كل قبيلة وأحب كل واحد أن يظهر على صاحبه ويختص دونه
بالمفاخر ومن ثم أنشأوا محلات صغيرة يجتمعون فيها لانشاد
الأشعار والقاء الخطب يقدمون من يحسن انشاده ويجيد مقاله
ولم تزل هذه الجمعيات تتسع قليلا قليلا حتى اختاروا لها مواضع
معينة شاسعة الأرجاء يسهل على كل أحد حضورها كعكاظ
ومجنة وذى المجاز وكانت الرئاسة في هذه المحافل لأهل قريش
دون غيرهم لكون لغتهم أفصح لغات العرب وأخلصها من
شوائب العجمة لبعدهم عن مخالطة الأجانب من جميع جهاتهم
فكان الرجل يقول الشعر في أنحاء بلاد العرب فلا يحفل به
حتى يأتى إحدى هذه المجمع في أوقاتها - وقد اجتمع رؤساء

القبائل وساداتها وعرفاؤها والجم الغفير من الفرسان وغيرهم
ثم يقوم أمام الجميع وكل يرمقه ببصره حارصا على ما يلقيه مصفيا
الى ما يديه فينشده ما شاده وأحكم بنيانه فان استحسنه رؤساء
المحافل أقروه وحينئذ يكتب بماء الذهب على المنسوجات
الحريرية ثم يعلق بالكعبة كما فعل « بالمعلقات السبع » وغيرها
ليخلد اسم صاحبه ويبقى على مدى الأيام رسمه ويستمر في
الخلف بقايا من آثاره - وان لم يستحسنوه أهملوه ثم يرجع كل
الى بلاده وقد استظهر ما وقع الاختيار عليه فيلقنه عشيرته ثم
يتداولونه بينهم ويطنبون في مدح أصحابه - فكان ذلك داعيا
الى المروءة وعلو الهمة والسكرم والشجاعة والاقبال على عظام
الأمر والتخلق بالأخلاق الحسنة ومهدا طريقا لتوحيد
لهجات القبائل وجعلها لغة واحدة مشتركة بين جميعهم لأن
الشاعر اذا علم أن كلامه سيطلع عليه أهل المجمع مع اختلاف
ألسنتهم وينتقده القضاة المحنكون وهم ما بين منصفين محيين
ومحفين حاسدين يبذل أقصى طاقته في اختيار الفاظه وتراكيبه
وجعلها مألوفة متعارفة للسواد الأعظم من شهود المجمع بقدر
جهده - فتقدمت اللغة بواسطة تلك المنتديات تقدما حسنا

وبلغت من الجود مبلغاً عظيماً

ومن العرب المشهود لهم بالبلاغة أكرم بن صيفي وحاجب
ابن زرارة التميمي والحارث بن عياد البكري وعمر بن الشريد
السلمي وخالد بن جعفر الكلابي وعلقمة العامري وقيس الشيباني
وعمر بن معد يكرب الزبدي والحارث بن ظالم المرسي وامرئ
القيس وطرفة بن العبد وزهير المزني وغيرهم

*
* *

ولما جاء الاسلام سنة ٦١٢ م^(١) وانتشر في بلاد العرب
تغلبت لغة قريش على سائر لغات القبائل لفصاحتها ومجىء
القرآن بها وأصبحت بعد الهجرة بنحو ثلاثين سنة هي اللغة
المتداولة في أكثر الجهات التي فتحها المسلمون في شبه جزيرة
العرب وخارجها ولكن لما اتسع الدين الاسلامي واختلط
العرب بغيرهم من بقية الأمم فشا الفساد في اللغة وخصوصاً
في المخاطبات المعتادة بسبب الدخلاء والناشئين حتى خيف
عليها أن تضمحل بعد القليل من الزمن ان لم تتدارك بوضع
مؤلفات لحفظها وصيانتها من أيدي التلف والضياع فاستنبط

(١) وبعد مجيئه بعشر سنوات ابتداء التاريخ الهجري

لها أربابها من أساليب العرب قوانين مطردة يقيسون عليها
سائر أنواع الكلام

وأول من وضع تلك الضوابط أبو الأسود الدؤلي بأمر
الامام عليّ ثم تبعه الناس فزاد كل واحد على ما قبله وبذلك
حفظت اللغة وأمن عليها من غوائل الافساد . الا أنها لم تقدم
في صدر الاسلام لاشتغال أهلها بالجهاد واتجاه أفكارهم الى
توطيد أركان دينهم والقيام بشعائره حتى ان الشعر قلّ عدد
فأئليه وقصرت عنه همهم — ألا ترى أن لبيداً قائد حلبة
شعراء الجاهلية حرّم على نفسه قول الشعر بعد اسلامه وأنه لما
استنشده عمر بن الخطاب شيئاً من شعره أيام خلافته انطلق
فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتاه بها وهو يقول قد أبداني
الله هذه في الاسلام مكان الشعر فسرّ عمر بجوابه وأجزل له
العطاء — وأن النابغة الجعدي وقد كانت له القدم الراسخة في
الشعر أيام الجاهلية وهكذا كان شأن حسان بن ثابت رضي
الله عنه وهذه حال الكثير من فحول المخضرمين ومن نشأ
بعدهم في صدر الاسلام

ثم لما آل الأمر لبني أمية سنة ٦٦٢ م وجهوا اهتمامهم الى
 مناوله الجهاد ومدوا أيدي الفتوحات فوفروا العدد الخريه
 ودرّبوا الجنود على القتال فخدمتهم الأقدار وذلت أعناق
 الجبابرة لسيفهم البتار وعلت كلمتهم واتسع نطاق ملكهم وهابت
 شوكتهم سائر الأمم وخفقت لهم قلوب أعدائهم. ولم يزالوا
 يمدون أيديهم الى البلاد فيقتنصونها بلدة فبلدة الى أن كانوا
 يهددون جميع العمورة ويمتلكون الدنيا براً وبحراً فكان لهم
 من ذلك كله شواغل تشغلهم عن طلب العلوم والمعارف حتى
 لم يكن للغة نصيب من الاعتناء الخاص بل تركت وشأنها
 لا تنمو الا نموتها الطبيعي تبعاً لحضارة البلاد - على أنها لم
 تحرم مع هذا الاهمال ظروفها وأحوالها أتيحت لها حفظها من
 الفساد فاستمرت اللغة على بلاغتها - وممن كانوا في هذا
 العصر عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان المقتول سنة ٧٥٠ م
 والفرزدق وجريز والأخطل في عهد عبد الملك بن مروان
 والحجاج الثقفي

تم لما انطوى بساط الدولة الأموية وآلت الخلافة الى
 بنى العباس سنة ٧٥٠ م وانقضت عن سماء السياسة سحب
 الثورات والمخاوف وبات كل من الراعى والرعية هادئاً مطمئناً
 تحت جناح الأمن والسكينة مصرروا الأمصار وشيدوا القصور
 وأحكموا القلاع وأسسوا الثغور حتى أصبحوا فى معانقهم أمنع
 من عقاب الجوّ وأعزّ من جبهة الأسد ينجون شهد الراحة
 آمنين ويتمتعون بغنائم الفتوحات السالفة بعداء عن مزاحمة
 الطامعين فى بلادهم محصنين وراء خنادق الهيبة التى حفرها
 لهم أبطالهم فى قلوب أعدائهم — ولما كانوا على تلك الحال
 من نعيم الجسم وفراغ البال اتبهاوا الى المعارف والفنون وأرادوا
 ممارستها فحوّلوا جياذ عزمهم الى تحصيلها لعلمهم الفطرى أنها
 الأساس المتين التى تبنى عليه الممالك العظام والدروع السابغة
 التى لا يعمل فيها حدّ الحسام — بها تعزّ البلاد وبفقدتها يستولى
 سلطان الذل على العباد فلا خوف على الدولة مادامت تستظل
 بأشجارها وتتغذى بأثمارها وانما الخوف كل الخوف من اهمال
 حرايتها وذهاب نضارتها — تموت باهمالها القلوب كما يموت
 النبات اذا لم ينعشه ماء مطر السماء — فلذا لم يوفروا نبلا فى

جعبة طاقتهم الا استعمالوه ليظفروا بها ويقضوا غرضهم منها^(١) وحيث أنه لم يكن معهم حينئذ من أئمة في العلوم الكونية ولا كتب يستعينون بها على اكتسابها استحضروا العلماء من كل جهة وأكرمواهم ووسعوا مداخل رزقهم وأكثروا من صلاتهم . فتعلموا منهم علوم بلادهم واستخدموهم في ترجمتها الى لغتهم فانتشرت روح المعارف بين الأمة وجدّ في تحصيلها الخاصة والعامة وضحوا أنفسهم في سبيل المجد والمعالى غير مباليين يشق النفس وعناء الدرس حتى لو تعلق علم ما بأكناف السماء لنالوه بهمتهم الشماء — فما عم أن قام منهم جها بذة أعلام فأدجنت بينهم سماء العلوم وهطل مدرارها وجرت أنهارها

(١) اول من اتبه الى أحياء العلوم والمحافظة على آثارها هو مروان الرشيد خامس الخلفاء العباسيين فقد اوصى جنوده بالمحافظة على كل ما تمثر عليه أيديهم من الكتب القديمة حتى انهم لما افتتحوها مدينة انقرة وجدوا في خزائنها كثيرا من الكتب فاحضروها له ببغداد مسرورين فامر يوحنا بن ماسويه طيبه ان يترجمها الى اللغة العربية ومع هذا لم يبلغ ذلك الخليفة المعظم ولا غيره درجة ابنه المامون في بذل النفس والنفيس في اكتساب العلوم ونشرها ورفع منارها واكرام رجالها فقد فاقهم جميعا

وزخرت بحارها وتفنن القوم في ابداع المؤلفات حتى جاء ذلك خدمة نفيسة للعالم أجمع على حين أن الفرس واليونان والهنود وغيرهم من بني الانسان كانت شمس علومهم قد آذنت بالغروب وأهل أوروبا أصبحوا غارقين في الحروب منغمسين في تيار الشهوات لاهين عن العلوم ساهين عن ايقاد نبراسها حتى أنهم لما أفاقوا من غفلتهم وهموا بالخروج من ظلمات الجهل وطلبوا النور الذي كان لأسلافهم ونبذوه هم وراء ظهورهم كادوا لا يجدون له أثرا في غير الأديرة فالتجأوا الى العرب وتعلموا في مدارسهم^(١) واستضاءوا بنور أساتذتهم

(١) ظهرت المدارس عند العرب أيام هرون الرشيد فانه امر بإقامة مدرسة بجانب كل مسجد ولكن طالما قرأ الطالبة العلوم في خارج المدارس لأنها لم تنتظم دفعة واحدة كما هو الشأن في جميع المشروعات بل ترقت شيئا فشيئا تباعا لحضارة البلاد وانما زهت واينعت في القرن الثامن وبلغت اوج التقدم في الثاني عشر ثم اخذت في التقهقر والاضمحلال حتى كاد لا يبقى لعلومهم ومدارسهم من رسم تذكر به - جاء في التاريخ ان طلبة العلم من الفريج من القرن الثامن الى الثاني عشر كانوا اذا ارادوا التبحر في العلوم يقصدون بلاد العرب ويقروؤوتها على اساتذتهم بل قيل انه لم ينسخ احد منهم في الرياضيات في القرون المذكورة الا بعد ان تلقاها بمدارس العرب فتأمل

وترجموا كتب علومهم الى لغاتهم فكان للشرقى بذلك الفخر
على الغربى ما بقى النيران

ولا يظن القارىء أن رجال ذلك العصر الراقى قصرُوا
همتهم على علوم دون أخرى فانهم أطلقوا عنان جهدهم في جميع
معارف معاصريهم من الفلسفة وعلم الفلك والطب والطبيعات
والرياضيات وغيرها — ولكنهم وجهوا الحظ الأكبر من
عنايتهم الى اللغة لما يعلمونه فيها من شدة التأثير في بقية العلوم
والقوة الفعالة على جمع الكلمة وربط قلوب الأمة ومنعها من
الشتات. فألف فحول علمائهم جميع المؤلفات التي من شأنها حفظ
اللغات وتقديمها — من قواميس جمعوا فيها المفردات — وكتب
نحو ضبطوا فيها أحوال المفردات والمركبات — وبلاغة تعرف
بها مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال — وعروض توزن به
الأشعار الى غير ذلك من لطائف الآثار حتى كأنهم لم يتركوا
من هذا الوجه منزعا في قوس التأليف فضلا عن كونهم وسعوا
دائرة مفرداتها بما عربوه عن غيرهم وتجدد بينهم من اصطلاحات
العلوم والصنائع وعوائد أهل الحضارة وكالياتهم

وممن كانوا في هذا العصر محمد بن خلدون المغربى المؤرخ

المشهور وبديع الزمان الهمداني وأبو بكر الخوارزمي وأبو العباس
عبد الله بن المعتز وأبو القاسم الحريري

٩٨

﴿ نهر النيل وفوائده في مصر ﴾

نهر النيل من أعظم أنهار الدنيا طولا وأعذبها ماء وأعمها
نفعاً وأرواها - يأتي الديار المصرية كل سنة من بلاد السودان
والحبشة فيفيض عليها بدائع الخيرات وأجل البركات بما يأتي
معه من الزبد وطين الطمي وهو مكون من أمطار غزيرة
ولولاه لما عاش في مصر انسان ولا حيوان يزيد عند الحاجة
وينقص كالرجل المدبر فيأتي الى الأرض في اشتداد الحر ويبس
الهواء وجفافها فيسقيها ويرطب الهواء

كأن النيل ذو عقل ولب لما يبدو لخير الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه ويمضي حين يستغنون عنه
فهو سلطان الأنهار وحياة هذه الديار وروح جسمائها وانسان
عين احسانها اذ لولا وجوده لما كان لها وجود ولولا جوده
لما اخضر لها عود

فرح الأتنام بنيلهم اذ صار أحر كالشقيق

وتبرّكوا بشروقه فكأنه وادى العقيق

وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطنى على البلاد بالفساد ويأتى من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائماً وتأثيرها على اصلاحه متواصلاً وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل فأكسب أرض مصر الخصب والنماء وأهلها الراحة والهناء حتى صارت منبع الخيرات وأم الثمرات

٩٩

﴿ وصف يوم ذهب أنواره فأظلم نهاره وكثرت أمطاره ﴾
 بينما كان الجوّ صاحياً والهواء صافياً والغزاة مشرقة
 أنوارها مضيئة نهارها اذا كفرت وجه الأفق واشتدت
 العواصف فى الشوارع والطرق وتوارت الشمس بالحجاب
 وتلفت السماء بأذيال السحاب والرعد يزجره ويسوقه بين
 يديه فاذا قصر صاح به وزجر عليه والبرق يلمح ويلمع ويمنع
 ثم يمنع وقوس النمام للجوّ نطق لابل تاج على مفارق الآفاق
 يزهو بلجينه وعسجده ويفخر بياقوته وزبرجده فلبس ذلك
 اليوم حلة السواد وتسربل بثوب الحداد عبوس قطير

كشر عن ناب الزمهرير أرضه مفروشة بالقوارير اللامعة
وهواؤه كالزنابير اللاسعة تراكت فيه السحاب والغيوم
وأسبلت الستور على النجوم ووضع عليها أعظم غطاء من
الصباح لغاية المساء وما نشر الا وقد اغرورقت مقلة السماء
فأرسلت الأمطار أمواجاً والأأمواج أفواجاً فسالت به الأودية
والصحاصح كما سالت بأعناق المطى الأباطح فبتنا بليل ماطر
وأصبحنا بين ماء غامر فلازمنا المنازل ثلاثة أيام بلياليها حتى
عادت المياه الى مجاريها



﴿ فوائد النار ومضارها ﴾

ان أعمال الانسان متوقفة كل التوقف على النيران التي
لولاها لما نضجت أطبخة ولا تركبت أشربة ولا صيغ ذهب
ولا فضة ولا نحاس ولا رصاص ولا قزدير ولا غير ذلك مما
يتوقف عليه منافع العباد كالحلى والأواني وآلات الحروب
والطبع والغزل والحراث والحصاد والرى والتجارة والسفن
البخارية والسكك الحديدية ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من
الذهب والفضة والمعدن نقود ولا زينة ولا منفعة . قال تعالى

(أفرايتم النار التي تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون
نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم)
كيف لا والحياة للانسان بدونها غير ممكنة في الأقطار
الباردة كبلاد سيبيريا ومعظم بلاد روسيا وأميركا الشمالية
فيدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستضاء بها في غسق
الليل ويهتدي بنورها - ولما علم المولى سبحانه وتعالى أن
كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى
إذا احتيج اليها وجدت واستعملت - وينبغي الاحتراز دائما منها
لأنه يحصل بسببها مصائب عظيمة وأخطار جسيمة (ومعظم
النار من مستصفر الشر)

١٠١

﴿ وصف حمام وفوائده ﴾

طرد الفكر سرح الكرى، عن ورد مقلتي حتى مطلع
الفجر واعتراني من شدة البرد هزة كما انتفض العصفور بالله
القطر فأشار عليّ من لا تسعني مخالفته ويفترض عليّ فرض
عين متابعته أن أسارع إلى القيام وأسير معه إلى الحمام فانسالت
إليه انسلال الحمام فإذا هو صقيل الأجسام ونظام النظافة

ودافع آفة القشافة

بيت بنته حكماء الورى
 مجاور النار ولكنه
 حرّ هو الروح لأجسامنا
 فيه ماء كقصبان اللجين أصفى من انسان العين يتكسر ذلك
 الماء النقى على ألواح من المرمر الوضى ظاهره عذاب
 وعقاب وباطنه نظافة جسم وثياب
 وجمام له حرّ الجحيم
 رأيت به توأبا في عقاب
 وزرت به نعيما في جحيم
 فيه المياه تتدفق والحيطان تترقرق أضوا من جبين الشمس
 وأعذب من منى النفس فائق الصنع مستحکم الوضع قد
 صفت مرآته ولمت صفحاته
 وبيت كأحشاء المحب دخلته
 أرى محرما فيه وليس بكعبة
 بماء كدمع الصب في حرّ قلبه
 توهمت فيه قطعة من جهنم
 ومالي ثياب فيه غير اهابي
 فاساغ الا فيه خلع ثيابي
 اذا آذنت أحبابه بذهاب
 ولكنها من غير مسّ عقاب
 بدور زجاج في سماء قباب
 يشير ضبابا بالبغار محللا

١٠٢

﴿ فوائد الحيوانات والرفق بها ﴾

خلق الله لنا الحيوانات لتساعدنا في أحوالنا المعاشية وقد علم الله أن بالناس حاجة الى أعمالها وهم لا يطيقون إعمالها ولا يقدرون عليها—ولو كلف الله العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصصون بعملها—وقد سلب الحيوانات العقل والذهن لتدل للإنسان—فمنها ما تركبه ونحمل عليه الأثقال ونستعمله في جرّ العربات وحرث الأرض ودرس الحب . قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) ومنها ما نتخذ منه أقواتنا من اللحم واللبن وما نضع منه ملابسنا وأغطينا وفرشنا بما يخرج منها من الأصواف والأوبار والأشعار وغير ذلك قال تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون— وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) وإذا كان الأمر كما ذكر فالواجب شرعا أن نرفق بها ونشفق عليها ولا نحملها ما لا تطيق ونطعمها ونسقيها مكافأة.

لها على ما تجود به علينا من الأعمال النافعة كل وقت قال ت
 (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون و
 فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم
 بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرهوف رح
) وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعن
 ويوم اقامتكم ومن اصوافها وابارها وأشعارها آتانا وم
 الى حين)

١٠٣

﴿ فوائد الوفاء بالوعد ومضار خلف العهد ﴾

ان الوفاء بالوعد من أفضل شمائل العبد وأوضح دلا
 المجد وأقوى دواعي الاخلاص والود وأحق الأفعال بالث
 والحمد وهو أصل المودة والصفاء وثمره المحبة والأخاء
 تعالى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان ب
 توكيدها — وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا — يا
 الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقول
 ما لا تفعلون) وقال عليه السلام (آية المنافق ثلاث اذا حد
 كذب واذا وعد أخلف واذا أوتى من خان) وقال بعض الحكماء

من لقي الله بلسان صادق وعامل الناس بحسن الخلائق وألزم نفسه رعى العهود والمواثق فقد أَرْضَى المخلوق والمخالق وأدرك في الفضل كل سابق

وما أصعب نكث العهود وأقبح تضييع الحدود وأكبر عصيان الخالق المعبود قال تعالى (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) وقال عليه السلام (لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) وقال الشاعر

فان جمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل ولا خير في وعد اذا كان كاذبا ولا خير في قصد اذا لم يكن فعل وعد كالوعد بمطل شديد يشيب الوليد سحاب الصيف أثبت من قوله والخط في صفحة الماء أقوى من عهده ومواعيد عرقوب أقرب الى الإنجاز من وعده

اذا قيل في الناس خليل فقل نعم خليل اسم شخص لا خليل وفاء وان قيل في الناس جواد فقل نعم جواد ركوب لا جواد عطاء وقال بعض الحكماء من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقه فلا خير عنده — وبالجملة أجمعت الأمم واتفقت الشرائع على أن لا نكث لعهد بعد ابرامه ولا نقض لعقد بعد احكامه

وهو أسـ مهدي عليه قواعد الايمان وبنيت عليه أركان
الاحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق وهو
أمر قبله العقل وصدق اللسان لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى
وعادت سماؤهم أرضا وأمسى عقد الحق محلولا وصارم الصدق
مغلولا ودم التناصف مطلولا فمن حفظ عهده وحافظ عليه
فقد أسرع الى الخير ووصل اليه
ثبتت على حفظ العهود قلوبنا ان الوفاء سجية الأحرار

١٠٥

﴿ مزار الرشوة ﴾

قد تقرّر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب
الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم
على ما يتخالف الأصول المتبعة أو يخل بالأمن والسكينة أو
يهتك حرمة الحقوق اتكالا على ما يضره في نفسه من أن
الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأي
وجه كان — وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة
لا يصح أن يقضى أمرًا في مصلحة لأحد إلا بالرشوة ولذلك
يرون أن من الواجب على من التمس إنجاز أي عمل يتعلق

بمصلحة أن يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالب به واجبات المصلحة التي أنيطت بدمته ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال ولا يكتفى بذلك في اقتضاءها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخلص حقه غنيمة باردة -- وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه أنه لا نجاح بدونها وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقربا لذوى المناصب وتذلا خبيثا لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد وتنفر منه نفس كل ذى احساس انساني مع أن حفظ الأموال من الضياع في ما لا ينبغي وصرفها في وجوها الضرورية أليق بفعل العقلاء وأصون لمحرّمات القانون وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة -- وأحسن طريقة لردع

١٠٦

﴿ فوائد الصبر ومضار القنوط والجزع ﴾

الصبر أصل تفرّعت منه فروع البرّ والاحسان وأُس
بنيت عليه قواعد الطاعة والايّمان وهو حصن منيع المكان
مشيد البنيان وجنة واقية وعزة باقية وقطب كرة الأمور
وعليه جميع الأحوال تدور فليس شيء من الفضل الا والصبر
سببه واليه منتسبه قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين
بما صبروا — انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال
عليه السلام (الصبر كنز من كنوز الجنة) وقال الشاعر
وقل من جدّ في أمر يؤمله واستصحب الصبر الا فاز بالظفر
وجميع خلال الخير وخصال البرّ وأحوال الطاعة وما جعل الله
في الانسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة
ودواعي الايمان انما هي كلها مرتبطة بالصبر كيف ما تأملتها
وعلى أي حال تدبرتها فيئتد جميع أحوال الدنيا كلها من السراء
والضراء مفتقرة الى الصبر راجعة اليه كانت النفس راضية
اليه أم كارهة له

وأما القنوط فهو خلة ذميمة وخصلة سقيمة يوهن القوى الجسيمة ويميت القلب ويعظم الخطب ويضعف النفس ويورث اللبس ويدل على فساد الطبيعة ويبعث على مخالفة الشريعة ولا يسكن الا القلوب المعتلة ولا يألف الا العقول المختلة فويل للهاوع الجزوع ما أتعس حياته وأكثر آفاته يقل صبره لما ينزل ويسوء ظنه بما يستقبل فلا يزال أخافكر ووجل عمره متصل بالنكد والنجس قال لقمان لابنه (واصبر علي ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) فان العبد اذا أطاع نفسه وأهملها وأسلمها ليد الجزع وأغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمها فقد نجسها حقها وأحرمها وهانت عليه وما أكرمها فسكنت الى الجزع وامتنعت من السلوان— وقالت الحكماء من قلّ صبره وعظم عليه أمره وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تين كفره

ضجر الفتى في الحادثات مذمة والصبر أليق بالرجال وأوفق

١٠٧

﴿ في التأنى السلامة وفي العجلة الندامة ﴾

لا تعجلن بأمر أنت طالبه فقلما يدرك المطلوب بالعجل

فدوالتأني مصيب في مقاصده وذو التسرع لا يخلو من الزلل
 أن التأني في العمل دعامة النجاح ومصدر الفوز والفلاح
 ومحور الحزم وعضد العزم وحصن السلامة وصراط الاستقامة
 به تسود الممالك وتنجو من العطب والمهالك قال تعالى (يا أيها
 الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وقال عليه الصلاة
 والسلام (من تأني أصاب أو كاد - التأني من الله) وقيل
 من تأني نال ما تمنى وقيل يد التأني تجني ثمرة السلامة ويد
 العجلة تغرس شجر الندامة - وقال الشاعر

الرفق يمن والأناة سعادة فتأن في أمر تلاق نجاحا
 وما أتعس العجلة والاسراع في الأمور فكم بذلك اندثرت
 مدن وقصور وما أشقى من ارتدى برداء الاستعجال ولم
 ينظر الى ما وراء ذلك في الاستقبال من تقلبات الأحوال
 بالدمار والوبال وتنعكس لديه القضية وربما تحول من جزئية
 الى كلية وتكون الداهية الدهماء والمصيبة العمياء والطامة
 الكبرى والضربة القاضية ويضرب أحماساً في أسداس
 من شر عجلة الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور
 الناس فيستفحل عليه الداء ويمز وجود الدواء ويتجرع

كأس الذل والشقاء ويخبط خبط عشواء وتستثقله الأرض
 فيصير من أموات الأحياء كئيباً ذليلاً قليل الرجاء وقد نهى
 المولى عن العجلة فقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال
 عليه السلام (العجلة من الشيطان ومن تعجل أخطأ أو كاد)
 وقال بعض الحكماء من استعجل في أمر قبل أوانه عوقب
 بحرمانه — وقال الشاعر

قد يدرك المنأى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
 ومن تأمل بعين البصيرة في حكمة خلق المولى تبارك وتعالى
 العالم في ستة أيام مع كونه قادراً أن يخلقها في أسرع من لمح
 البصر يرى من أيا التأنى الواجب شرعاً أتباعه

١٠٨

﴿ الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ﴾

ولا أوخر شغل اليوم عن كسل الى غد ان يوم العاجزين غد
 يعلم كل عاقل علم اليقين أن الوقت هو التبر الثمين وسيف
 قاطع وبرق لامع ومن الحزم انتهاز الفرصة وترك التواني فيما
 يخاف فيه الفوت ومن أعظم المصائب فوات الوقت بلا فائدة
 واكتساب عائدة قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل

وهو أسّ مهديت عليه قواعد الايمان وبنيت عليه أركان
 الاحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق وهو
 أمر قبله العقل وصدق اللسان لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى
 وعادت سماؤهم أرضا وأمسى عقد الحق محلولا وصارم الصدق
 مغلولا ودم التناصف مطلولا فمن حفظ عهده وحافظ عليه
 فقد أسرع الى الخير ووصل اليه
 ثبتت على حفظ العهود قلوبنا ان الوفاء سجية الأحرار

١٠٥

﴿ مزار الرشوة ﴾

قد تقرّر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب
 الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم
 على ما يخالف الأصول المتبعة أو يخل بالأمن والسكينة أو
 يهتك حرّمات الحقوق اتكالا على ما يضره في نفسه من أن
 الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأي
 وجه كان — وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة
 لا يصح أن يقضى أمرا في مصلحة لأحد الا بالرشوة ولذلك
 يرون أن من الواجب على من التمس انجاز أي عمل يتعلق

قال حكيم « لا تؤخرن عملا عن وقته فان للوقت الذي تؤخره
اليه عملا آخر ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها اذا ازدحمت
دخلها الخلل

وبالجملة ان ضياع الوقت لا يوازيه شيء آخر سواء مهما
كان نفيساً فاذا فرطت في متاع عزيز أو تحفة ثمينة أمكنك
استردادها بضرب من ضروب الحيل أما اذا فرطت بساعة
من عمرك وأضعفها بدون أن تكتسب فيها خيراً أو محمداً
لا يمكنك استرداد تلك الساعة لو بذلت في سبيلها مملء الأرض
ذهباً - فالوقت اذاً أتمن من الذهب وأعز منه

حياتك رأس المال والعلم ربحه وأخلاق أشرف بهن تصدر
وموسمك الايام فلتك حازماً والافذ والتفريط لا شك يخسر
ومن ضيع الأوقات ضاعت حياته وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكر
ودع غائباً من فائت ومؤمل فوقتك سيف قاطع ليس يعذر

١٠٩

﴿ أى الشخصين يؤثر في النفوس الوازع

الدينى أو الوازع السياسى ﴾

أن راحة المجتمع الانسانى وتقدم العمران معقودان.

بِحافظين أحدهما الوازع الباطن وهو (الدين) وتانيهما الوازع
الظاهر وهو (الحكومة)

أما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله واليه
يستند كل ما نجده من الخير في العبادات والمعاملات اذ هو
المظهر الحق للناس المبين لهم الطرق المؤدية لخيري الدنيا والآخرة
فيميزون بين الحسن والقبيح ويفرقون بين السقيم والصحيح
ويستحضرون خالقهم في السر والجهر فيديمون لبعضهم الائتلاف
والاخاء والاخلاص والولاء ويسعون جميعاً فيما به طيب حياتهم
وتشيد ملكهم لأن الجامعة الدينية أهم أسباب سعادة الأمم
وتقدمها — ولكن يا للأسف قد اعتل في صدور من اذا
عرضت لهم الشبهة ترددوا. وترحل عن صدور ادعياء العلم الذين
لن يوجد أبعد منهم عن الصواب في هذه المسئلة — وبالجملة
قد ابتلينا بضعف سطوته وخذل قوته ووهن شوكته فنحن
اذاً في زمن أحد الوازعين فيه عليل والآخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو في أصل طبيعته لا يبصر
ما يبصر ذاك ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفته من الحوات
السرية والوقائع الخفية وشتان ما بين الغائب والشاهد فكيف

به وقد صار ملتزماً أن يسد مسد أخيه عند من لم يبق لهم
والعياذ بالله وازع الباطن

١١٠

﴿ فوائد الكرم ومضار البخل ﴾

أن الكرم اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ولفظ
جامع لمعاني السماحة والبذل فالجود فعل محمود وعز موجود
ومن جاد فقد ساد قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)
وقال عليه السلام (السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلّة
الى الأرض فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة إلا ان
السخاء من الايمان والايان في الجنة) بخلاف البخل فانه أدنى
خلة وأودى علة قال تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم
الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) وقال عليه السلام
(اللهم انى أعوذ بك من البخل) قال الشاعر

وأمره بالبخل قلت لها اقصرى فليس الى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلاز الجواد ولا أرى بخيلاً له فى العالمين خليل
وقال بعض الحكماء، ثواب الجود ثلاثة خلف ومحبة ومكافأة
وثواب البخل مثلها تلف ومذمة وحرمان وقال آخر لو كان

شئ يشبه الربوبية لقلت الجود — وقال عليه الصلاة والسلام
 (البخل جامع لمساوى القلوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء)
 وعنه أيضاً أنه قال (السخي قريب من الله قريب من الناس
 قريب من الجنة بعيد من النار ولجاهل سخي أحب الى الله من
 عابد بخيل) وقيل ذلوا أخلاقكم للمطالب وعودوها على
 المحامد وعلموها المكارم وتحلوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة
 فمن جاد ساد ومن ساد شاد وخير المال ما أفاد حمداً ونفى ذماً
 وصان عرضاً وأدى فرضاً

وقصارى القول الجود وصف حميد لا يدرك شأواً كماله

ولا يبلغ المديح غاية حسنه وجماله

لنعم الجود سائر كل عيب وبئس البخل كشاف العيوب
 وكم مدحت به رجال وأحيا ذكركم على مرة الأيام والليال
 فمن هو حاتم وكعب بن مامة وممن بن زائدة والفضل ويحيى
 وغيرهم ممن دمرهم الدهر لولا أن الجود حفظ ذكركم
 ونقش أثرهم على صفحات الأيام وسير بهم الأمثال ولولا
 جودهم لنسخ ذكركم من الألسنة وحادت عن سيرتهم
 نقلة الأخبار

والبخل كشف المعائب فضاح المثالب يجعل صاحبه
مضغة في أفواء المذام وسبة في السنة الخواص والعوام

١١١

﴿رضاء جميع الناس غاية لا تدرك﴾

ولقد طلبت رضى البرية جاهداً فاذا رضاهم غاية لا تدرك

ان من الناس من يتقلد أسنى المراتب وأسمى المناصب

فيحاول المطالب ويزاول المآرب ويحكم السياسة ويرأم الرئاسة

ويراعى فيها ارضاء الخالق والمخلوق ولا يلبيه نعيم الصفاء

وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن اسداء المبرات

الى ذوى الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى

المهضوم حيث يعلم أن أحب الناس الى الله أنفعهم لعباده

وأكيس الكيسى من عمل لمعاده وأن من ولى الأمور وجب

عليه اسعاف الجمهور بدون تفرقة بين الحامل منهم والمشهور

فمثلته مثل الربان الذى يدخر الزاد فى سفينته ويحكم السكان

ولا يبجر الا على أمان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان

أجل — ان أحوال الانسان فى معاشه تشبه السفر فى

البحار اذ هي محفوفة بالأخطار والأكدار فيما يكون فيها

رعى البال مغبوط الحال ذا أعوان ومال اذن بالزمان قدأخنى
 عليه فالتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه
 مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس أن تلك الرئاسة التي نالها
 والمعالى التي طالها انما كانت عرضاً واتفاقاً وانها كانت عارية
 عنده لا خلافاً وان في وسع كل انسان أن يدركها مثله اذا
 ساعده الزمان — اذاً فلا غرابة في أنه لا يتأتى لأحد ولي
 الرئاسة وان انتهت اليه الآداب والكياسة أن يرضى جميع
 الناس ويستخلص مودتهم له من دون التباس فان أغراض الناس
 متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة وأهواؤهم كهبوب
 الرياح لا تستقر على اصطلاح

اذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا على لثامها
 ومنهم من يتقلد المناصب عفواً وهو غير مترشح لها فتجمع به
 الى حيث تلتوى عليه الأمور وتتجاذبه جواذب المحذور من
 المقدور فيخبط خبط عشواء وتطوحه الأهواء كيفما هوى ويشاء

١١٢

﴿ الصحة أم الثروة ﴾

الصحة أجل النعم التي أنعم الله تعالى بها على الانسان

وأرفعها مقاما اذ بها يطيب العيش ويهنأ البال قال عليه الصلاة والسلام (اذا أصبحت معافاً في جسمك آمناً في سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء) فالصحة لا يوازيها مال ولا يقوم مقامها عز ولا جاه لأنها الأصل الذي تفرع عنه الأعمال والأساس الذي تبنى عليه الخيرات قال عليه الصلاة والسلام لرجل كان يستمر في الصوم (ان لبدنك عليك حقا) وقال بعض الحكماء الزم الصحة يلزمك العمل وماذا تجدى الثروة اذا أصبح الانسان في آلام وماذا يفيد المال اذا وهنت الأجسام

لا أستلذ العيش لا أدأب له سعيوا وكدا في الهواجر والغلس وأرى حراما أن يؤايبني الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس فالصحة هي عين الغنى التام وظلال الأمان والسلام قال عليه الصلاة والسلام (ما رأيت أهنا من العافية) وقد قال بعض الحكماء ان من أهم شروط النجاح في دار الدنيا أن يكون الانسان قويا البنية ومن أهم شروط عزة الأمة أن تكون أفرادها أقوياء لأن النجاح في الصنائع للقوى من الصنائع وقد أجمع العقلاء على أن القوة العاقلة بدون الصحة

معطلة لا يمكنها الوصول الى الغاية المقصودة منها الا بها ولذا
كان الاعتناء بالتربية الجسدية ومراعاة جميع الوسائل الصحية
أمراً لازماً حتى تتسنى تربية القوى المفكرة

والجسم للروح مثل الربع تسكنه وما تقيم اذا ما خرب الجسد
وبالجملة فالصحة أئمن من الثروة فان الرجل يوجد بثروته

لملك صحته لأنه قد يستغنى بالصحة عن الثروة بخلاف الثروة
فانها لا تغني عن الصحة شيئاً - فالحياة بدون صحة عبء ثقيل

ومطالب الصحة انتظام العادات والرياضة اليومية والنظافة
والاعتدال في الأكل والشرب فمن حافظ على هذه المطالب

حفظ في الغالب صحته من الاعتلال وجسمه من الأسقام
والصحة خير قنية ويتلوها الجمال ثم الغنى المكتسب

بالطرق المحللة ثم الشباب

١١٣

﴿ فوائد السكك الحديدية ﴾

ان الانسان بواسطة هذه السكك صار يستغنى في سفره

عن عدّة أشهر ببعض أيام وعن عدّة أيام ببعض يوم أو بعض يوم

فضلا عما توفر عليه من ماله الذي كان يصرفه في سفره وما

اكتسبه من الراحة مما كان يكابده من المشاق والمصاعب
والعوائق فلا تروج صناعة ولا تتقدم تجارة ولا زراعة الا
بها لأنها هي التي تنقل المصنوعات من بلد الى بلد ومن مملكة
الى أخرى فيحسن حالها وتنقل حاصلات الزراعة من الثمار
وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتنائهم بها
وقصارى القول أن هذه السكك قد سهلت من السفر
كل خطر شديد وجعلت البلد البعيد أقرب من جبل الوريد
وسهلت المواصلات وقربت المسافات فعمت التجارة وعظمت
الأمارة وتلاها العمران في سائر البلدان وتيسر للعلماء وأصحاب
الصنائع السفر الى البلاد البعيدة والاطلاع على أمور كثيرة
وبذلك اتسع العلوم وتكثرت الفنون وغير ذلك من منافعها التي
لا تحصى ولا تكاد تستقصى . والفضل في ذلك للمهندس الشهير
(جورج ستيفنسن) في القرن التاسع

١١٤

﴿ فوائد الشناء والشكر ومضار جحود النعم والكفر ﴾
الشكر ترجمان النية ولسان الطوية وشاهد الاخلاص
وعنوان الاختصاص ومصدر السعادة وقيد النعمة ومفتاح

الزيادة وهو أمر محبوب ومرغوب فيه ومطلوب فلو كان
يجلّ عنه ماجد لعلوّ شأنه أو ملك لرفعة سلطانه لما أمر الله
عباده بشكره والتحدّث بنعمته وبرّه

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد لعزّة نفس أو علوّ مكان
لما أمر الله العباد بشكره فقال اشكروني أيها الثقلان
فشكر المنعم واجب والثناء علي المحسن ضربة لازب ونعمة
الشاكِر من النقص والنقض في أمان ومن السموّ والنموّ في
ضمان وهو تيمية لتمام النعمة - والسعيد من اذا أظلمت النعمة لم
يشتغل بسكرها عن شكرها فاذا أوتيت النعمة بالشكر ربعت
فتربعت واذا أوحشت بالكفر نفرت وطمعت قال الله تعالى
(لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد)
وقال عليه السلام (الشكر نصف الأيمان) وقال بعض الحكماء
الشكر قيد الوجود وصيد المفقود وكفران النعم وعنوان النقم
قال سيدنا عمر رضى الله عنه (النعمة داء ليس لها شفاء
الا الشكر)

الشكر أعظم ما حاولت ملتصقاً به الزيادة عند الله والناس

﴿ وصف حديقة الحيوانات بالجيزة ﴾

حدثني بعض الاخوان أن الجيزة بها بستان جمع أضاف
الحيوان فتقت الى رؤية ذلك المكان وحدا بي من الشوق
اليه حادي الركبان فسرت الى هذا الميدان والقرطاس بيدي
والقلم بالبنان فاول ما رأيته ملك الحيوانات وأشباله في غابة
من الغابات وهو ملك مهاب حديد الظفر والناب (أسد)
ضرغام وبطل مقدم ثم رأيت رعيته علي اليمين والشمال مرتبة
على هذا المنوال (فالقيل) له خرطوم طويل يشبه الصولجان
ويحكي في تلويح الأفعوان وأذنان كالترسين تحتهما نابان
كالرمحين شديد الغيرة حقود يرتاح الى الطرب (والزرافة)
التي حازت أنواع اللطافة عالية الصدر منحطة الأواخر جميلة
الأوصاف والمفاخر و (النمر) شرس الأخلاق دم الفريسة
بين يديه يراق وثباته لا تنكر وثباته أشهر من أن يذكر
و (الفهد) خصره رقيق واضح الجبين يتبختر ذات الشمال
وذات اليمين و (الدب) مشغوف باللهو واللعب كثير الشهوة
والطرب يقبل التعليم والتأديب ويأتي من بحر فطنته بكل

عجيب و (الذئب) الذى له الغدر شيمة والغنم لديه غنيمة
يألف الوحدة والانفراد ويسطو بأنياب حداد و (الثعلب)
رائع وعن جادة الطريق زائع وافر المكر والحيل يضرب
بخديعته المثل و (الضبع) حضاجر كنيته أم عامر موصوفة
بالعرج تفترس من دب ودرج و (النمس) صائل صائد ظهره
عظم واحد له يدان قصيران لا ينجو منهما طير ولا ثعبان
و (السنجاب) أبلق بطنه أبيض وظهره أزرق يأوى الأشجار
العالية ويسكن الأماكن الخالية و (الظبي) كحيل الطرف
ذكى العرف جميل الصفات حسن الالتفات و (القرد النسناس)
فى خلقه ما يشبه الناس معروف بالفهم والذكاء صبور على
السراء والضراء و (البيغاء) جميل الصفات قوى على حكاية
الأصوات فهمه صحيح ولسانه فصيح و (الهدد) وافر الهداية
نافر عن الضلالة والغواية يمد فى حله الفاخرة ويميس كأنما
ألبسه سليمان تاج بلقيس فياله من بستان أنبت السرور وحوى
أصافا حجة من التمار والزهور وفى وسطه تلك الحيوانات التى
لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها ولا أتحقق من أحوالها وأنبيائها
فتلوت اذ أدهشنى جمعها وخلقها (وما من دابة فى الأرض الا

على الله رزقها) ثم رجعت من حيث أتيت مثبتاً في (أسلوب الحكيم) ما رأيت

١١٦

﴿ فوائد التواضع ومضار الكبر والترافع ﴾

أن التواضع للناس من موجبات الألفة والائتناس وهو عبارة عن لين الجانب وخفض الجناح وهو خلق أهل العلم والصلاح قال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال عليه الصلاة والسلام أفضل العبادات التواضع وقال الشاعر
تواضع اذا ما نلت في الناس رفعة
فان رفيع القوم من يتواضع
فالتواضع سلم الشرف وموجب للترقى الى أعلى الغرف وهو
أجل منزلة وأفضل سجية وتاج الوقار وشعار الأتهار وشبكة
الشرف وأشرف الشرف

والكبر وصف في الأنام مذموم وصاحبه من الخيرات محروم. ممقوت من الله تعالى ومن العباد مسلوب طول حياته بالسنة حداد بل جدير بالخزي في حياته ومماته بل هو قتل شهواته ولذاته — قال حكيم « ألسنا أخوة هكذا يجب أن يكون الانسان أخا للانسان غير أن خزفاً يختلف عن خزف

في القيمة ولو كان من طينة واحدة » وقال آخر « الأحمق
كالرمل المنهار كلما قومت منه جانبا انهار عليك جانب آخر »
ومثله كالثوب الخلق ان رفاته من موضع تخرق من موضع
آخر — فالكبر عنوان الحماقة

وليس الفقر من اقلال مال ولكن أحمق القوم الفقير
ليت شعري أهل نسي المتكبر أصل وجوده ومنهل
وروده واغتر بنفس عالية وحياة فانية وتكبر على معاصريه
وترفع عن معاصريه أما يعلم أنه من نطفة مذرة وسيكون
جيفة قذرة وما بين ذلك حامل العذرة

أرى أبناء آدم أبطرتهم معيشتهم من الدنيا الدنية
فلم بطروا وأولهم منى أو افتخروا وآخرهم منية
فالتكبر مشئوم والمتعاضم مذموم — والتكبر من أخطر الخطوب
وأكبر القبائح والذنوب قال تعالى (أليس في جهنم مثوى
للمتكبرين — ولا تمش في الأرض مرحا — ان الله لا يحب
كل مختال فخور) وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة من
كان في قلبه مثقال حبة من كبر » قال الشاعر

وأحسن أخلاق الفتى وأجلها تواضعه للناس وهو رفيع

وأقبح شيء أن يرى المرء نفسه ربيعاً وعند العالمين وضع
وهو سبب محذور حامله ممقوت عند الله محقور يضعه الله
كلما ارتفع ويخفضه كلما طلع وهو أخبث سرائر القلوب
وأعظم كباثر الذنوب فلا يرى صاحبه أبداً الا غليظاً فظاً
لا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً وقد قيل « من ترك
الكبر استوجب الشكر » فالتكبر على الملوك سخافة وعلى
الأكفاء جهالة وعلى الأُسقاط خساسة

والتواضع سهولة الأخلاق مع الناس في مخاطباتهم ولين
الجانب في معاملاتهم وتجنب العظمة والكبرياء والتباعد عن
الاعجاب والخيلاء وهو حلية يتحلى بها الانسان وان كان
عاطلاً ويرفع ذكره وان كان خاملاً به يسمو في الدنيا قدره
ويعظم فيها خطره يملك صاحبه مودة القلوب وينال كل
مرغوب ومحبوب به يجتلب المجد ويكتسب الحمد وضده
الكبر وهو أقبح وصف يسلب من الانسان الفضائل ويكسبه
النقائص والرزائل

وبالجملة ان أقبح ما يرى عليه الانسان أن يكون متكبراً
لأنه بذلك ينسب لنفسه ما لا يصح أن ينسب اليه ويدعى

ما ليس في الامكان أن يناله وهذا ضرب من الخلل ودليل واضح على الجنون وبرهان ساطع على الغرور ومن غره السراب تقطعت به الأسباب - قال عليه الصلاة والسلام « لا يتواضع الا كل رفيع ولا يتكبر الا كل وضع »

١١٧

﴿ فوائد طاعة أولياء الأمور ﴾

الطاعة هي الحرم الأوفى والعروة الوثقى والكهف الأسمى والملاذ الأسمى من تمسك بجبلها سلم ومن لجأ إليها غم وهي أس الدين وأصل اليقين ومنهاج السيادة وطريق السعادة وأساس النظام الذي عليه مدار حسن الأعمال والسبب القوي لاصلاح الأمور وتحسين الأحوال بها تسعد البلاد والأوطان ويعم بها النفع وتتسع دائرة العمران فحق على كل فرد أن يمثل لولى أمره ويحفظ له الحق في احترامه وتعظيم قدره وأن يقوم بما عهد اليه من الأعمال بالكمال وأن يهتم بتأديته على أتم نظام وأحسن حال فان المرء اذا اتخذ الطاعة شعارا والامثال دنارا يرى رؤساؤه تقديمه على غيره ويفضلونه على أمثاله من أبناء عصره فينال منهم حسن الرضا وقت الغضب ويفوز منهم

بجميل النعم اذا طلب قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فقد قرن وجوب طاعة الرؤساء وولاية الأمور بطاعة الله ورسوله لأنها عبارة عنها ونيابة منها اذا سلك الرئيس الطريقة الجادة ولم يتعد الحدود المحدودة - وقال عليه الصلاة والسلام (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي) وقال الشاعر نشئت تحظى بالسعادة والني * فأطع ولاة الأمر في حسن امثال

١١٨

﴿ فوائد التربية ﴾

التربية طريق النجاح وسبيل الهدى والفلاح بها يرتفع الانسان من حضيض الهمجية الى ذروة المدنية وبها تستنير الأفهام ويعلم الحلال من الحرام بها يعرف الانسان ما ينفع وما يضر ويحزن ويسر بها يعلم المرء ما عليه وما له وهي التي تصلح شأنه وتحسن حاله بها يعلم الخير فيقتنصه ويحرزه والشر فيجتنبه ويتجاوزه وهي زينة الشباب وحلية المشيب بها يزدان المرء في جميع أدوار عمره ويتحلي بها في صغره وبعد كبره فكلما وجد في الأمة دعاة نصبوا أنفسهم لنشر الفضائل بين

بنها وخصصوا تمين أوقاتهم لغرس بذور التربية في مروج
 أذهانهم وعرجوا بهم عن مناهج أضداد الكمالات الانسانية
 من حيث هي مبادئ آلهية كلما ركزت فيهم الملكات الفاضلة
 وانطبعت فيهم الغرائز الكريمة ومالوا عن الشرور الى الخيرات
 وكلما تقوى هذا المبدأ الشريف بين أفراد الشعب كلما أخذوا
 في الارتقاء الى معارج الفلاح وتدرجوا الى أعلا مراتب
 النجاح قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون
 بالمعروف وينهون عن المنكر) فما أطيب ثمار التربية والتعليم
 وما أحسن غرس بذور العلم في نفوس الناشئين والناشئات أما
 اذا انفصمت عرى هذا المبدأ وتداعت قواعده وتناسى القائمون
 بالدعوة شأنها وأهملوا أمرها فأغفلوا النداء لأمهات الأخلاق
 السامية وعضوا النواظر عن تقويم الأفكار وتثقيف العقول
 وتهذيب النفوس بالتربية والآداب أسرع الفساد الى أفراد
 الأمة وتمكنت من نفوسهم الرزيلة وتغلبت عليهم الشهوات
 السافلة فتجنح أميالهم دائما الى الشرور وتحل النقيصة منهم مكان
 الفضيلة وتنحل جامعتهم فيكونوا قلوبا شتى لا رابطة تربطهم
 ولا جامعة تجمعهم وهنا تنحط الأمة الى أسفل السافلين

فسعادة الأمم والمجتمع الانساني انما يكون بالتربية الفاضلة
وتهذيب النفوس ودعوتها الى الخير ودربتها على الكمالات
الانسانية حتى تصير لها ملكات وغرائز - وأنه يستحيل أن
توجه أمة من الأمم الى الوجهة المثلى وجهة الفلاح الا بطريق
التربية التي هي تثقيف عقل الأبناء بالمبادئ الفاضلة « من العلوم
والمعارف » وتروض روحهم بالأخلاق الطاهرة وتعود ذنوبهم
على المعادات النافعة وتهذب أفكارهم بالآداب السامية
« آداب الشريعة والدين ودستور البلاد » ذلك هو منهج
الفلاح ومعراج النجاح هذا هو سراسر استواء هذه الأمم على
عروش السعادات هذا هو ينبوع الذي سوغ للغربي أن
ينتحل لنفسه حق الرئاسة على الشرق

وبالجملة تربية الانسان على نوعين نفسية وجسمية فتربية
النفس تكون بقلع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها وهي
من الأسرار التي عليها مرعاة السعادة الدنيوية والأخروية
وانما تفيد بيت روح العقائد الدينية في قلوب الناشئين وعدم
اكرامهم على تحمل الأذى حتى يشب المرء على حسن الخلق
وصفات الكمال كالمروءة . والشجاعة . والصدق . والكرم

ويكون بعيدا عن المنكر والشرور لا يكدر وجه الآداب
ويصبح .ألؤفا محبوبا يهدي الى الهدى ويصد عن الهوى
وعوامل التربية كثيرة منها الأم والأب والمؤدب
والمكاتب والمدارس وهي أهمها - ولذا تجد التربية تتفاوت
الا أنها أعظم من التعليم - اذ بصلاح التربية تصلح الأمم
وبفسادها يفسد الكون فويل لأمة لم تعتن بها فوالله ما امتلأت
السجون ويتمت الأطفال واستحكمت حلقات الجهل وعم
الضلال الا بترك التربية - وأن الشخص الذي يهمل ليكون
أشد من الوحوش الضارية وأحط من البهائم - ومن تربي
تربية صحيحة خليق به أن يقود الأمم ويرفعها الى أوج السماكين
ويكون من الداعين الى اعلاء كلمة الحق ورفع منار الاسلام
بيان أسرارہ وأوامره ونواهيہ وزواجره التي هي أس كل
عدل وناموس كل عصر ونظام كل ملة

والتربية أنجع ما تكون في الصبا الذي يفواته يفوت
المرء ما يؤمله من طلب السعادة ولذا كانت فيه من أهم المطالب
فان المرء في ابانه كالغصن في أوانه يقبل التقويم والتعديل
ولذا قال محي الدين بن العربي

لآتسه عن أدب الصغير وان شكا ألم التعب
 وذر الكبير فانه كبر الكبير عن الأدب
 لأنه متى أخذ في مبدئه بالتهذيب والتطبع بالأخلاق الفاضلة
 والمقاصد الشريفة انقاد الى ما يوحى الى فطرته الأولية ونشأ
 علي ما تعودده وجبل وسهل عليه فيما بعد صنيعه الخير بقدر
 بعده عن الشرور والذائل — وجلي أن التربية النفسية أفضل من
 التربية الجسمية اذ أن الأولى راجعة الى الروح والثانية الى الجسم
 يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
 انهض الى النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم انسان
 ومع هذا لا تنكر مزيتها فهي ماسة لا بد منها والاعتناء بها
 مما ينمى الأعضاء ويقوى الجسم من أنواع الرياضات البدنية
 والعقلية والألعاب والسباحة في البحر والجو — ونعم ذلك فان
 النفس متصلة بالجسم وبدون صحنه لا يستقيم الشعور وتفقد
 ثمرة الحواس التي هي أسباب المنافع والمعارف وهي تابعة له
 في القوة والضعف ولذا قال بعض المربين « العقل السليم في
 الجسم السليم » من ذلك ترى المريض تتغير صفاته ويختلف
 مزاجه وهذا ميل سببه انحراف الجسم وكذا ما يشاهد من

حال الشخص الهرم الذي وهنت قواه كيف يدرك التمييز والادراك وان من صح جسمه فاز بالحياة وأضحى في مجبوحه من العيش الرغد وبمكان من صفاء الخاطر والسرور وأمكنه التصرف في عناصر الطبيعة ومزاجه الغير في طلب الرقي والمكاسب لأن الأعمال مرتبطة بالأجسام والجسم خادم المرء وهو كالأشباح للأرواح فاذا صح حلت الحياة واذا ضعف أنهكتها مرارتها وان من يريد أن ينال من هذا المجتمع نصيباً لا ينبغي له أن يهمل جسمه ولا يكلفك ذلك غير نظرة لمن ضعفت أجسامهم فلا تلبث أن تراهم لا يلتذون بالوجود ولا يستطيعون أى عمل من الأعمال الضرورية فضلاً عن الحاجة والكمالية حتى أصبحوا عالة على الناس وشاركوهم في الحياة

١١٩

﴿ لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب ﴾
 من دلائل الحكمة وأفضل الفضائل المهمة الصمت وقلة الكلام احترازاً عن الوقوع في الآثام لأن من كثر لفظه كثر سقطه ومن تكرر مقاله سئم ومن كثر سؤاله حرم فكلام الانسان بيان فضله وترجمان عقله وكل يعرف بقوله

ويوصف بفعله ورب قول أنفذ من صول وطعن اللسان
 أنفذ من طعن السنان وجرح الكلام أوجع من جرح الحسام
 فالأولى بالإنسان صوت اللسان وهو صغير الجرم كبير الجرم
 جراحات السنان لها الثام ولا يلتام ما جرح اللسان
 فالكلام دواء ان قل نفع وان زاد وكثر صدع
 ان القليل من الكلام بأهله حسن وان كثيره ممقوت
 مازل ذوصمت وما من مكثر الا يزل وما يعاب صموت
 ان كان ينطق ناطق من فضله فالصمت درّ زانه ياقوت
 الخطأ بالصمت يختم والخطل بالكلام لا يكتم قال عليه الصلاة
 والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً
 أولي صمت »

الصمت يكسب أهله صدق المودة والمحبة
 والقول يستدعي لصا حبه الذمة والمسبة
 وقال بعض الحكماء الزم الصمت تمدّ في نفسك فاضلا
 وفي جهلك عاقلا وفي قدرتك حليما وفي عجزك حكيما واياك
 وفضول الكلام فانها تظهر من عيوبك ما بطن وتحرك من
 عدوك ما سكن — وقال آخر اعقل لسانك الا عن حق توضحه

أو باطل تدحضه أو كلمة تفسرها أو حكمة تنشرها
 الصمت زين والسكوت سلامة فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
 فلئن ندمت على سكوتك مرة فلتندم من على الكلام مرارا

١٢٠

﴿ إذا أراد الانسان السفر براً ولم يكن فيه سكك حديدية
 فما الذي يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان ﴾
 ان المولى سبحانه وتعالى كرم بنى آدم حيث جعل له
 السلطة العامة على جميع الحيوانات وسخرها له كيفما أراد فسخر
 الخيل للركوب ولحمل الأثقال في الحروب تسبق السيل
 في السير معقود بنواصيها الخير وراكب ظهورها فارس وهي
 أجل حافظ وحارس وزينة وعز وكنز وحرز قال تعالى
 (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وسخر لنا أيضاً الجمال
 لحمل الأثقال الثقيل وقطع المراحل الطوال مع مكابدة الكلال
 والصبر على مرّ النكال ولا يعترها من ذلك ملال تسير في
 الفيافي والصحراوات وتكبد الآلام والمشقات زهداً وفقراً
 وجلداً وصبراً على العطش والجوع حتى تحمل في الربوع
 وحينئذ الجمال أفيد في المواصلات كما أشار المولى الى

ذلك في الآيات (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا
 بشق الأنفس) فهي مطية الصحراء ومركب البيداء يتمكن
 راكبها من النوم عليها وتنقاد لمن بين يديها بخلاف الخيل فانها
 وان كانت تقتحم الطريق اقتحام السيل وتحوز قصبات السبق
 في ميدان السباق الا أنها ليس لها طاقة على المشاق والصبر
 على الجوع والعطش بضع ساعات كما تصبر الجمال جملة
 أيام معدودات

١٢١

﴿ فوائد العتاب ومضاره ﴾

ان العتاب حديقة المتحايين وروضة المتصافين وهو
 جلاء للمودة وصيقل للأخوة ونعم الدواء اذا عرض في
 الودّاء ومن لم يعاتب على الزلة فليس هو بحافظ للخلعة
 اذا ذهب العتاب فليس ودياً ويبقى الودّ ما بقي العتاب
 فالعتاب محمود بين الأصحاب بطريق الآداب مع المحافظة
 على الصحبة والأخوة وغيض النظر عن الغلطة والهفوة
 وأغفر عوراء الكرم ادّخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكريماً
 وقلة العتاب تحفظ الأحياب ومن عاتب على القليل والكثير

والحقير والخطير لا يجد له صديقا ولا خلا رفيقا
 اذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 وكثرة العتاب داعية الاجتناب تورث الضغينة وتولد البغضاء
 وتجلب الشقاء

ان بعض العتاب يدعو الى الحقـد ويؤدي به المحب الحبيبا
 قال بعض البلغاء مثل العتاب مثل الدواء ينقى به عارض الصدور
 ويشفى بمكانه مرض الصدور فاذا استعمل لغير علة عارضة
 وتنوغل بلا حاجة ظاهرة تحوّل دواء المحبة داء عضالا لا دواء له
 وبعض خلائق الأتوام داء كداء البطن ليس له دواء

١٢٢

﴿ الطب والأطباء في الهيئة الاجتماعية ﴾

الطب علم تحفظ به صحة الأبدان وهو كنز ثمين لما فيه
 من الفوائد الكثيرة والمنافع العديدة التي تعود على الهيئة
 الاجتماعية بالخيرات والبركات المفيدة وواسطة لقطع دابر
 الأمراض الوبائية واستئصال جرثومة الأوبئة الرديّة التي
 تكاد أحيانا تفتك بالنفوس فتكاسريعاً وتزهق بأرواح العباد
 زهقاً مريعاً وحينئذ صناعة الطب تهمّ كل طبقات الناس

والطبيب هو مطمح أبصار كل انسان رفيعاً كان أو وضيعاً
والانسان من حيث أنه يميل بالطبع الى البقاء ويخشى الفناء
كان مدفوعاً بالطبع أيضاً الى الحرص على الصحة التي هي
دعامة الحياة وقوامها — والحرص على الصحة يتوقف على
الأطباء الذين هم ركن عظيم في انتظام حال البشر — كيف لا
وبعلومهم ينال المرء الهناء في عيشه والتمتع بصحته والصحة من
أكبر النعم على الانسان بعد الوجود والأيمان

وقصارى القول أن الطب مهنة سامية وحرفة شريفة
عالية وأن الطبيب رجل الشعب تتوقف عليه أرواح العباد
ولا يستغنى عنه فرد من الأفراد فله المقام الأسمى والدرجة
الرفيعة في المجتمع الانساني ما دام متصفاً بمكارم الأخلاق
وأمهات الفضائل مبتعداً عن قبائح الصفات والرذائل
بالطب صحت جسوم الناس من سقم وبالاطباء أُنحى الكون معموراً

١٢٣

﴿ أيهما أفضل وأنفع للآباء المال أم الأبناء ﴾

المال روح تجي به أجسام الممالك وسراج يضيء به ظلام
الخطوب الحالك وسلطان قوى الشوكة والبطش شديد العزيمة

والبأس عليه قوام الصنائع وابرار مكنونات العلوم ونجاح
الاختراعات والمشروعات وقضاء الحاجات في جميع المهمات
فأى شخص رزق مالا لحظته السعادة وامتدت عليه غصون
السيادة فللمال الأفضلية والأولوية في المنفعة على البنين
وبديهي أن الحامل للمرء على جمع الأموال والسعي وراء
اكتسابها إنما هو الحصول على ما يقوم به أود حياته من
مأكل ومشرب وملبس وكل ذلك مقدم على أمر التناسل
وحب الأبناء

وكيف يكون للبنين فضل على المال وأنهم بدونها لا يصلح
أهم حال ولا يستقيم لهم شأن وبال — قال بعض الحكماء
العاقل يتخذ المال قبل العيال والجاهل يتخذ العيال قبل المال
وقيل انى أعجب ممن له عيال وليس له مال — وقيل العيال
سوس المال — وقال الشاعر

شيئان لا تحسن الدنيا بغيرهما المال تصلح منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهما كان الكتاب به من ربنا يرد
يعنى قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)

وقصارى القول أن الطبيعة البشرية لا ترى أفضل من

المال ولا أعز منه لا يخاله شيء في الوجود فمقام صاحب المال
ليس كمقام صاحب الأبناء

١٢٤

﴿ من عرف نفسه فقد عرف ربه ﴾

ان أول ما يجب على الانسان معرفة نفسه فمن عرفها
حق معرفتها وأجلها فوق مرتبته وأجلها محلها وبمحت في أمرها
وبعث فكره الى سرها فعرف ما هي ومن أي هي ولأي
كانت وبأي تكون ولأي خلقت ومن أي صدرت والى
أي تعود فقد قدرها حق قدرها — قال عليه السلام (من
عرف نفسه فقد عرف ربه)

هي النفس ما الانسان الا بها
بالشر أو في البر أو بالتقى
اذا اطمانت فالرضا وصفها
هذي مراتبها وفي خلقها
ومن وقف على دواعيها ودواهيها وعوائدها وروائدها ودسائسها
ووساوسها وما تتبعث اليه من شواغلها وعواملها وما تراح اليه
من شهواتها ولهواتها فردعها عن هواها وردّها الى أوامر من

سواها سلم من فجورها وشرورها وفازتقواها وبلغ من السيادة
 أقصاها ومن السعادة منهاها
 يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
 أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

١٢٥

﴿ فوائد اللسان ومضاره ﴾

اللسان أداة يظهر بها البيان ومخبر يخبر عن مكنون الجنان
 وحاكم يحكم بفصل الخطاب وناطق ينطق بالصواب وهو أعظم
 واصف تعرف بوصفه الأشياء وأكبر واعظ يأمر بالعرف
 وينهى عن الفحشاء وأصدق شاهد يستدل به على الغائب
 وأعز شافع تدرك به المطالب وأحسن سمير يسر به الخاطر
 وألطف مؤانس لمحاسن الأخبار ذاكر وأرق نديم يرتاح
 إليه الخليل وأجل مداح يشكر فعل الجميل وهو زارع ينبت
 الوداد وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد به تنكشف الحقائق
 وتبين الدقائق به يعرف مقدار العقل وتتضح نتيجة المرء
 في الفضل فاللسان للانسان كمرشد أمين وترجمان للكلام اذ
 به يفصح عما في ضميره ويحفظ الروابط والعلائق مع غيره

ويدفيه شرقا أن ليس من الأعضاء شيء ينطق بذكر الله غيره
فإنسان بدونه كبهيمة سائمة أو صورة ممثلة - قال بعضهم
ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو ضالة مهملة أو بهيمة
مرسلة - قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
ومضار اللسان لا تحتاح إلى برهان فمن لم يسجنه أوقعه في
الذل والهوان - فأعتل الناس من كف فكه وفك كفه
وشر الناس من كف كفه وفك فكه - - وقد قيل (مقتل
الرجل بين فكيه) وقال بعض البلغاء اللسان أجرح جوارح
الإنسان - قال الشاعر

يصاب الفتى من عشرة بلسانه * وليس يصاب المرء من عشرة الرجل
فعرته في القول تذهب رأسه * وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

١٢٦

﴿ عز من قنع وذل من طمع ﴾

القناعة من أوثق أركان العبادة وأقوى أصول الديانة
المؤدية إلى السعادة وهي ذخيرة لا تبلى مدى الأيام وكنز
لا يفنيه من الدهور والأعوام بل هي جنة عالية قطوفها دانية

فمن طلب العز طلبه بالطاعة ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة قال
عليه الصلاة والسلام (القناعة شرف المؤمن في الدنيا ومنزلته
في الآخرة) وقال بعض الحكماء متى قنع بماله استراح وراح
وقال الشاعر

أفادنى القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة
والطمع رق مؤبد ووثاق ذل موطد ومن يكن هذا شعاره
يكن الجشع دناره قال عليه السلام (خيار المؤمنين القانع وشرارهم
الطامع) وقال الشاعر

طمع الفتى ذل وعزة نفسه عز وكم شره يجر الى شرك
وقصارى القول أن القناعة نعمت البضاعة رأس الصلاح
وأس الفلاح ومصدر الفوز والنجاح والطمع من أقبح الخلائق
وأذم العلائق يدل على الأخلاق البهيمية والغرائز الرديئة
الدنية لا يزال صاحبه أبداً مذموماً وبأقبح الصفات موسوماً
قد تملك الجشع طباعه فلا تعرض له القناعة ولو كانت الدنيا
بأسرها متاعه بل شأنه أكل الدنيا خضماً وقضماً ولو استطاع
ما استوجب فيها أحد سهماً فلا تراه أبداً الا فقيراً لا يؤثر
ومقلاً لا يكتر ومنهوماً لا يشبع وجامعاً لا يقنع وناهضاً في

السرف لا يرجع ومقياً على الطمع لا يقلع

١٢٧

﴿ فوائد دار الآثار العربية ﴾

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار
ان أفضل ما استدلّ عليه الخلف على أعمال السلف الآثار
العربية التي هي من أهم الآثار فائدة وأعمها نفعاً من جهة
العلوم والفنون فانها ترشد الى الوقوف على فن التاريخ وتهدى
الى قديم عهد الأمة العربية وما لها من الذخائر التي انتفع بها
من بعدها وما وضعت من الأساس الذي انبنى عليه التقدم
لمن تأخر عنها فقد كان لها اليد الطولى على أهل القرون الأولى
يشهد بذلك ما بقي بعدها من الآثار وما نقل عنها في كتب
الأخبار من الأبنية الجميلة والصنائع الجميلة فان ذلك يعرب
عن مزيد قدرتها وشدّة مهارتها وعلوّ أفكارها— هذه الأهرام
من الآثار الجميلة التي جعلها المصريون محلاً لمعارفهم وأثراً
يستدل به من أتى بعدهم من الأمم على ما كان لهم من الإبهة
والفخار والعظمة والاعتبار فهو أثر يدل بصورته وشكله
على قدر ما وصلوا اليه من العلوم الهندسية وعلم جمر الأثقال

وفنون أنواع العمارة ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه زواياه
على أنه أثر فلكى تعين به الجهات وتعرف الفصول والانتقالات
فالمصريون كانوا بالغين النهاية في الفنون الهندسية وكل من
دخل أرض مصر وتأمل ما بقى فيها من الآثار التي هي من
أغرب العجائب يقف متحيراً ويطلق متفكراً فلذا اعتنت
الحكومة المصرية بشأن تلك الآثار والحرص عليها وحفظها
من أن تتولاها يد التلف والضياع أو يعثرها التغيير والتبديل
وقصارى القول ان بقاء الانسان بالآثار ان خيرا فخير
وان شرا فشر

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

١٢٨

﴿مضار الغيبة وقبائحها﴾

أن الغيبة أذم الأفعال مقصداً وأخبث الأقوال معتقداً
وأسوأ الأخلاق مذهبا وأصعب الأحوال مركبا بل هي
الداء العضال الوبأى الفاشى - قال تعالى (ولا يغتب بعضكم
بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)
وقال عليه الصلاة والسلام (الغيبة أشد من الزنا ومن شرب

الجر) وقال بعض الحكماء (من عاب وضيعاً فقد رفعه ومن عاب رفيعاً فقد وضع نفسه) فالغيبة «وهي ذكر انسان آخر بما يكره» شيمة الأوغاد وهي مجلبة للخراب والفساد وجهد العاجزين وسمار الفاسقين—وليت شعري كيف يأكل الانسان لحم أخيه بحية فيه فان كان من وصفه فيه ما ذكره فقد اغتابه ودحره وأظهر قبيحاً كان مستورا وهتك سترا كان مسدولا وفضح سرا مكمنا وأحلّ أمراً محرّما وما رعى ذمة ولا حفظ حرمة وان كان بريئاً مما أبان فافك وبهتان وكلاهما تمزيق أعراض وآثام وأمراض وهذا اذا كان الموصوف تقيا لا فاسقا جهنميا والاحلّت غيبته واسقطت درجته وهيبته لتتهكه بالمحرمات وجهره بالتهيات والمعصيات ما أقبح الشيم المخلة بالفتى وأشد منها شيمة الكذاب وأشد من هذا وهذا أن يرى لهج اللسان بغيبة الغياب

١٢٩

﴿مضار الحسد وأسبابه﴾

أن الحسد أصل كل عداوة ورأس كل بلية ورأس كل خطية وسبب كل ملامة وجالب كل ندامة بل هو داء دوى

وعرض خبيث ذنى يدل على فساد الدين وقلة اليقين وما زال
صاحبه كدر النفس نكد العيش قليل الأُنس قد فارق القناعة
وخزل الطاعة فهو حليف هموم وغموم ظالم فى زى مظلوم
قال تعالى (ومن شرّ حاسد اذا حسد) وقال عليه الصلاة
والسلام « ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »
وقال الشاعر

كل العداوة قد ترجى ازالها الا عداوة من عاداك بالحسد
فالحسد (وهو تمنى زوال نعمة المولى عن أحد خلقه) وصف
مذموم وصاحبه من الخيرات محروم كيف لا وهو كبيرة
من الكبائر وجرثومة الفساد ومجلبة السوء بين العباد يجمع
خصالا مذمومة ويتقتضى أحوالاً منكراً وأسباباً مشؤمة منها
بغض المحسود لغير سبب والحقد عليه دون ذنب وجب ومنها
انكار الحق وان ظهر واظهار الباطل وان استتر ومنها
الاعتراض للفضيحة والتجافى عن النصيحة والتصدى لكل
قيحة ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير وان
كان مفقراً اليه — قال بعض الحكماء حاسد النعمة لا يرضيه
الا زوالها ولا يشفيه الا انتقالها — وقال بعضهم الحاسد لا ينال

من المجالس الا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة
وبغضا ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند الشرع
الاشدة وهو لا ولا ينال عند الموقف الا فضيحة وهو انا ونكالا
وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

١٣٠

﴿ العاقل يعول على أدبه والجاهل يعتمد على نسبه ﴾
أيها الفاخر جهلا بالحسب انما الناس لأم ولأب
انما الفخر بعقل راجح وبأخلاق حسان وأدب
الأدب وما أدراك ما الأدب — الأدب كلمة جامعة
لمحاسن الأفعال وأحاسن الأقوال وهو أكرم الخصال
ورافع الأ حساب به يحصل المرء على الرغائب الجليلة ويتوصل
الى نجاح المقاصد الجميلة يرفع العبد المملوك ويجلسه في مجالس
الملوك وهو زيادة في الفضل ودليل على العقل وصاحب في
الغربة وأتيسر في الوحدة وجمال المحافل وزينة الأفاضل ومن
لم يكتب بالأدب مالا اكتسب به جمالا ومن قعد به نسبه
نهض به أدبه والمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت
ومن حيث يوجد لا من حيث يولد وبآدابه لا بثيابه

وبفضيلته لا بفضيلته وبعقله لا بعقائه وبأنبائه لا بآبائه
وبكماله لا بمجاليه

كن ابن من شئت واكتسب أدبا* يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول هأنذا* ليس الفتى من يقول كان أبي
قال بعض الحكماء لا يكون الشرف بالنسب ألا ترى ان
أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر ولو كان
ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر
لأن نسبهما واحد ولكن ذلك من قبل الأفعال لأن الشرف
انما هو بالفضل لا بالنسب

أبوك أبي والجد لاشك واحد ولكننا عودان آس وخروع
وقصارى القول أن من الناس من يتكل على حسب آبائه
فيفتخر به لدى جلسائه وأخلائه فى صباحه ومساءه ولا
ينهض لمآثره ولا يصبوا الى مفخره بل شأنه أن يقول فى
كل مجال ان أبى كان ذا فضل وجاه وجود واحسان حتى
سارت بحمده الركبان وشدا بمدحيه كل قاص ودان وهكذا
ينى أوهامه ويضيع ليليه وأيامه—ومن الناس من يقرّ بخسة
أصل أجداده ولكنه يفتخر بمجده واجتهاده حتى يحاول أن

يستر بفضله ما بدا من عيب أصله فاذا ذكر لأحد حسب
قال لا حسب الا الأُدب ولا فخر للمرء الا بنفسه لا بأصله
وجنسه وهذا القول في نفس الأمر صواب وهو الذي
يعتمد عليه كثير من ذوى الآداب وهو رأس مال الذين
لا حسب لهم وعليه يجعلون معوتهم الا أنه لا ينكر أن
للأصول تأثيراً في الفروع عظيماً فلا تكاد ترى ذات أصل زكى
الا وتتوسم فيه خلقاً وسيئاً وشأننا كريماً فاذا اجتمع الأصل
والفعل واقترنا كان ذلك غاية المنى والا فان هذا الثانى خير من
الأول وأكرم منه وأفضل

وبالجملة ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة
ولا بأهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تكون بالانسان
علي قدر ما يحوز من العلم والأدب فكما تكون في المهندسين
والحكماء وكما تكون في التجار وأهل الصنائع تكون في آحاد
الخلق من الفلاحين والصناع فليس الانسان بأصله وحسبه بل
بكمال عقله وحسن أدبه — فكم من امرئ مقطوع النسب
وصل بأدبه الى أعلى المناصب والرتب وكم من ذى نسب وأصل
هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير أزال بكمال

عقله دناسة أهله وأصله

لكل شيء زينة في الورى وزينة المرء تمام الأدب
 قد يشرف المرء بأدابه فينا وان كان وضع الحسب
 فالأدب باب الأرب ومفتاح الطلب ومصباح النجاح وراح
 الأرواح ومشكاة الفلاح وظرف اللسان ولطف الجنان
 ورقة البيان

الناس أجدر أن لا يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار احسان

١٣١

﴿ أيهما أفضل في بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء ﴾

الصيف خفيف المؤونة جليل المعونة كثير النفع قليل الضر
 راحة الفقراء والمساكين ناشر زهور الرياحين ونبات البساتين
 مصيف له ظل ظليل على الورى ومن حلاطما وحلل أخلاطا
 يعالج أنواع الفواكه مبديا لصحتها حفظا بعجز بقراطا
 فالصيف فصل الخيرات والبركات وموسم ضم المحصولات
 التي هي أرزاق المخلوقات وأوان تكاثر المعاملات

والشتاء كاس الهناء فيه تبرد المياه التي هي مادة الحياة

ويتميز الفقير وصاحب الجاه وينقطع الذباب والبعوض والهوام

ويؤمن على الطعام والشراب والأجسام—طول لياليه فرصة
الكتاب والأدباء وثمار الأصحاب والأحباء وغالباً يملك
الانسان صحته في فصل الشتاء

ليت الشتاء يعود لي بنعيمه ان الشتاء غنيمة الكتاب
قصر النهار وطال ليل ممتع فيه يلذ بقينة وشراب
وحيث أن بلادنا المصرية في أعظم نقطة متوسطة في القارة
الافريقية معتدلة الهواء في فصل الشتاء تقصدها السياح من
جميع الأنحاء ويحلو للمكل فيها كأس الصفاء لا يكاد أحد
ينكر فوائد الشتاء في هذه البلاد ولا يجهل فرده مضار الصيف
الذي تكثر فيه الامراض الوبائية لجميع العباد وينتشر فيه
البلاء المصور والهواء الأصفر الذي أورت الحكماء الحيرة
المسمى عندهم بالكوليره — قال بعض الحكماء لا مرحبا
بالصيف من ضيف فهو عون على الحيات والعقارب وناشر
للذباب والخنافس والمصائب وظئر البق الذي هو آفة الخلق

١٣٢

✱ صغار الأمور يولد كبارها ✱

ترق الى صغير الأمر حتى يرقك الصغير الى الكبير

لا يخفى أن الجزئيات أساس المركبات والأموال الصغيرة
مصدر الكبيرة وتقدر الاعتناء بالشئ، تكون الثمرة فالمعتنى
بصغار الأمور يجنى من كبارها الفرح والسرور والمهمل لصغار
الاعمال يلعق كأس الذل والوبال لأن المبنى على الصحيح
صحيح والمبنى على الفاسد فاسد

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة ان البعوضة تدمى مقلة الأسد
وفي الشرارة ضعف وهي مؤلمة وربما أضرمت نارا على بلد
فيلزم العاقل الاعتناء بالاشياء الصغيرة قبل استفحال الأمور
الكبيرة الخطيرة ولا يسوّل له الشيطان أنها أمور حقيرة
فكم آفات طامة كبرى ومصائب مدلهمة عظي نشأت من
عدم الاكترات بصغار الأمور فأطرت عليهم الخطوب
مدار الشورور

كل الحوادث مبداهامن النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
وأعظم شاهد وبرهان العيان الذي لا يختلف فيه اثنان فكم
شاهدنا حروبا خطيرة كانت لأسباب صغيرة وكلمة بسيطة
جرت دمارا وخربت ديارا وشرارة ضعيفة أضرمت نارا

ولا غرو أن الاستهانة تجلب الندامة ولا ينفع الندم
 حيث زلت القدم وان الاعتناء حصن منيع وحرز رفيع يتقى
 به العاقل صدمات الشرور ويحفظ نفسه من مخالب الدهور
 وبالجملة ان الحياة مؤلفة من أمور صغيرة شأن كل عظيم
 في الدنيا ولا نجاح في مطلب من المطالب الا باعتبار دقائقه
 الصغيرة ولو لم يكن لها قيمة في نفسها والذين يقصرون نظرهم
 على كبار الأمور ويهملون صغارها لا يسلمون من الفشل
 أى أمر أقل اعتباراً في عين السياسي المحنك والفيلسوف
 النقريس من تنظيف البيت وما فيه ولكن نظافته تجيد صحة
 ساكنيه وتدمت أخلاقهم — وأى نفع أعظم من هذا من
 كل ما ألفه البشر في السياسة والفلسفة . واهتمام الناس بصغار
 الأمور يدل على اهتمامهم بكبارها — قال حكيم محك الرجال
 صغائر الأعمال — وقال الشاعر
 جنيت على نفسي لأن تأخرى أنى لى باهمالى صغائر أعمالى

١٣٣

﴿ النيمة ومضارها ﴾

النيمة من أكره الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة

وطبيعة لئيمة مشغوفة بهتك الأستار وافشاء الأسرار وربما
أدت الى سفك الدماء وانتهاك المحارم وهي جامعة بين النم
والغيبة فكل نمام معتاب وليس كل معتاب نماما - قال تعالى
(ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) وقال عليه الصلاة
والسلام (شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي
يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث) وقال بعض الحكماء
لم يمش ماش شر من واش - وقال الشاعر

تنح عن النيمة واجتنبها فان النمَّ يجبط كل أجر
يتير أخو النيمة كل شر ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلما وليس النم من أفعال حر
فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم أن يحترس من النمام
جهده ويجتنب مخاطبته ويعاف مجالسته ويزهده في صحبته
ويرغب عن ممازجته ولا يثق به في حال من أحواله ولا
يأتمنه في شيء من أقواله وأفعاله فان صحبته غرر ومخاطبته خطر
وقصارى القول أن النيمة (نقل كلام الناس بعضهم الى
بعض على وجه الافساد بينهم) من أعظم الذنوب عند الله تعالى
كيف لا تكون النيمة من أعظم الذنوب وأقبح العيوب

وهي المفرقة للقلوب والباعثة للخطوب والنزلة للكروب
قتل النمام ما أكفره وخذله وخيب أمه انه شريك الشيطان
وعدو الانسان

١٣٤

﴿ فوائد البريد «البوسته» والاسلاك البرقية «التلغراف» ﴾
المخترعات في الدنيا كثيرة وقد صارت سهلة بعد أن
كانت خطيرة وأحسن عظيم اخترع وأفيد شكل غريب
ابتدع «البريد» فقد قرّب البعيد وجمع شمل الأحياب
وحفظ روابط الألفة بين الأصحاب وبه وقف التجار على
حقيقة تجارتهم مما راج وكسد ومما هبط وصعد لاسيما ما أنجمه
السلك البرقي من سهولة تعاطى الأخبار وإيصال نتائج الأفكار
إلى جميع القرى والأقطار على تنائي البلاد والديار وبعد المنزلة
فأصبحت به البلاد المتناية وأقطار الأرض الشاسعة والأماكن
القاصية متصلة بعضها حتى تيسر للإنسان أن يخاطب صاحبه
في كل جهات الأرض ويخبره ويحادثه مواجهة مشافهة وقربت
الصلاة التجارية والسياسية ويسر على التجار معرفة الأسعار
في جميع الأقطار أقرب من لمح الأبصار

وبالجملة فبواسطة البريد والاشارة الكهربية في البر والبحر صارت جميع بقاع الأرض متصلة ببعضها والأخبار واردة من جميع جهاتها ففي الأربع والعشرين ساعة تعم الأخبار جميع جهات المعمورة - فما أعظم مخترعات هذا العصر وما أجمل فوائدها

١٣٥

﴿ فوائد السباحة في الماء ﴾

ان مما يفيد الشبان صحة في الجسم ونشاطا وقوة في الأعضاء والعضلات السباحة اذ هي كافة بالاستحمام وتقوية الأعصاب والأجهزة البدنية فان حركة الزراعين توسع الصدر وتقوى الرئتين لدى الشهيق والذفير وقد اعتنى بها الأمم القديمة والحديثة بتعليمها للابناء فكان الرومانيون يجعلون السباحة من جملة العلوم التي تأخذ بها الأبناء وبلغ شغفهم بها الى أنهم كانوا يضربون المثل للجاهل الذي لا يعرف شيئا بقولهم هو لا يعرف القراءة ولا السباحة - وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الأمصار بتعليم الأبناء العوم والفروسية وترى أغلب سكان أوروبا وأمرون الأبناء بتعلمها فسكان

السواحل يقيمون على البحار حمامات مخصوصة للسباحة وأما
سكان المدن التي لم تكن على البحار فيقيمون ضمن حماماتهم
محلًا متسعًا أشبه بميضية عميقة ومستطيلة لتعليم السباحة أمام
معلمين ومعلمات — وقد قال أحد فلاسفة اليونان الصلاة للأديان
والنجوم للأزمان والسباحة للأبدان

١٣٦

﴿ فوائدا لأعضاء الجسمية من الرياضة البدنية ﴾

قد ألفت جل شأنه بين الجسم والنفس فكل يشارك
الآخر في أحواله من السرور والحزن والقوة والضعف فلا
تكاد ترى من ضعفاء الجسم قوّة النفس وخفة الروح ومضاء
العقل ودوام العمل ومن انصاع إلى الدعة والسكون وأجاب
داعي الكسل والخمول عاش ولا ريب كثير الأمراض لا يفرح
بالوجود ولا يلد بالحياة

والحركة البدنية داعية إلى صحة الجسم وإلى نشاطه حيث
تبعث فيه قوة على تحمل التأثيرات الجوية ليكون بعيدا عن
الأمراض وتكسبه رشاقة القد وحسن القوام وجمال الأعضاء
وتحفظ من ارادة الانسان وتضبط من تخيله وتولييه نفوذاً

وسلطانا على الجسم وميلا الى العمل والدوام عليه وسرورا بقبول
 الاثار الظاهرية وارتياحا الى مصادمتها— وقد قدرت الأطباء
 أن عمل العضلات يدعو الى دوران الدم وسيره في سائر
 الاعضاء فتتخلص الرئة والاجهزة الباطنية ومركز مجموع
 الاعصاب من كثرة الدم وان عدم الانتظام في سير الدم يوقع
 الجسم في الأمراض ويضعف أعضاء التحليل وبذلك يجد الانسان
 من نفسه ميلا الى الضعف والكسل وعدم ارادة الحركة ويؤدي
 ذلك الى عدم القدرة عليها فيما بعد وتستولى عليه السوداء ويصير
 قليل الصبر قلق الخاطر كثير الهواجس ويلحظ الدنيا بعين ملؤها
 سخط وكرهية الى غير ذلك من الامراض الجسمية والعقلية
 التي تكدر صفو المعيشة وتجعل الحياة مرة

وكانت الرياضة البدنية لدى الأمم القديمة ولم تنزل الآن
 في أمم أوروبا أهم موضوع لتربية الأبناء فكانت هي والموسيقى
 الأساس الوحيد للتربية لدى اليونان فالموسيقى تهذيب نفوسهم
 وترويحها وتربية ذوقهم الأدبي - والرياضة البدنية لتقويم الجسم
 حتى تكون صورته مشخصة للنفس المهذبة في جسم صاحي
 الحواس نشيط الأعضاء

وكانت العرب كثيرى الرياضة والألعاب دعاهم الى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والزود عن الشرف والميل الى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وحب النشاط وسرعة اجابة المستغيث— ثم ان للرياضة البدنية أنواعا كثيرة كالعدو (أى الجرى السريع) وتسم الجبال وحمل الأثقال والرمى الى الهدف ولعب الكرة وركوب الخيل والسباحة والتجديف وأعمال الفلاحة والصناعة وحركة الجمباز وغير ذلك

١٣٧

﴿ من أقوى أسباب النجاح الهجرة والسفر ﴾
 ليس ارتحالك تزداد الغنى سفراً بل المقام على خسف هو السفر
 ان ميزان الأخلاق ومنهل الأرزاق ومحى الأموات
 فى جميع الأوقات هو السفر الى بعيداً ما كن ومفارقة المساكن
 بلاد الله واسعة الفضاء . ورزق الله فى الدنيا فسيح
 فقل للقاعدين على هوان اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا
 اذا أول مزاياه فى دار الحياه معرفة المرء طوائف الرجال
 واكتساب حميد الخصال فيقارن المرء أخلاقه بأخلاقهم وعادته
 بعادتهم فما بين أخلاقهم الفاضلة هجره وما شذ عن عاداتهم

الكاملة كفره فتنسج أخلاقه على منوال الفلاح وتوزن بميزان
النجاح وتتجلى بزينة الفضائل وتتخلى عن وصمة الرزائل
سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدراً
وثانى مزاياه أن يعرف أساليب الأرزاق ميسورة الوفاق
قريبة المنال كثيرة النوال بعيدة الموانع جليلة المنافع فالسفر
أحد أسباب العيش التي بها قوامه وعليها نظامه فبالإسفار
ترى العجائب وتجلب المكاسب تزيدك علماً بقدره الله وحكمته
وتدعوك الى شكر نعمته

وان بنت بك أوطان نشأت بها فارحل فكل بلاد الله أوطان
وثالث مزاياه أن يرى الاقرار بفضائله وحسن شمائله لأنه
في بلده مهجور وفي غيرها مشهور كما هي سنة الانسان في
كل مكان وزمان وفي محله لا تعزى اليه فضيلة ولا تنسب
اليه جميلة فمتى جاوز الانسان بلاده نال ما أرادته ونشرت
سيرته وحمدت سيرته وصار للحياة أهلاً وللكمال أصلاً
وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى الا بلاء
وبعض خلائق الأقطام داء كداء البطن ليس له دواء
ولم أر كأمري يدنو لخسف له في الأرض سير وانتواء

فالماء العذب ان ركذ خاب وان جري طاب
 الماء يتن ان أقام وان جرى خلصت جواهره من الأقدار
 والسيف في غمده على صداء وفي غيره الى جلاء والسبع
 ان ترك غابته قنص فريسته والبدر عند غيابه يترقب نوره
 ويرجى سروره والتبر في أرضه رما دخفي وفي سواها تقدو حلي
 لولا التغرب ما ارتقت درر البحور الى النحور

١٣٨

(* ورق النصيب ومضاره *)

أمر النصيب معروف عند العامة فضلا عن الخاصة وهو
 بالحق فكرة ابليسية يقصد بها ابتذار الأموال باغراء وانغواء
 فمن الناس الذين لا عقل ولا دين لهم يطلبون السعادة من يد
 البخت لا من يد الكد ولا يلتفتون لقول الشاعر العربي
 ليس الحياة بأنفاس ترددها ان الحياة حياة الفكر والعمل
 ويعتقدون أن القدر أضمر لهم حظوظهم فيفحصون عن
 هذه الحظوظ ان سعادة أو شقاء في أوراق النصيب وغيرها
 ومعلوم أن العيش لا ينال الا بعرق الجبين لأنه يستحيل
 أن يحصل كل انسان رزقه من أرباح النصيب والا فمن يقوم

بالأشغال الأخرى التي عليها مدار البقاء وبها حركة المجتمع
الانسانى - وبالجملة فتحریم (ورق النسيب) كتحریم (الميسر)
واتخاذها وسيلة لجمع الصدقات عمل غير مأجور ولا مبرور ولا
مقبول عند الله تعالى والذنب فيه على المتصدق مضاعف لأنه
يتصدق بحرام ويطم المتصدق عليهم حراما وهم لا يعلمون

١٣٩

* (الاستقامة من أقوى أسباب النجاح) *

الاستقامة هي الاعتدال في جميع الأمور من الأقوال
والأفعال والمحافظة على جميع الأحوال التي تكون بها النفس
على أفضل حالة وأكملها فلا يظهر منها قبيح ولا يتوجه إليها ذم
ولا لوم وذلك إنما يكون بالمحافظة على الشرع الشريف والتمسك
بالدين والوقوف عند حدوده والتخلق بالاخلاق الفاضلة
والصفات الكريمة كاجتناب المحارم والتعفف عن المآثم وابتعاد
الجانب والصدق وانجاز الوعد وبذل النصيحة والشفقة على
مخلوقات الله وأداء الأمانة لمن ائتمنه منهم وكف اليد واللسان
عن أذيتهم وبذل الشفاعة والعفة والورع وغير ذلك - قال
تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اتنزل عليهم الملائكة

ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فهي من أفضل الحاصل وأجل الخلال فيها كمال المروءة وتتمام الايمان وبها تكسب الفضائل وتسلب الرذائل وتحمد السير وتحسن السريرة — قال تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) فما أحسن الاستقامة وأجلها للخير وأدرّها للرزق قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال الشاعر

حيثما تستقم يقدر لك الله نجاحا في غابر الأزمان
فلا استقامة قاعدة نظام الأعمال فاذا انتقضت اختل ذلك
النظام وعلى مبدئها الصحيح تروج تجارات التجار وتجرى أعمال
جميع العمال وأصحاب الأعمال في سبيلها — ومهما كان المرء
شريراً وكان مستقيماً في معاملته دار دولاب عمله

وبالجملة ان آمن طريق يسير فيها من برئ الى العلاء هي
طريق الاستقامة والقيام بالواجبات طريق الهدى والابتعاد
عن اللهو واللعب — هي الطريق التي سار فيها الذين سادوا
بحق — هي الطريق التي نزلت بها الشريعة الغراء

١٤٠

﴿ منافع الفحم ومضاره ﴾

الفحم جسم صلب هش سهل السحق أسود اللون ويكون اما بتقطير الخشب أو احرقه في الهواء المطلق احراقاً غير تام كما هي عادة تحضيره واما بتكليس أى احراق العظم في اناء مغطى ويكون الفحم ثقيلامتى كان متحصلاً من الخشب الصلب الكثيف وخفيفاً متى حصل من الخشب الأبيض الخفيف ويختلف احتراق الفحم باختلاف خفته وكثافته فكما كان خفيفاً سهل احتراقه والتهابه وبضد ذلك اذا كان كثيفاً ولذا يستحسن استعمال الفحم الخفيف لعمل البارود

وأما المضار التي تسبب عن احتراق الفحم ويجب التحرز منها فهي اذا أحرقت الفحم في حفر النار أو في المناقد تولد عن ذلك غاز يسمى أو كسيد الكربون وذلك ان كان مقدار الفحم المتقد زائداً أو تولد عنه غاز حمض الكربونيك ان كان مقداره قليلاً أو تولداً معاً وكلاهما سم قاتل فان بهما أو بأحدهما تحدث آلام في الرأس وتقل ودخان وابتداء اسفكسيا (أى اختناق) وذلك كله ان كان ايقاد الفحم في محل محبوس الهواء وليس

الهواء متجدداً فيه وانا ترى كثيراً من أرباب البيوت يستعملون الفحم وقوداً في بيوتهم للتدفئة في زمن الشتاء خصوصاً في الحال المحبوسة الهواء كالخزائن الصغيرة والمناظر والحمامات فالذي ينبغي لهم في هذه الحالة أن لا يدخلوا الفحم المتقدم في موضع من المواضع المذكورة الا بعد أن يلهب جميعه في الهواء المطلق ويصفو بحيث ينقطع دخانه وبذلك يكون الانسان آمناً على نفسه من مضراته الهائلة وغازاته القاتلة

وأما منافع الفحم فعديدة منها استعماله وقوداً في البيوت وفي الصنائع ومنها دخوله في تركيب أنواع البارود ومنها امتصاصه المواد الملوثة والغازات (خصوصاً الفحم النباتي) بواسطة مسامه أي أخليته الكائنة بين جزئياته وهذه الخاصية صيرته نافعا في الصنائع لازالة المادة الملوثة من بعض المحاليل كما في صناعة السكر وكما في الأعمال الكيماوية ولازالة العفونة من السوائل والأطعمة فاذا وجد الماء منتنا وأريد زوال عفونته واستعماله للشرب أو خلافه يرشح على طبقة من الفحم . واذا أتت الطعام وجعل الفحم في خرقة نظيفة وأغلى مع الطعام أزال عفونته وصيره صالحاً للأكل وكذلك ينفع الفحم لحفظ الماء

من التعفن ولذا تجد البراميل المعدة لحمل الماء في السفر يظلي باطنها بالفحم خفيفا لتحفظ الماء من التغير زمنا طويلا . ومن منافعه أيضا حفظ المواد العضوية من التعفن . وله استعمالات طبية باطنية وظاهرية وغير ذلك والله أعلم

١٤١

﴿ الهواء وفوائده ﴾

بديهي أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بدون الحصول على مقدار معلوم من الهواء فهو غذاء ضروري به تنتعش القوى وتنبه الحواس وضرورته كضرورة الطعام والشراب بل أهم لأن الانسان يمكنه المكث من غير أكل أياما ولا يمكنه الاستغناء عن استنشاق الهواء لحظة — قال بعض الحكماء كيفما يكن الهواء يكن الدم وكيفما يكن الدم تكن الصحة وقال بعضهم ان زهرة الانسان أحوج الأزهار الى الهواء والشمس — ألا ترى أن سكان الأرياف مع عدم جودة غذائهم أصح من سكان المدن أبدانا وأقوى أعضاء وماذاك إلا لجودة الهواء الذي يعيشون فيه

وبالجملة الهواء من أجل النعم التي أنعم الله بها على جميع

المخلوقات لشدة لزومه للحيوانات والنباتات اذ مدار حياتها عليه بحيث لو انقطع عنهما ولو مدة وجيزة لمات الجنسان بلا توان — ومعلوم أن الانسان قد يعيش أكثر من شهر بلا تناول طعام وبضعة أيام بلا شرب ماء ولكنه لا يعيش أزيد من خمس دقائق تقريبا اذا انقطع عنه الهواء — ولما كان من الضروريات الشديدة اللزوم لحياة كل ما أوجده الله تعالى من حيوان ونبات جعله عاما منتشرا في جميع المحال فلا يخلو منه موضع حتى ما نظنه فارغا مثل الاناء الذي ليس فيه ماء ولا غيره فانه في الحقيقة ليس فارغا بل مملوءا بالهواء — ومن كرمه سبحانه وتعالى أن جعل وجوده سهلا لا ندفع له عوضا ولا نبذل له تمنا

١٤٢

﴿ فوائد التمثيل ﴾

التمثيل مرآة ترىنا أطوار الأقدمين في أشباح المتأخرين وتاريخ يطلع فيه الخلفاء على عوائد السلفاء بل حلم في يقظة ترى فيه أحوال الأجيال الغابرة في الآونة الحاضرة وعظة بأغرب العبر لقياس ما يأتي على ما عبر بل هو صورة تظهر فيها العواطف والاخلاق مرسومة بمداد الملامح والأحداق — ففي المشهد

يتجسد ملاك الحب وتانس آلهة الجمال متسرابة بحلل الكمال
وفي المشهد تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران ويشخص الوفاء
والاخلاص والعفاف وكل سجايا الانسان — فما التمثيل الا
معرض تستعرض فيه العواطف والفضائل والرذائل والعوائد
والأخلاق فكما يتهيج النظر باستعراض المناظر الجميلة هكذا
تتهيج النفس باستعراض العواطف الواضحة في صور الملامح
البدنية — ولا يخفى أن العواطف تتفاهم بلغة الملامح فبقدر
ما يجيد الممثلون في اظهار احساساتهم وانفعالاتهم المقتضية
أدوارهم يتأثر المشاهدون وتتحرك عواطفهم تبعاً للملامح
الممثلين فالتأثر من التمثيل غير متناه لأن الاجادة فيه غير متناهية
أيضاً ولهذا لانعجب اذا رأينا الحاضرين في الملعب يذرفون
الدمع مدراراً اشفاقاً على الممثل اذ يمثل دوراً محزوناً أو يطرقون
فرحاً مع الممثل اذا كان فرحاً مسروراً لان العواطف تحاكي
نظراءها — ألا ترى أنك تبكي مع الباكين وان لم يكن
الداعى الى البكاء ما يعينك وترثى للتعساء وان كنت سعيداً

وتفرح مع الفارحين وان كنت لست من ذوى الفرح
وبالجملة التمثيل من أعظم البواعث على تأديب النفس

وحسن تهذيبها وبذلك كبرت فوائده وعظمت مزاياه التي
لا تحصى ولا تستقصى

١٤٣

﴿ فوائد الثبات في الأعمال والمثابرة عليها ﴾

إذا كنت ذارأي فكن ذاعزيمة فان فساد الرأي أن تترددا
الثبات في الأعمال يكون بالمثابرة عليها ومقابلة الأهوال
والمشقات والصعوبات التي تعرض له في أثناء سعيه وراء النتيجة
المقصودة له من تلك الأعمال بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى
يحصل عليها وينال أمنيته منها فاذا عرض له ما يظن معه صعوبة
الوصول الى النتيجة المطلوبة له فلا يكون ذلك حائلا دون
الاستمرار في العمل فانه لا صعب مع الاجتهاد وتوجه النفس
والرغبة في ذلك الشيء المطلوب كل ذلك مع تدقيق النظر
والفكر والتؤدة في العمل وتخير الوقت المناسب في الحالة
المناسبة وعدم الميل الى جانب الافراط فانه ممل ومتعب ولا
الى جانب التفريط لعدم نجاح العمل معه فمن لازم الثبات بهذه
الكيفية وجعله أساسا في سائر أعماله كانت السعادة احدى
خطياته والنجاح أسير خطواته والفلاح قرينه والبز بيتا هو

قطينه ومن استفزته الأهواء وطوّحت به الحوادث فاشتغل
كل يوم بعمل وكدة غير حكيم واجتهد غير عليم فلا شك أنه
لا يجنى غير الشقاء والتعاسة والعناء بدون ثمرة تعود عليه أو
فائدة ترجع إليه

فالثبات هو الاستمرار في العمل بلا انقطاع عنه الى
البطالة — وفي الأقوال المأثورة (الثبات عنوان النجاح) ولا
شك في أن الذين نجحوا هم الذين ثبتوا في أعمالهم ولم يضيعوا
أوقات العمل في اللهو والبطالة

وبالجملة فالدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم وتبارى عليه الأمم
فمن سبق فاز بالحسنى وكانت يده في هذا الوجود هي العليا
ومن قصر وونى كانت يده هي الدنيا وعاش عيشة الأذل
الأدنى وإنما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر
وليس في الوجود عمل الا ويحتاج الى الثبات بنسبة ما فيه من
المشاق ولا يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها الا المثابرة
عليه والثبات له — وفي الحقيقة فان ما أفاض نور العقل على
نفس الانسان من هدى وما حرك الآمال فدفع بالرجال الى
جلائل الأعمال فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء واستخرجوا

كنوز الغنى والثروة من بطون الأرض وما عمر الأرض وأحيائها وشيد دعائم المدنية وبنائها وما مكن في النفوس رغائب الحياة فتنافست بحاسن الأعمال واستمسكت بعروة الجد فبلغت منتهى الكمال الا بالثبات الذي هو قوّة في النفس تحتاج الى سبق الارادة وصدق العزيمة مع التصميم الذي لا يشوبه التردد في الرأى

وما قام لوجود البشر وجود وقرب طريق السعادة للانسان كالثبات - وفي المثل من ثبت نبت ومن صبر ظفر والمتصفح صفحات التاريخ يجد أن الثبات من أهم دواعى سيادة الأمة الاسلامية على الأمم وترقيتها في معارج المجد وهكذا الحال أيضا في كل أمة كان الثبات رائدها وقوّة العزيمة سندها وهل ظهر أفراد الرجال الا بالثبات وهل خدمت المدنية قوّة كالاختراع والتفنن بالابتداع وانما هي قوّة لا تصدر عن غير أهل الثبات لما يلاقونه في سبيل العمل من المطاعب والمتاعب التي لو خالطها شيء من الملل والتردد لما نجح أربابها ونحاب عمل أصحابها - ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات ولقد بلغ الثبات عند الأمم الغربية مبلغا عظيما به خدموا

بلادهم وأخرجوها من ظلمات الجهالة الى نور المدنية وتحملوا
لأجله المكاره والمشاق وأنواع العذاب وسوقهم الى السجون
واذاقهم كأس المنون

١٤٤

﴿ مضار القمار ﴾

القمار مصيبة عظيمة وطامة كبرى وداهية دهماء ونكبة
عمياء وهو داء عضال سرت سمومه في عروق كثير من
الرجال فأضاعت نعمتهم وسلبت ثروتهم فاضمحل أمرهم
وسقطوا عن مراتب الجاه الى أسفل درجات الذل والهوان
وأصبحوا على قوارع الطرق يتسوتلون - قال تعالى (يا ايها
الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من
عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن
يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر
الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقال الشاعر

أخسر خلق الله منا صفقة من يطلب اليسر بلعب الميسر
يجنى حراما ان جنى وقلما يبلغ الا حشرات المعسر
فغنه جرم وأما غرمه فققد ميسور وفقر موسر

فالميسر مهلكة للأُمم ومضیعة للدين فكُم خرب من
 قصور وكُم التهم من أموال — كيف لا وأن المقامرة تقود
 الى كثير من الرذائل لأن الرابح يستفزه الربح الى امتطاء
 متون الشهوات فيخوض عباب اللهو والبطالة ويندفع الى حماة
 الرذائل فيخسر صيته وصحته وصلاح أخلاقه واسراف أمواله
 فالمقامر سواء ربح أو خسر لا بد له من الانفاق من ماله
 الحرام ومال الحرام أثقل من الزيق اذا وضع في الجيوب فلا
 يلبث أن يفتقها وينثر منها — وهكذا مال المقامرین تراهم يجول
 بين جيوبهم في الصباح ترى أكياسهم ملاءى بالأصفر الرنان
 حتى اذا تتبعهم في بحر النهار وآناء الليل تراهم يحسبون دنائيرهم
 واذا هي في الأكياس كالثمالة في الكاس فتأخذك الدهشة
 ويستوقفك العجب ويجول في ضميرك سؤال (أين ذهب
 الذهب) وقصارى القول أن القمار بشير الخراب الذي لا يجب
 ولا يستطاب فهو رسول الفاقة الذي ينزع البركة ويعطل
 الحركة بل هو الموت الأحمر والعار الأكبر ولاعبه في
 الهشة الاجتماعية لا يذكر لانه عار من الآداب والفضائل ملبس
 بالجرائم والرذائل ساقط المروءة والهمة عديم الشرف والذمة

لكل نقيصة في الناس عار وشر معائب المرء القمار
هو الداء الذي لا براء منه وليس لذنب صاحبه اغتفار
وبالجملة ان لكل داء دواء الا المقامرة فانها أعيت من
يداويها — وذلك لان الانسان يميل بالطبع الى اللهو على شغفه
بتحصيل المال والثروة عفواً — فاذا لاح له بارق الأمل من
خلال البخت والنصيب وكان في يده ما يسعفه على اجابة سؤال
النفس الامارة بالسوء ارتطم في هذه الورطة — وسواء ربح
أو خسرفه لا يزال مواظبا على اللعب آملا تعويض الخسارة
أو زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملكة راسخة متمكنة
لا تقوى عليها نصائح الناصحين ونواهي الشرائع والدين فهي
كالداء العضال لا ينجع فيه دواء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا
وجنون المقامر ين فنون وقصصهم عجائب غرائب وهم
منتشرون في كل مكان معروفون في كل زمان مقدوفون بكل
لسان محكوم عليهم في كل الشرائع والأديان وهم مع ذلك
لا يرعون فان القمار كان منتشراً كثيراً بين الرومان
فالمقامرة تخلق العقول فلا يبصر المقامر الهاوية تحت
أقدامه لان بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمان في الفلاة

يرى السراب فيظنه ماء فيجد السير اليه ولا يزداد الا ظمأً
وكما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك - وعلي
هذا النحو يجد الذي يحضر اللعب من نفسه دافعاً يحمله على
اقتفاء أثر غيره والتحدى بأصحابه وهو يرى من خلال الأمل
بريق الثروة والسعادة - فكم من رجال حضروا مجالس
المقامرة لمجرد رؤيتها فعادوا من أكبر المقامرين - ومن
لعب مرة اضطربت فيه محبة اللعب حتى لا يعود يقوى على
دفعها ولذلك قيل « المقامرة لجة يفرق الغائص فيها لا محالة
لأنها لا قرار ولا ساحل لها - ومما نقش على باب أحديوت
القمار » لهذا الكهف بابان باب الأمل وباب الاثم والهلاك
يدخل اليه من الأول ويخرج من الثاني » فالمقامرة لا سبيل
الى اجتناب ضررها الا بالابتعاد عنها - وأفضل طرق الوقاية
منها مجانبة الكسل والبطالة والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة
المقامرين - وهذه ذكرى للعاقلين وتبصرة للعاقلين

١٤٥

﴿ فوائد الاجتهاد ومضار الكسل ﴾

يعقب الجد نجاح وغنى وردداء الفقر من نسج الكسل

الاجتهاد حياة البلاد وأس نجاح الاعمال والوسيلة الى
ارتقاء درج الكمال فكم وضع باجتهاده صار رفيعا وكم أمير
بكسله أصبح وضعيا فمن اتخذ الاجتهاد شعاراً وواظب عليه
وتعوده دنارا توج بتاج السعادة ورزقه المولى الحسنى وزيادة
واذا هممت بأى أمر فاجتهد فيه فان لكل مجتهد نصيب
والكسل والترفة والتعود على كثرة القعود وترك العمل مضر
بالجسم ووظائف أعضائه ومؤد إلى ضعف العصب واسترخاء
العضل لانه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة
الحيوية فيكون سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن
وهو عنوان النحوس ولبوس ذوى البوس وشيمة العجزة الجهلة
ظهر ان لا يبلغان المرء ان ركبا * باب السعادة ظهر العجز والكسل
فالكسل سبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للامل

ليس البطالة والكسل بالجالبين لك العسل

فاعمل فان الله قد حث المطيع على العمل

ومنشأ الكسل عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم وتهذيب

أخلاقهم وتعويدهم من الصغر على الاشغال والتجدد على المشاق

وتدريبتهم على اكتساب فضائل الرجال وهمة الابطال وتنوير

عقولهم وارشادهم لما فيه صحة أبدانهم وحفظ أمور دينهم
خصوصاً بترك محبة شهوة البطن ولا يتمتع صاحبها بالعيش الهنيء
وتكون سبباً لضعف الهمة وقلة المروءة اذ لا يخفى أن العدد
الأكثر من الكسالى انما جاءهم الكسل من الافراط فى
الماكل والمشرب ولذا قال عليه السلام (لا تميموا القلوب بكثرة
الأكل والشرب فان القلب كالزراع يموت اذا كثر عليه الماء)
فنحن كسالى فى أعمالنا وفى أقوالنا وفى أفكارنا وفى
رياضتنا نحن كسالى فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها — نحن
كسالى فى الجد وكسالى فى الهزل وكسالى أمام المطائب وأمام
الافراح وتلقاء النافع وأزاء الضار — نحن كسالى فى الصباح
وفى المساء — نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى
ونعيش بين هذين الوقتين كسالى — أنظر فى تاريخ حياة كل
فرد منا تجده مملوءاً بالاكل والشرب والنوم والاقوال الفارغة
وقد لا تجد فى صحيفة واحدة من صحف أجدنا عملا يذكر
وليس المقصود أن نعمل ما فوق الطاقة أو أن نأتى بالعجائب
والغرائب بل أننا نعمل الاعمال العادية التى بدونها لا يمكن
الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل — فعيينا الكبير الذى

يشاهد بوجه التقريب عاما بيننا ويكاد لا يخلو منه أحد وأن
 كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل
 وقصارى القول أن الاجتهاد استفراغ الطاقة في تحصيل
 أمر مستلزم للكلفة والمشقة - والعمل والاجتهاد في كفتي ميزان
 اذا خف الاجتهاد هبط العمل ومتى أصيب المرء بداء الكسل
 ضعفت همته ووهنت عزيمته وأصبح لا يستطيع العمل الحقيق
 بعد اذ كان يتقاعد عن العمل الخطير فقط وأصبح آخر القوم
 في سبيل الحياة وعاش مرذولا
 شمر وجد لا مرأنت طالبه اذ لاتنال المعالي قط بالكسل

١٤٦

﴿ الخزان وفوائده ﴾

أن أرض مصر من أهم الأراضى الزراعية فلذا منحها
 المولى تبارك وتعالى ماء عذبا (ماء النيل السعيد) وحفظ هذه
 المياه من ذهابها سدى فى البحر الأبيض المتوسط شيد خزان
 عظيم فى أصوان ليم الرى جميع أراضى القطر المصرى وحيث
 سهل زرع الأراضى العالية مرتين بعد أن كانت تزرع مرة
 واحدة فى كل سنة - ولتحفظ البلاد من الشرق والغرب

وتكثر الفائدة وتنمو الخيرات وتنشر البركات وتزيد المحصولات
وتتقدم التجارات ويرتقى الشعب ويمحق اسم السلب والنهب
ويعيش كل فرد سعيداً يودع عيداً ويستقبل عيداً

وبالجملة لما كان النيل الذى هو قوام الحياة فى هذه
البلدان عليه مدار الخصب والعمران اعتنت به ولالة الأمور
وسجنته بقناطر هائلة تنزله بقدر مقدور فى أوقات مخصوصة
بانتظام كفلت الراحة للخاص والعام

أخزان مصر أنت أم هرما مصر أجل وأسمى فى المسكنة والقدر
وهيات ما اهرام مصر وان سمت بأرفع رأساً من حضيضك لو تدر
وما أنت خزان المياه وطميا وأبليزها بل خازن الدر والتبر
تدفقت بالخيرات من كل جانب وجمعت أقطار المنافع فى قطر
وحيثئذ تسنى للحكومة بذلك أن توزع مياه النيل الذى هو
روح حياة مصر وسبب سعادتها توزيعاً عادلاً وأن تحفظ
ما زاد من حاجاتها فى وقت الفيضان الى أيام انخفاض مياهه
وقصوره عن رى ما ارتفع من واديه وبذلك أمكن المصريون
أن يزرعوا أراضيهم عدة مرات فى السنة الواحدة وأن ينتفعوا
بشمرات جهات ما كانوا ينتفعون بها من قبل فازدادت ثروتهم

واتسعت تجارتهم وغنيت حكومتهم— ولعمر الحق أن واحداً
من تلك الخزانات التي تتدفق مياهها بالخيرات عند أولى الأبواب
نخير من ألف هرم فستان ما بين آكام ضيع فيها نفيس الزمن
وقوى الرجال وقناطير الأموال وبين كنوز الذهب وعيون
النشب ومواحق الجذب وطلائع بشائر الخصب

١٤٧

﴿ المطابع وفوائدها ﴾

الانسان يفتقر الى ثلاثة أغذية — غذاء النفس وهو
العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى — وغذاء الجسد وهو
ما طاب وحلّ من نبات وحيوان — وغذاء العقل وهو
العلم والمعرفة — وهذا الغذاء الاخير مفضل على الغذاءين
السابقين اذ به يمهّد السبيل اليهما ويقدر المرء على اتقانها فضلاً
عما يستفيده من رفعة الشأن وحسن الحال في المبدأ والمآل
ولم يتيسر العلم للانسان ولا عمّت منافعه حتى تمكن من
اثبات خواطره على القرطاس ونقل ما يكنه صدره الى ما بين
أيدي الناس وكان لأول عهده في الكتابة يقاسى المشاق في
حفظ ما يكتب وادّخار ما يقتبس من شوارد المعارف وشتات

العلوم — وكان القدماء اذا أرادوا أخذ علم من العلوم طووا
 اليدهم والقفار وتجشموا الأخطار تقربا بمن أحرز العلم وامتاز به
 ولم يكن من سبب يدفعهم الى مقاساة عناء الأ سفار الا قلة الوسائط
 التي تساعد على نشر العلم وبثه في جميع أنحاء المعمورة ليستفيد
 منه كل قاص ودان واستمرت الحال على هذا المنوال الى أن
 حنت دواليب المطابع حين الناقاة علي الفصيل وأخذت تدرّ
 للانسان ألبان العلوم والمعارف

ان المعارف للرقى وسائل لا تبصر الأشياء بلا أعيان
 واذا المعارف أشرقت في أمة نالت أمانها بغير تواف
 ان المطابع للعلوم وسيلة والشمس لا تحتج الى برهان
 وقصارى القول أن للمطبعة أيادى تذكر فتشكر وللخط
 مساوى لا تغفر اذا الخط يعتريه التحريف لغير جناس والطبع
 ينتج الصحة بدون قياس والناسخ أسير النقل وذو الطبع ينسج
 على منوال الفضل والمطبعة تعمل في بضع أيام ما لا يعملها الكاتب
 فى أعوام ولعاب القلم يحوه اللسان وأثر الطبع لا يغيره الزمان
 فذاك كالنقش على التراب وهذا أثبت من الوحى فى الصم
 الصلاب وثمره الخط تجنى بيد المال الكثير وزهرة الطبع

يشمها الغنى والفقر والخط لو كان أنفاً لكان أجداً والطبع
لو كان شكلاً لكان مربعا والخط لو كان جمادا لكان حجراً
صليداً والطبع لو كان جوهرًا لكان جوهرًا فرداً

١٤٨

﴿ الحديد أنفع أم الذهب ﴾

الحديد وما أدراك ما الحديد الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس على اختلاف الأجناس منه تصنع السكك
الحديدية والأسلحة والآلات الحربية والأدوات الزراعية
والسفن البخارية بل متوقفة عليه كافة المنافع العمومية كيف لا
وهو الحافظ للارواح البشرية والقاهر للاعداء والحاكم بين
الملوك والأمراء — قال تعالى (وأنزّلنا الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس) وحينئذ هو أنفع من الذهب الذي يستعمل في
الحلى للزينة ويستعمل تقوداً للمعاملة ويمكن أن يستغنى عن
ذلك بخلاف الحديد فلا يمكن لأحد ما الاستغناء عنه بحال
من الأحوال . إذ منه الكبارى والجسور وآلات الحرث
والرى والزرع والحصد والطحن وهلم جرا من كل مما تتوقف
عليه مصالح العباد في كل زمان ومكان

١٤٩

﴿ فوائد الحلم ومضار السفه ﴾

الحلم من أكرم الخلال وأتم الخصال وأفضل شمائل الرجال وأعلى مراتب الكمال وهو أصل من أصول الدين وحصن من حصون الأيمان حصين وركن من أركان الشرع متين من استند اليه وتمسك به واعتمد عليه استنارت له الظلم وأمن عثار القدم وعصم من مواقع الندم وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعث الهمم والتفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم يسمو بصاحبه في الدارين الى أرفع الرتب ويطنى من الانسان جمة الغضب - قال تعالى (ان ابراهيم لحليم أواه منيب) وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شيء لشيء أحسن من علم الى حلم) وقال الشاعر

ألا ان حلم المرء أكرم نسبة يسمى بها عند الفخار حليم
فيارب هب لي منك حلما فاني أرى الحلم لم يتدم عليه كريم

والسفه من الشيم المبعوضة والخلال الرديئة المرفوضة الدالة على خسيس الطباع وشمائل الأوضاع وصاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الأقوال والأفعال

قال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه)
وقال بعض الأديباء من غرس الغضب في أرض السفاهة شجرا
وأرسل عليها العجلة مطرا اجتني منها الندامة ثمرا ولم يعدم في
عواقبها ضررا — وقال الشاعر

إذا نطق السفية فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
حلمت على السفية فظن أني عيت عن الجواب وما عيت

وبالجملة فالحلم (وهو سكون النفس عند دواعي الغضب مع
ترك الانتقام) من أشرف الأخلاق وأكرمها وأعلى مراتب
الكمال وأعظمها يبلغ صاحبها ذروة المجد ويكسبه جميل الحمد
به يصون الانسان عرضه ولا ينال منه السفية عرضه ولا
يكون الانسان حليما الا اذا كان عالما عاقلا صبورا جامعا بين
عظم القدر وسعة الصدر مترفعا عن السباب فان ذلك يدل على
شرف النفس وعلو الهمة ويدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف
واحتمال السفية خير من مشابهته والاغضاء عن الجاهل خير
من المناصلة به تكثر الأنصار وتدفع الأشرار فمن غرس
شجرة الحلم اجتني ثم السلم — قال الاحنف بن قيس ما آذاني
أحد إلا أخذت في أمره بأحدى ثلاث . ان كان فوق عرفتي

له فضله . وان كان مثلي تفضلت عليه . وان كان دوني
أكرمت نفسي عنه

١٥٠

﴿ هل اللين أنفع أو الشدة ﴾

لكل انسان غرازشتى مختلفة كالحلم . والجود . والبخل
والسرور . والحزن . والغضب . والرضا . واللين . والشدة
وهلم جرا — والمتصرف فى تلك القوى والحاكم بينها بالتوسط
واضعا كلاً موضع «العقل» فبه تدرك مواضع «اللين والشدة»
فاللين سهولة الأخلاق على الإطلاق فى جميع المعاملات
والشدة قسوة القول والفعل فى كافة الصفات ومن بنى جميع
أعماله على احدهما ألقى بنفسه الى الهلاك والضلال وباء
بالخسران والدمار والوبال ومن قرأ التاريخ يرى العجب العجيب
ويقف على أسباب التغير الناتج من احدهما والانتقال . هذا
لحاكم بأمر الله الفاطمى اتخذ الشدة عادته فى جميع أعماله وسائر
أحواله فوقع فى أحواله

وهذا المستنصر بن الظاهر الفاطمى اتخذ اللين ديدنه
والسهولة شيمته ولذا كان لا يبالى بما يقع فى الدولة من الأخطار

الجسيمة فانتشر الفشل في الرعية ووقع النزاع بين جيشه وقامت
الحروب في البلاد واشتد القحط وأكل الناس بعضهم بعضاً
حتى ابتاعوا الكلاب والقطط بعشرات الدنانير وقلما كانت توجد
وهذا اسكندر ذو القرنين وضع الشدة في موضعها واللين
في موضعه فبشدته غلبت فئة اسكندر القليلة فئة (دارا) الكثيرين
وسلك البلاد وقهر الأجناد وبلينه ملك القلوب واستقام له الملك
فما أحسن من وضع كلاً في موضعه وأنزل كلاً في درجة
وموقعه وذلك بالعقل الحكيم

أرى الذين ضعفا والتشجع هيبة ومن لا يهب يحمل على مركب وعسر
وما كل حين ينفع الحلم أهله ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر
ومن قصرت بصيرته وذاغت عقيدته فلم يهتد للصواب
ولا يعرف من أين يطرق الباب ولم يميز بين من يقومه لحسام
وبين من يصلحه الكلام فالأولى به سلوك طريق اللين فقط
اتقاء من شدة الأخطار والوقوع في المصائب والمضار ولذا
رى كثيرين اتبعوا خطة اللين لأنه أقوى تأثيراً في نفوسهم
ولأنه خير الأمرين وأقوم الطريقتين وأعدل الحكمين - قال
تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه

ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ
عظيم) وقيل الماء مع رفته فتت الحجر مع شدته - وقال الشاعر
ولى فرس للشر بالشر ملجم ولى فرس للخير بالخير مسرج
فمن رام تقويى فانى مقوم ومن رام تعويى فانى معوج
وللحم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتى الى الحلم أحوج

١٥١

﴿ ما هو الغرض من قدوم السياح الى بلادنا المصرية ﴾

(وما هي الفوائد العائدة اليها منهم)

بلادنا المصرية أحسن البقاع تربة وهواء وأصفاها سماء
وماء وأوسعها مرتعاً وفناء وأقدمها فخراً وآثراً وأشهرها
معارف وأفكاراً وأكبرها رجالاً وأفضلها أبطالاً تركوا
بعدهم الآثار التي تدهش الأبصار

تلك آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم الى الآثار

ان خيراً فخير وان شراً فشر - ولذا تقدم السياح الى بلادنا
أفواجا ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء الجيد وفراراً من البرد
القارس فى بلادهم الذى يكاد يقضى على حياة كثير منهم
واستكشافاً لكنوز السلف من الشرقيين التي نبذها الخلف

ظهر ياحتى أصبح الغربي ينتحل لنفسه اسم المخترعات والمصنوعات
التي هي في الأصل من أفكار الشرق وأعظم شاهد على
ذلك التاريخ

العلم يبقى زمانا في دفتاره وجامع العلم قدما كان قد دفنا
ومن نظر الى الاهرام التي مضت عليها القرون الطوال
وهي شباب يندمش لبه ويتحير عقله في كيفية بنائها وقطع
أحجارها ورفعها الى ذروتها ويشهد لهؤلاء براعتهم في الهندسة
وقوة اختراع الآلات المتينة الصنعة كما أنهم شادوا المعابد
العجيبة الوضع والأسئلة العميمة النفع - كل ذلك حرصا على
البقاء المعنوي الأثرى

لسنا وان أحسابنا كرمت يوما على الآباء نتكل
بنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا
وقد جدت واجتهدت الغريون وتحملت المشقات وقطعت
الفيافي والصحراوت وساحت جميع الكرة الأرضية وبالأخص
كافة البلاد الشرقية وسلبوا آداب الأمة العربية وسلخوا عنها
ميراث آباؤهم السالفين وزفوها عروسا الى أوطانهم فائزين
وأصبح كل حزب منهم فرحا بما لديه ومبتهجا بما عنده . وما

زالوا ولن يزالوا يوالون البحث والتنقيب في الوقوف على أعمالهم
النفيسة والتحفظ عليها من أيدي الضياع ولذا شيدوا لها الدور
الواسعة اعتناء بها — والفوائد التي تعود على بلادنا من قدومهم
رواج التجارات ونشر الصناعات بل اتساع دائرة المعاملات
وربح الفنادق « اللوكاندات »

وبالجملة قد يستغرب المرء أن يكون من هذا الأثر الصامت
كل هذه الفوائد والمزايا ولكن من ينظر الى معنى الآثار
بعين الامعان يطلع على خفايا ثمينة تنجلي للباحث المستقرى الذي
لا يعبأ بزخارف الأمور ولا يقف عند حدّ النظر السطحي
ولم تنشأ المتاحف الأجنبية ولم يبذل الأوروبيون النفس
والنفيس في جمع الآثار القديمة لجرد وضعها في البيت أو المتحف
زينة أو أثراً جليلاً بل هم يتوخون من وراء ذلك فوائد جمة
وقديتوهم كثير أن متاحف أوروبا خاصة بآثار أجدادهم
المتقدمين أو ملوكهم السابقين وما هي الا مشحونة بآثار
المصريين والشرقيين فهم يفاخرون بما يهون لدينا
يقصد الأجنبي مصر من بلاده السحيقة لينظر آثارها
الناثية ويحمل من كنوزها ما يظفر به فيعود الى بلاده فرحاً

مسروراً يحدث بما لاقاه وما شاهده وما اشتراها فيسخر
مواطنوه من جهلنا واهمالنا وعدم اكثر اتنا بالصنائع والفنون
ولقد جبلنا معشر الشرقيين على عدم الاهتمام بالمفيد فلا
نعياً بالدرّ داخل الصدف لأن في فتح الصدفة لاستخراج
الدرّة مشقة وعناء

والآثار اما بناء كالمعابد . والمساجد . والمدارس
والجوامع . والاهرامات . والرباطات . والزوايا . والبيوت
والابراج . والقلاع . والقناطر . والأسبلة . وماشا كل ذلك
أو نقوداً كالدنانير والدرهم ونحوها — أو نقوشا كالتى فى
جدران المعابد وما أشبه — أو صناعات كتطعيم أواني النحاس
من الذهب والفضة . وكتطعيم الخشب بالعاج والأبنوس
والصدف وخلافه — أو صباغة كدهان السقوف والجدران
وغيرها — أو كتباً ككتب الطب والصناعة والتاريخ
والمصاحف الشريفة الى غير ذلك من العلوم والفنون

١٥٢

﴿ فوائد تعلم اللغات الأجنبية ﴾

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وتلك له عند الشدائد أعوان

فبادر الى حفظ اللغات مسارعا فكل لساز في الحقيقة انسان
 أن تعلم اللغات حفظ للذات من جميع الآفات فمن تعلم
 لغة قوم أمن من مكرهم ووقف على خيرهم وشرهم وعرف
 أخلاق ذويها وسيرتهم وما هم عليه من الآداب والمحاسن
 الانسانية فيأخذ منها ما يكون صالحا لأمره نافعا لقومه مفيدا
 لوطنه ويصير بمنزلة كثيرين من الأفراد وان كان واحداً
 في نفسه — كيف لا وأنه يكون جامعا أوجه الانتفاع ماديا
 وأديبا لبني جنسه

وبالجملة ان الالمام باللغات الأجنبية يعرف الانسان مالهم
 من طول الباع في المخترعات واتقان الصناعات ومن أين
 تجلب التجارات وكيفية الطواف حول الأرض في السياحات
 ويدرك بماذا تقدمت هذه الأمة وتمكنت الحضارة والمدنية
 في نفوس أفرادها وبم تأخرت تلك الأمة وأضاعت بلادها
 وخسرت رجالها وفقدت شريعتها واتحادها وفخرها ومجدها
 وبذلك يتمكن حب الوطنية في قلبه ويذب عن حوضها
 بسلاح شرفه

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة

فليس يحفظ دين الا يحفظ اللغات

١٥٣

﴿ هل الرزق بالسعي والجد أو بالحظ والسعد ﴾

السعي حركة الانسان في ظروفه الزمانية والمكانية

لاصابة الرزق والراحة والجاه - فاذاً لا مزية في أن بقاء

الانسان وارتقاءه يتوقفان على سعيه أولاً وعلى عمله ثانياً لأن

العمل خاتمة السعي الذي هو ناموس للبقاء والارتقاء - وما

من أحد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ومن طلب شيئاً

وجد وجد ومن قرع الباب وليج وليج - قال تعالى (وأن

ليس للانسان الا ما سعى) ومن سعى رعى ومن جال نال - قال

تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وجاء في الحديث

النبوي عن الأعرابي الذي أراد دخول مسجد النبي صلى الله

عليه وسلم وناقته بيده فقال يا رسول الله أأرسل ناقتي توكلأ

علي الله عز وجل أم أعقلها فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أعقلها

وتوكل) وقال الشاعر

ألم تر أن الله قال لمريم * وهزي إليك الجزع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجزع من غير هزها * جنته ولكن كل شيء له سبب

وقال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا
 من فضل الله) وقال عليه السلام (ما أكل رجل طعاما قط
 خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داود كان يأكل
 من عمل يده) وقال الشاعر

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلاسهر الليالي

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعد أحدكم عن

طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر

ذهبا ولا فضة وأن الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض)

وفي التوراة (ابن آدم خلقت من الحركة وأنا معك ابن

آدم أمدد يدك الى باب من العمل أفتح لك باباً من الرزق)

وفي بعض الحكم هل يجوز في وهم أو يتمثل في عقل أو

يصح في قياس أن يحصد زرع بغير بذر أو تجنى ثمرة بغير غرس

أو يورى زند بغير قدح أو يثمر مال بغير طلب وقد جعل الله

طلب الرزق مقصوراً على الخلق كلهم من الانس والجن والطيور

والهوام منهم بتعليم ومنهم بالهام فأهل التحصيل والنظر يطلبونه

بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز وأهل العجز والكسل

يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال ثم اذا نظر المتأمل

الى الحالة الأولى من الهمجية وما صارت اليه الحالة الحاضرة
من التقدم وال عمران بواسطة الجد والاجتهاد وما وصلت أميركا
الى الاكتشافات والاختراعات بل وجميع الغربيين ما ارتقوا
الى هذا الارتقاء الا بالجد والكد

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك في الدلاء
ولا تقعد علي كسل التمنى تحيل علي المقادر والقضاء
فان مقادر الرحمن تجري بأرزاق الرجال من السماء
مقدرة بقبض أو ببسط وعجز المرء أسباب البلاء

ومن الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
يعتقدون أن الأعمال والمساعي كلها عبث والرزق في الدنيا
بالقسمة الأزلية ويستدلون بقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم
في الحياة الدنيا - والله خلقكم وما تعملون) وبقوله عليه السلام
(الرزق عين ساهرة لعين نائمة) وبقول الشاعر

ليس ما يحوى الفتى من عزمه لا ولا ما فات يوما بالكسل
ويتعللون بألفاظ لا يفهمون تخريجها ولا تأويلها - فإذا
ما يسمونه بختاً وحظاً وسعداً ونحساً ليس الا أوها ما في أحلام
كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة وابتغاء في الأمل

والمرء يغلط في تصرف حاله فلربما اختار القعود على العمل

١٥٤

﴿ هل السكنى في المدن أفضل أو السكنى في القرى ﴾
المدن مركز العلوم والمعارف ومعدن الطرائف واللطائف
ومنبع التمدين والآداب وحصن الأمن والاستتاب فيها أسباب
الراحة والرفاهية التامة والحرية لجميع الأفراد عامة فيها ما تشهيه
النفس وتقر به العين وتشرح به الصدور فيها ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت من أنواع الطرب والسرور— بخلاف القرى
فإنها بعكس ذلك على خط مستقيم إذ الفرق بينهما ظاهر جلي
لأنه من البديهي أن القرى مأوى اللصوص ومجمع العصابات
والدليل على ذلك القضايا الجنائية فإن أغلبها بل كلها مقام على
أهل القرى والسبب في ذلك تسلط الجهل عليهم وسوء تربيتهم
وعدم تدينهم وغلظ طباعهم وفضاظة أخلاقهم — فلذا يروى
عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال لبعض أصحابه (لا تسكن
القرى فيضيع علمك) وربّ قائل يقول إن القرى هي المورد
الوحيد الذي تستمد منه المدن جميع لوازمها الضرورية وإنها
جنة الله في أرضه إذ فيها الماء والحضرة والهواء ولذة العيش

والصحة وبساطة الضمير - فنقول أجل نحن لا نشكر ذلك
ولكننا نقول ان ذلك حاصل في المدن أيضا زيادة على ما فيها
من المزايا الكثيرة وان جودة الهواء ليست مختصة بكل القرى
كما أنها ليست ممتعة عن كل المدن فكم قرية أردأ هواء من
مدينة وبالعكس - كيف لا وقد قال عليه السلام (لا جمعة
ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحي الا في مصر جامع أو
مدينة عظيمة) ثم لم ينقل عن الصحابة رضی الله عنهم أنهم حين
افتتحوا البلاد اشتغلوا بنصب المنابر والجمع الا في الأمصار
فهي الأفضل والسلام

١٥٥

﴿ ما هو الأفضل القلم أم السيف ﴾

القلم منبع العلم والحلم والحكمة وهو الرسول بين الملوك
والأمراء والصادق الأمين بين الأحبة والأصدقاء وقررة
أعين الأدباء والظرفاء وجليس العلماء والحكماء فهو اليد
والساعد والعضد المساعد يترجم عما في الجنان بأفصح بيان
ويفهم الحاضر والغائب وتأثيره أشد من تأثير الكتاب
قوم اذا خافوا عداوة امرئ سفكوا الدما بأسنه الأ قلام

ولضربة من كاتب يبناه أمضى وأنفذ من رقيق حسام
 وحق من علم بالقلم أن فضله أشهر من نار على علم وكفاه
 فخرا أن الله أقسم به في محكم كتابه فقال (ن والقلم وما يسطرون)
 وقال الشاعر

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم
 كفى قلم الكتاب فخراً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم
 بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وبه أدركنا أحوال من سبقنا
 من الأمم وبه كتبت كتب الله المقدسة وبه خرج الإنسان
 من دائرة الجهلية إلى عالم الترقى والحضارة والمدنية به سطرت
 جميع العلوم والفنون وهو للملوك عين العيون ومنار الدين
 والدنيا ونظام الشرف والعليا

قلم يفل الجيش وهو عرمم والبيض ماسلت من الاغماد
 وهبت له الآجام حين نشابها كرم السيول وصولة الآساد
 قال بعض الأدباء (القلم هو أحد اللسانين وهو المخاطب
 للغيوب بسراير القلوب على لغات مختلفة من معان معقولة
 بحروف معلولة متباينات الصور مختلفات الجهات لقاحها
 التفكير ونتاجها التدبير)

ولى قلم في أعلى ان هنزته فما ضرنى ألا أهز الهندا
 اذاصال فوق الطرس وقع صريه فان هليل المشرفى له صدا
 والسيف آلة قاطعة مفرقة للأجزاء به تفتح البلدان وتنشر
 الأديان وسلاح القوة الحاكمة ومنعتها وشرفها لولاه ما انتظم
 العمران ولا نشرت راية الراحة والأمان ولا استتب الأمن
 والاطمئنان في جميع الأمصار والبلدان
 السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحديد الجذو واللعب
 بيض الصفايح لاسود الصحائف في متونها جلاء الشك والريب
 ولكن لا يخفى على المتأمل أن حرب الأقلام أشد تأثيراً
 في النفوس من حرب الحسام— والتاريخ أعدل شاهد كما حصل
 في واقعة الملك «دارا» ملك الفرس مع مملكة «التتار» حيث
 تغلبت هذه الأخيرة على مملكة الفرس وهزمت جيشها بالحيلة
 بدون أن تشهر عليها سلاحاً— وهذه دولة انكلترا في الشرق
 وكثيراً من الممالك والشرائع قد فتحت وتأسست بغير السيف
 الذى لا يحمل الا على الشمال وينجر على الأرض بخلاف القلم
 الذى يحمل على الرأس ويجلس على اليمين فلا مريية في أنه جليل
 القدر وهو أحق بأن يقول أنا سيد السيف ولا فخر

١٥٦

﴿ السكر ومضاره ﴾

واهجر الحرة ان كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل
الانسان أكل من سائر المخلوقات وأحسن صورة من
جميع الحيوانات الا أنه ليس أسعد من غيره من الموجودات
لأنه عرضة للتأثر بالمؤثرات الجوية وتقلبات الزمان فهو مشترك
معها في اعدامه الحياة وليست سلطته ولا تدبيره لها في الحقيقة
ونفس الأمر الا لما خصه الله به من الصفات المعنوية التي هي
أسرار الناطقية — وأفضل ما في الانسان عقله وصحة جسمه
فهو كما أنه باعتبار خاصيته الحيوانية مجبور طبعاً بتغذية جسمه
كذلك باعتبار خاصيته الانسانية يجب عليه تغذية عقله بالمعارف
وتحليه بالآداب ولكن لسوء الحظ لم يقتصر على هذه الأسباب
النافعة بل تجاوزها واتخذ أسباباً لها ليس من ضروريات
طبيعة الانسان بل هي من مضعفات الجسد والعقل — ومن
أقوى هذه الأسباب تعاطي المسكرات التي هي متلفة للبدن
مفسدة للعقل مذهبة للأموال جامعة لجميع العيوب والذنوب
مفتاح كل شر طريق كل ضرر منبع كل خصلة شنيعة ورزيلة

فظيحة تورث الجنون لبعض الناس وتحدث مرض السل الرئوى
واحتقان الكبد — قال بعض الحكماء من السموم الخفية
المشروبات الروحية — وقال آخر السكر رأس المعاصى
وبالجملة فالسكر آفة الاستقامة وعدو الشرف والأمانة
ومجلبة الذل والاهانة يدعو صاحبه الى ارتكاب الموبقات
والاقدام على جميع المحرمات

١٥٧

﴿ فوائده ومضار الورق المستعمل بدل النقود ﴾
أن للأمم اصطلاحات غريبة فى المواد المستعملة نقوداً
فالصينيون كانوا يستعملون مكعبات صغيرة من الشاى المضغوط
عليه — وبعض قبائل أفريقيا يستعملون الأصداف البحرية
وغيرهم المواشى — وغيرهم ملح الطعام — أما الأمم المتقدمة
لهذا العهد فيستعملون الذهب والفضة بسهولة حمله وقسمته
وحفظه بدون نقص فى قيمته

وكثيراً ما تستعمل فى العملة قطع من الورق عليها وعد
بالدفع بدل النقود ويستحسن ذلك فى حالة ما اذا كان المبلغ
جسيماً لأن الورق سهل الحفظ خفيف الحمل — فورقة البنك

المرقوم عليها خمسة جنهات تعهد من البنك الذى وضعها بدفع هذا المبلغ لمن يحملها — ولذا يقال أن الورق قابل للتحويل فيما لو أمكن مالكها استبدالها بالنقود فى أى وقت يريد فى هذه الحالة تكون بمثابة النقود بل أفضل وغاية ما يخشى منه أن البنك الذى وضعها يعجز عن ابدالها بالنقود فى بعض الأحيان وكثيراً ما يحدث ذلك للبنوكات فتتوقف عن الدفع ولا تنفى بما تعهدت به

ومع ذلك فقد تقوم الأوراق مقام النقود ونو تسر وجود عملة أخرى وحينئذ يقال لهذه الأوراق أنها غير قابلة للتحويل أو أنها عملة فيقبلها كل انسان لعلمه أن غيره لا يقدر على رفضها لو عرضت عليه

١٥٨

﴿ حالة الأمة اذا فقدت لغتها ﴾

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
أن فقد اللغة فقد للشعور وتضييع للدين وانحلال لعرى
الفخر والمجد المتين وموت للاحاساس والشرف والحريه
واستئصال لما يجول فى عروق الشعب من الحضارة والمدنية

قال ابن خلدون (اللغة ملكة صناعية متقررة في العضو
 الفاعل لها) وقال عبد الله النديم « اضاعة اللغة تسليم للذات »
 وقال غيره « استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها » وقال
 آخر « اللغة هي عنوان الأمة »

فاللغة آلة مادية تقوم بها مبادلة الأفكار بالمعاني بين أفراد
 الانسان عموما وخصوصا - - فاذا أهملت اللغة سادت الفوضى
 والاخلال بالنظام وعم الفساد بين كافة الأنام - - فالويل ثم
 الويل لأمة أضاعت لغتها والثبور ثم الثبور لأمة أضاعت منعها
 وعزتها والشقاء ثم الشقاء من اضمحلاها وتقهقرها وانحطاطها
 وتأخرها وتصير في عذاب أليم وتستمر طول الأبد في شقاء
 جسيم - - هذه أمة اليهود مشتتة في كل واد ومرقى للاسترقاق
 والاستعباد وهدفا لسهام التعصب والاضطهاد وما ذلك الا
 لفقدتها لغتها العبرانية ففقدت الشعور والاحساسات الانسانية
 وأصبحت أمة فوضى لا تألفهم سماء ولا أرض - - وهكذا اذا
 أنعم الانسان نظره في كثير من الأمم الذين نبذوا لغتهم
 ظهريا يمجدهم في اضمحلال

١٥٩

* (من عفا عمن يستحق العقوبة كان كمن حرم

من يستحق المثوبة) *

ففساليزدجر واو من يك حازما فليقس يوما بالذي لا يرحم
من تأمل في تاريخ العالم رأى أن أعمال بني آدم أقرب
الى الشر من الخير وان كان الخالق سبحانه وتعالى أودع فيهم
بصيرة ترشدهم الى الخير وتنهاهم عن الشر الا أن الشهوات
والأغراض تستدعي مخالفة أمر البصيرة - وجهلهم بالحقائق هو
منشأ آخر للمصائب والخطايا والذنوب - وهذه الذنوب علي
أنواع شتى وضروب مختلفة فمنها ما يحسن الصفح عنها والعفو
عن عقاب من وقع فيها

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وذلك لأن لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرا ما

ومنها ما لا يحسن اهمال الضرب على أيدي مرتكبيها بل

ينبغي زجر مقترفيها - ومنها ما يجب عقاب آتيها والا انتشر

الفساد في جميع البلاد وازهاق أرواح العباد

لعمر ك ما تلك الحياة رخيصة فصنها فما بعد الحياة حياة
وقال تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) اذ
المراد أن الانسان اذا علم أنه متى قتل قتل امتنع عن القتل
ويلزمه حياته وحياة غيره

قتلنا لأجل النفس نفساً بفعلها وقد قادنا للقتل اذ ذاك قرآن
عدمنا اذاً نفسين حفظاً لأنفسنا وهذا العمر الحق عدل واحسان
وبالجملة فلا بد من عقاب من يستحق العقوبة حفظاً لكرامة
الهيئة الاجتماعية كما أنه لا بد من ائابة من أحسن صنعا مكافأة
له وتنشيطا على عمل ما هو أنفع منه فيرغب غيره لمباراته
ومنافسته فتم المنافع بخلاف التهاون في المكافأة فينشأ عنه فتور
الهمم والتقاعس عن الأعمال المفيدة فيجلب الكسل والفساد
لا يقل عنه الفساد الناشئ عن اهمال من انعمت يده في
الجرائم حتى طغى وبغى وانتهك المحارم

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
ووضع الندي في موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف في موضع الندي
اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
فحقيق وجدير بالحكام الضرب على أيدي هؤلاء الأشرار اللئام

لا تلتظن بذي لؤم فتطفيه واغظله يأت مطواعا ومعوانا
ان الحديد تلين النار قسوته ولو صببت عليه البحر مالانا

١٦٠

﴿ فوائد التصوير الشمسى ﴾

أن هذه الصناعة من أزم الأمور لتقدم العلوم والفنون
ولا تقان فن الحرب ولتشخيص بعض الأمراض ومعرفة
شكل النجوم وحجم الميكروبات ولأموراً أخرى كثيرة ملازمة
للتمدين مرافقة لأشكال العمران — من ذلك أن تصوير
الأفلاك والنجوم والشمس والقمر (بالفوتوغراف) صار اليوم
أكبر آيات التقدم في معرفة الأجرام السماوية وشكلها
واستنتاج النتائج عما فيها من الجبال والأنهار وغير ذلك مما
يمكن معرفته بتكبير الصور — ومن فوائده تصوير المجرمين
ونشر صورهم بين الناس وبين رجال الضبط حتى تعمس عليهم
الهرب والفرار — وتصور الخدمة وغيرهم والفضل في ذلك
لرجل فرنسى من مدينة شالون يدعى « نيبس » اكتشف بعد
امتحانات عديدة بعض خواص الحجرة المظلمة وهى كناية
عن خزانة أو صندوق صغير مغلق اغلاقاً محكماً لا نفذ إليه

النور الامن نافذة صغيرة تدخل منها الأشعة الشمسية فتعكس
صور المرئيات الخارجة على لوح موضوع لهذه الغاية عند
أسفل الخزانة ثم أخذت في التقدم شيئاً فشيئاً الى أن وصلت
الى ما هي عليه في عصرنا الحاضر

١٦١

﴿ أيهما أنفع للانسان العزلة أو الاجتماع ﴾

ان الناس مدينون بالطبع أى لا بد لهم من الاجتماع
والمخالطة لأن الفرد الواحد لا يمكنه أن يستقل بجميع حاجاته
ولو ازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع والمبادلة
فلا مزية في أن بقاء الانسان لم يكن الا بالاجتماع الانساني
والا فما الفرق بينه وبين الوحوش الضارية

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وان لم يشعر واخدم
فطرة الله التي فطر الانسان عليها أليفاً أليسا ميالاً للمحادثة
والمحاضرة مضطراً للانضمام الى اخوانه لتبادل المساعدة والمنفعة
وقد قيل المرء قليل بنفسه كثير باخوانه — فلا بد للناس من
الاجتماع الأدبي الذي عليه مدار الحياة والصفاء والسعد والهناء
فيعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والارتقاء بخلاف العزلة فانها

وأيمن الحق زلة بل هي مكسبة اللهم والعلة وأفكار صاحبها
مختلة ولو كان فيها نفع للانسانية لترك المولى آدم وحيداً في
الجنة — وقد قيل الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين أبعد
ويد الله مع الجماعة — ويقال اياكم والعزلة فان في لقاء الناس
معتبراً نافعا ومتعظا واسعا ومجالسة أفاضل الرجال تجلو البصر
وتطرد الفكر

اذا لزم الناس البيوت رأيتهم عمارة عن الأخبار خرق المكاسب
فحينئذ الاجتماع الأدبي أفضل من الوحدة والعزلة وأما
اذا كان الاجتماع لأكل لحم الناس وسب عرض الأحرار
وانتهاك المحرمات ولثم الراحة بالراحات وارتكاب المنهيات
والمعصيات فلا ريب في أن العزلة أفيد والانفراد أولى وأسلم
وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من جلوس المرء وحده
فالعزلة والانفراد خير من مجالسة السوء لأن المعاشرة الرديئة
تفسد الأخلاق الحميدة

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهزيان من قيل وقال
فاقلل من لقاء الناس الا لأخذ العلم أو اصلاح حال

وبالجملة فقد ذكر حجة الاسلام الامام الغزالي للعزلة
فوائد وثمرات وحصرها في ست مسائل

الأولى أن العزلة أدعى الى استجماع القوى في طلب
العلم والفكر واستنتاج النتائج والحقائق المجهولة من الأمور
المعلومة ولذلك قيل لبعض الحكماء ما الذي أرادوا من الخلوة
واختيار العزلة فقال يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت
العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة
وقال بعض الحكماء انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو
ذاته من الفضيلة فيكثر حينئذ من ملاقات الناس ويطرده الوحشة
عن نفسه بالسكون معهم فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة
ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة

الثانية التخلص بالعزلة من المعاصي التي يتعرض للانسان
لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي الغيبة والنميمة والرياء
والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة
الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة

الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين
والنفس من الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد

عن نقصان وقتن وخصومات — فالعزلة عنهم سلامة منها
 الرابعة الخلاص من شر الناس فانهم يؤذونك مرة بالغبية
 ومرة بسوء الظن والهمة ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة
 التي يعيبه الوفاء بها وتارة بالميمية والكذب فربما يرون منك
 من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون
 ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر
 الخامسة أن يقلّ طمع الناس فيك ويقلّ طمعك فيهم
 السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى فان رؤية
 الثقيل هي العمى الأصغر — قيل للأعمش ميم عمشت عيناك
 فقال من النظر الى الثقلاء

وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول نظرت الى ثقيل
 مرة فغشى عليّ — وقال جالينوس لكل شيء حمى وحمى الروح
 النظر الى الثقلاء . — وقال الشافعي ما جالست ثقيلًا الا وجدت
 الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل عليّ من الجانب الآخر
 هذا ملخص ما ذكره في فوائد العزلة — ثم ذكر ثمرات
 المخالطة وهي سبع التعليم والتعلم . النفع والانتفاع . التأديب
 والتأديب . الاستئناس والايئناس . نيل الثواب وائالته . تعلم

التواضع بالمخالطة — لأن العزلة قد تكون عن كبر تم التجارب
وهي الخصلة السابعة فرجما كان القلب مشحوناً بنقائص ومعائب
لا تظهر للانسان الا بالمخالطة — هذه فوائد العزلة وفوائد
المخالطة — والحكم العدل في ذلك قياس المنافع بالمضار ثم قال
بعد كلام ما نصه « اذا عرضت فوائد العزلة وغوائلها تحققت
أن الحكم عليها بالتفضيل مطلقاً نفيًا وإثباتاً خطأ بل ينبغي أن
ينظر الى الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على
مخالطته والى الفئات بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة
ويقاس الفئات بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأ فضل »
وكلام الشافعي رحمه الله فصل الخطاب اذ قال « يا يونس الانقباض
عن الناس مكسبة العداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء
فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة
والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال

وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأ فضل

١٦٢

لو أتى خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق
أن ينبوع السعادة ومصدر السؤدد والسيادة وأنفس

الأعراق حسن الأخلاق فيه يشرف الانسان ويتميز عن
سائر أفراد الحيوان في كل زمان ومكان وما زال صاحبه
يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بمكارم أخلاقه الأفتدة
والقلوب وينال من عدوه قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب
أحب مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعايا
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال قلن يهابا
فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة—قال عليه الصلاة
والسلام (أجكم الى أحسنكم أخلاقا)
لا تقعدن عن اكتساب فضيلة أبدأ وان أدت الى الاعدام
وفي الانجيل (سعة الأخلاق كنوز الأرزاق) وقال بعضهم
الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في أمن وسلامة
والسيء الخلق من نفسه في تعب والناس منه في عناء وجهد وبلاء
إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد
قال سقراط حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فانه
لا يشاكلها—ومن كلامه أيضا حسن الأخلاق يورث المحبة
ويؤكد المودة ويقود الى الفعل الحسن - وقال أرسطاطاليس

حسن الخلق حلية النفوس كما أن حسن الخلقة حلية الجسد
 وهل ينفع الفتیان حسن وجوههم اذا كانت الأخلاق غير حسان
 فلا تجعل الحسن الدليل على الفتي فما كل مصقول الحديد يمانى
 وبالجملة حسن الخلق أعظم حلية يتحلى بها الانسان ويعيش
 عيشا رغدا بين مواطنيه لان (من ساء خلقه ضاق رزقه) وفي
 الحقيقة والواقع أن أخص صفة في الشخص الخلق الدنيء
 واللسان البذيء— ولا يخفى أن من واجبات الدين حسن الخلق
 والسخاء فالحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في
 سلامة وتراه قد كثرت مصافوه وقلت معادوه وتسهل عليه
 الأمور الصعاب وتلين له القلوب الغضاب وأما السبيء الخلق
 فتراه يا للعجب وبالضيعة الأثب قد جهل قدر نفسه ولم يفرق
 بين يومه وأمسه وهو من نفسه في عناء ويعيش العمر في شقاء
 وترى الناس منه في بلاء

ومن أراد أن يجعل ذكره مدونا في صحيفة حسن
 الأخلاق فعليه أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق
 الوجه قليل النفور طيب الكلام لا يستفزه قلب الأحوال
 وجريان الأقدار ولا يفره غناه فيسوقه الى ارتكاب الأثم

وإذا كان متولياً أمراً فلا يجزع ولا يستبدل حسن الخلق
والصبر بالهلع والبذاء لأي سبب عرض أولاً أي أمر طراً

١٦٣

﴿ وصف حريق هائل ﴾

بينما كانت السماء روضة مزهرة بالكواكب والنجوم
المسفرة أروض في رياضها جواد فكري وأسرح في درر
الدواري نظري بكل فرح وانشراح وسرور وارتياح إذ
سمعت ولولة وبكاء وصراخاً وغوغاء فنظرت نظرة في النجوم
ويا لها من نظرة أوجبت الحسرة والهموم من دخان قد ملأ
الجوّ والفضاء وحجب كواكب القبة الزرقاء فتغيرت الافراح
بالاتراح وتبدل كأس الهناء بالشقاء وذهب الصفاء ضحية
العناء ورأيت الناس فوق الديار يقولون النار النار فأسرعت
إلى الخروج من المنزل لأستكشف هذه الأخبار فوجدت
لكل انسان شأنًا يعنيه يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه
وزوجته وبنيه وأصحابه وأهليه والناس في هرج ومرج
ولادخول ولا خروج وفي شدة وضجة ورعدة ورجة سكارى
وما هم بسكارى بل من شدة النيران حيارى ولما وصلت محل

الحريق رأته منظرًا يفتت الأكباد ويقطع شامخ الأَطواد
 رأيت الدور الشاهقة قد أمست قبورًا والمنازل العامرة قد
 باتت قفورا ومع ذلك كله فالنار زادت وتأججت كأن
 الجحيم قد سمرت وامتدت ألسنها وطالت وتطال لهبها وصال
 فاشتد بين جميع الناس الخطب واستغاثوا بجنود المطافى فحضروا
 و ضربوا عليها الحصار و صاروا يخلصون المنكوبين من مخالب
 النار ثم أتوا بالمضخات و شنوا الاغارة عليها بالطلقات ورموها
 بالخراطيم والميازيب و قدفوا عليها المياه من فوهات الانابيب
 وما تزيد الا عتوا وفسادا و تلتهم الانسان والحيوان قسوة
 و عنادا فاستمرت الحرب بينهما مدة من الزمان وهي تكافحهم
 بأقوى جنان وأحد سنان حتى فرقت أيدي سبا كل من
 حضر و بددت الأموال والامتنعة شذر مذر فعززت
 الحكومة الجنود بأورطة من جيش كأنهم أسود فشنوا عليها
 الغارة بكل شجاعة وجسارة وقاوموها مقاومة الأبطال
 وأخذوا لهبها في الحال

١٦٤

﴿ وصف يوم شم النسيم ﴾

شم النسيم عيد قديم تخرج فيه الناس وحدانا وازرافات
وقد سالت بهم الطرقات واكتظت أحشاء الفلوات ونزحوا
الى الحدائق والمتزهات وغادروا المعامل الى حيث الربى
والخائل كأنهم مطر درته الغمام أوجراد زفته الرياح السائم
أومجتمعا أسواق لا بروج فيها الا الفسوق تجتمع فيه الغواني
والرفاق والساق على الساق والفم قريب من الفم يتلاقون
الى جانب اليمّ يتبادلون التحيات بالحواجب ويشفقون على
القلوب فيضعون الأيدي فوق الترائب يختلسون النظرات
وتحتها سهام صائبات والغواني بين تلك الشباب يتهادين تهادى
الحباب ويتراسلن بالعيون ويتحدثن والحديث شجون وتفنن
القوم فى اللباس تفننهم فى الأرجاس فمن عمامة بيضاء فوق
هامة سوداء

ما كل من لبس العمامة سيد	ما كل من لبس القباء أمير
ما كل ذى لب يدير مصالما	حتى يهذب بيته ويدير
ما كل ذى حسب شريف انما	شرف الرجال يسوقه التدبير

ما كل أفراد البرايا واحد ولكن فرد في الحياة نظير
ومن طربوش أحمر على شعر أصفر ومن حلة خضراء على
قائمة سمراء واشترأبت البرانيط على قوم شاميط ثم دارت
رحا الأفراح بين العقول والراح وتحكمت الكؤوس في
الراءوس ودبت الصبياء في الأعضاء ويلثمون الراح بالراح
ويأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون بين نعمة بالحديث
الرخيم ونشوة المدام النديم ونعمات الأوتار تدعو الى
اغتنام الأوطار تهدي الارتياح الى الأرواح وتبدل الأفراح
من الأتراح

١٦٥

﴿ لا ينجح الأمل الا بالعمل ﴾

ان الطبيعة البشرية قد أودعت في نفس كل امرئ أملا
فطرته عليه فهو مجبول على حب الرفعة والعلاء يحدث نفسه
دوماً بالارتقاء الى أسمى المناصب وأعلى المراتب ومدفوع
لاقتحام الأهوال والأخذ بناصية الأعمال حبا في الوصول الى
المرغوب والحصول على المطلوب وهذه الرغائب تختلف
باختلاف الهيئات والمنازع التي يتطبع الانسان عليها ويتعرع

في مهد الميل إليها فقد تكون «مألاً» يفرغ كنانة الجهد في تحصيله
أو «علماً» يحث مطايا الجدة في احرازه أو «سؤدداً» يشحذ غرار
الكدة في نيته — وقد تكون تلك الرغائب بعيدة عنه حين
شروعه في معاطاة أسباب تحصيلها فما الذي يقصر مسافاتها
الترامية ويسهل صوب مسالكها المتناثرة ويطوى بينها وبينه
مشقة البين ويجعلها منه معقد الازار وأقرب من الحاجب للعين
بل أدنى من قاب قوسين ويصير حصولها متحققاً كمضى أمس
أو كطلوع الشمس هو الأمل تلك العاطفة التي أنار بها الحق
جل جلاله نفس الانسان وجعلها له في وادي الاتعاب خير
عزاء وأعظم سلوان — فالأمل مدعاة الاقدام ومجلب البأس
ومزيل القنوط ومبدد اليأس والحافظ ببناء الأعمال من السقوط
ومساعى الرجال من الجبوط والقاشع من الأفكار ظلمات
القنوط — فبه تنتعش القلوب وتحيى النفوس في حالتى النعم والبؤس

ويشد العزائم ويقوى الهمم

أعلل النفس بالأمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
ولكن هل ينال الغنى بالمنى أو يجنى الثمر من غير زرع الشجر
وهل تأتى الأرض بالأثمار بدون حرث أو بذار أو تسج

الثياب بدون بد أو دولاب حاشا فلا ينجح الأمل إلا بالعمل
والا كيف يتأتى للمؤمل من الدهر الارتقاء الى المناصب
العلياء أن ينال آماله بفتوره واهماله — تالله لو ظل طول
الدهر على هذا الحال لما أدرك شيئاً من الآمال

فعلى الانسان أن يقرن الأمل بالعمل بحيث لا يألو
جهدا في ذلك واصلا ليله بنهاره غير مكترث بالمشقات والاعتاب
ولا مبال بما يقتحمه من الصعوبات والأهوال فان من كان
ديدنه العمل وشيمته الصبر لا بد أن يدرك مناه ويمحظى بما يتمناه
لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

١٦٦

﴿ هل الأفيد للمملكة الرجال أو المال ﴾

لا ريب في أن كل أمة حياتها موقوفة على الاعمال
النافعة التي تؤدي بها الحقوق الوطنية ولا يكون ذلك الا اذا
صدرت الاعمال من رجالها الحقيقيين الذين تبعهم الطبيعة الى
القيام بها — فالامة لا نجاح لها في الحال الا اذا كان الماضي
قد أعد لها رجالا يديرون أعمالها فان لم تكن كذلك اضطرت
الى استعمال رجال من غير بنيتها وهم وان قاموا بالواجب عليهم نحو

وظائفهم فلا يقومون بالواجب عليهم نحو الوطن والأمة
وعلى هذا يكون الغرض من الاعمال فاقدا صفة الكمال
ومسئولية هذا النقص عائدة على الماضي ورجاله يعاتبهم عليه
التاريخ وليس في الامكان تدارك هذا النقص حالا بخلافه
استقبالا فانه يمكن أن يتدارك بتهيئة الرجال الا كفاء من
الآن والمسئولية في ذلك عائدة على الحاضر وبنيه فلا يكتفى
في مؤاخذتهم بالتاريخ لأن المسئول حتى قائم تطالبه الأمة
والوطن والتاريخ فلا يخلصون من هذه التبعة الا بالاهتمام
بالاعمال الحالية وتنظيم ادارتها في الدوائر على اختلاف فروعها
مع اقامة قسطاس العدل ومحو آفة الجور ومراعاة الاعمال
وتطهيرها بالترية لينزع من القلوب الحقد والتحاسد والتباغض
فيموت من الأمة الانشقاق والاختلاف وتعتد الضمائر على
الولاء والمحبة ليطرد من بينها العدو الباطن الذي هو أشد
فتكا بالجامعة من العدو الظاهر لان ذاك العدو يتخذ الممارسة
والمدارة والنفاق حبال لغاياته فيخدع بظواهره البسطاء بخلاف
الثاني فهو مجاهر ظاهر يسهل الاحتراس منه فان تم له ذلك
وجد الاتحاد الذي هو روح حياة الاعضاء وداعية التعاضد

والتكاتف الواجبين لغاية الاصلاح وهذه كلها معدات لتهيئة الرجال القادرين على استلام زمام الاعمال في المستقبل والساعى في ذلك انما يعمل لحياة الأمة ومن أحيها فكاكنا أحياء الناس جميعا — وانظر ما قدر هذا العمل المبرور وما جزاؤه عند الله وعند الناس والتاريخ

وعلى الضد من ذلك من يسعون في تبديد هذه المعدات واضاعة تهيئة الرجال للمستقبل فانهم بذلك يحاربون الله ورسوله والأمة والوطن ويمنون أعظم الجرائم وشر الجنایات فما جزاء هؤلاء الا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم عذاب عظيم

ولقد أخطأ من يظن أن مجد الأمة وسلامة المملكة بالمال والحرية لأن المال لا ينهال من السماء والحرية لا تنبعث من الينايع والجداول وكلاهما لا يأتي الا من طريق العزم والحزم ولا يفرس في الأمة الا بأيدي كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متحليا بجلباب السعادة والرفاهية في أعين الشعوب وهذا مما يوجب على افراد الأمة التمسك برجالها أصحاب

المبادئ الصحيحة الذين يحبون البلاد وسعادة أهلها ويسعون
 في جلب الخير إليهم وفتح أبواب الأعمال لهم لأن إخلاص
 الأمة لكبار رجالها موجب لتقوية الرابطة الوطنية لما فيه من
 فضيلة الشكر على محاسن الأعمال — ولقد قالت الحكماء إن
 أعظم شيء تسود به الأمة محبة كبار رجالها والإخلاص لهم
 إذا عملوا ما يجب عليهم

وسبب ذلك أن من يعمل الخير ليحمد يجب أن يحمد
 ليوفي حقه وأما من يعمل الخير لأنه خير فيجب أن يضاعف
 له الحمد — والأمة التي تعرف قدر الأفراد وتعرف لهم ما يعملون
 تحت ذلك طريقا إلى تكثير رجالها وتقوية روح الارتباط
 فيهم وتستجلب بذلك مرضاة أعاضدهم وبذلك تتحد ارادة
 جميع الأفراد فيعمل الواحد صورة يتم بها عمل الآخر وهذا
 هو الغاية التي تمنها لنفسها مع رعايا الحكومات المنتظمة.

ولا يخفى أن توحيد الارادة من أهم الأمور لنجاز
 الأعمال العظيمة الشريفة التي يصعب على أكبر الأمم القيام
 بها وهذا لا يحتاج إلى بيان فإن العاقل يعرف أن عشرين رجلا
 تختلف ارادتهم في نقل حجر صغير لا يتسنى لهم نقله مهما

أضاعوا من الزمان - بخلاف ما لو اتحدت ارادة سبعة منهم مثلاً على نقله الى محل معين فانهم ينقلونه ولو استعمل كل واحد منهم واسطة لأن الغاية واحدة والارادة متحدة وهذا من أعظم المبادئ التي يجب على الأمة الالتفات اليها وتعويد الأُنفس عليها فاذا اتحدت ارادتهم مع ارادة كبار رجالهم اتجهت بهم تلك القوة العظيمة الى الاعمال النافعة وسعدوا بأنفسهم وفازوا فوزاً عظيماً

ولاجل أن يتعلم الانسان هذا المبدأ يجب عليه أن يحرص على جميع أعمال كبار الامة الذين أخذوا على أنفسهم القيام بعظام الاعمال وسعوا جهدهم الى نفع بلادهم وبنيتها فيجعله درسه حتى يتبين منها اتجاه قوى ارادتهم الصالحة وحينئذ لا يألو جهده عن السير على مقتضى تلك الخطة التي تشيد لوطنه الفخر والمجد وتمنحه السعادة والخير

١٦٧

﴿ هل الانفع لمن عنده مال أن يصرفه في تعليم أولاده

أو يبقيه ميراثاً لهم بعد مماته ﴾

المال مادة الحياة وقوام ضروريات الانسان وحاجياته

وكالياته من المطاعم والملابس والزينة فلولا ما بقى للحياة عين
ولا أثر - وكما أن عليه مبنى وجود الجسم كذلك به يحصل
حياة الروح وكالات النفس ولذة العقل وهو الواسطة لتحصيل
لوازم تعليم الفنون والعلوم النافعة ومتى تعارض علي المال خطة
صرفه في سبيل التعليم في الحال أو بقاءه للمال وجب صرفه
في الوجهة الأولى اذ العلم غذا العقل وهو أشرف من الجسم
ولنعم العوض - علي أن ما فات من ادخار المال يناله أضعافا
مضاعفة بواسطة العلم -- وناهيك بمنافع دائمة لا مقطوعة ولا
ممنوعة ولذة عالية وآثار باقية ورفعة قدر ونباهة شأن وشرف
منزلة - وهل يقاس ما يتناهى وهو المال بما لا يتناهى وهو
العلم وما شرف الماديات في جانب المعقولات وهل يذكر
الدينار في جانب الافكار أو يقاس الصامت بالناطق والميت
بالحي بل مثل ما ينفق في سبيل التعليم كمثل حبة أنبتت سبع
سنابل في كل سنبل مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله
واسع عليم - علي أن العلم يجرى من المال مجرى الروح من
البدن والحاكم من المحكوم والحارس من المحروس بل الفارس
من الفروس وهل خلد التاريخ في صفحاته الا أهل العلم

وأرياب الجدّ في الأدب وأنصار البحث في الحقائق فمنهم
السياسيون والملوك العادلون وبهم استقامت البلاد وانتظمت
الدول واستتب العدل ومنهم العلماء والحكماء والمخترعون
والمكتشفون هدى للناس ونوراً وهل رأيت لأحد منهم فيه
ذكراً أو سمعت له قط فيه شكراً

فقر بعلم تعش حيا به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء
وبالجملة فنحن بالطبيعة نشعر بالسرور التام حينما يرى
الواحد منا أن له ولداً يؤمل فيه النجاح ويرى عليه دليل الفلاح
فينفق ما استطاع أن ينفق وذلك لأن النفوس من طبعها تميل
الى العلاء—ولو كان كما يقول بعض الناس أن أميال الانسان
الى الشر أكثر منها الى الخير ما كنا نشعر بهذا الشعور وما
كان لدينا هذا الاحساس ولكانت الأزمنة الهمجية باقية
الى الآن

علم الله أن المال الكثير الوافر ليس بشيء بجانب نجاح
الأولاد وتهذيبهم بدليل أنه يهون على الرجل أن يكون صفر
اليدين بجانب نيل هذا المبتغى كما نجد أن صاحب المال الذي لا أولاد
له منكود الحظ منغص العيش

وأكثر من هذا حزنا الذي له أولاد لا بركة فيهم ولا
 نجاح لهم فيحسب لانهطاطه ألف حساب ويتمنى لو مات
 هؤلاء الأولاد حتى يستريح فؤاده ويحفظ شرفه—والحقيقة
 أن لا عار أعظم من فساد الأولاد

إذاً الرجل الذي يبتغى أن يعيش سعيداً في أولاده
 وأخراه يجب أن يبذل كل نفيس في تهذيب أولاده حتى
 يموت آمناً على بيته من الخراب وعلى عرضه من أن يثلم
 وسيرته من أن تقبح، هذا من جهة—ومن أخرى يضمن بقاء
 العز لأولاده وجميل الذكر لنفسه إذ الناس يثنون عليه
 ويطلبون له الرحمات كلما نالهم خير من أولاده كما أن المال الذي
 أنفقه عليهم يأتي أضعاف أضعافه—وكما طالت حياتهم كلما زادت
 ثروتهم— ولو كان كل رجل يعنى بتربية أولاده لكانت
 الأمة كلها راقية حية إذ كل واحد يعرف حقوقه ويمكنه أن
 يدافع عن نفسه وعن أمته فإن الأمة إن هي إلا أفراد فإن
 كانوا أحياء كانت حية وإن كانوا أمواتا كانت كذلك
 نعم الآله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

١٦٨

﴿ الكفاف مع العمل أهناً أم الثروة مع البطالة ﴾
 خلقنا لنعمل لطلب الخير ونتحرك للحصول علي الرزق
 لأن الله أوجدنا لحكمة وهي أن نعمل فنعبده ونعظمه شكراً
 له علي نعمة الوجود وعلي بقية النعم الجليلة التي تفضل بها علينا
 حتى يكون هذا العمل سبب سعادتنا في الدنيا والآخرة وأمرنا
 أن نسعى في طلب الرزق بقوله عز شأنه (فامشوا في مناكبها
 وكلوا من رزقه) بأن نشتغل فندرس العلوم ونفعل الأرض
 وندير التجارة ونحسن الصناعة لتكون هذه الأعمال سبب
 سعادتنا وراحتنا في هذه الدنيا ونكون قد أدينا الثمرة المطلوبة
 منا والغاية المفروضة علينا وهي العمل والشغل — تأمل تجد
 أن الله خلق الأشياء وجعل فيها ثمرة تؤذيها فثمرة النباتات
 حبوبها وأزهارها وثمره الأشجار فواكهها وثمارها وظلالها
 وأخشابها وثمره الحيوانات ألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها
 ولحومها ونتاجها وركوبها وجرّ الأثقال وثمره الطيور بيضها
 وريشها ولحومها — وليس للانسان ثمرة من تلك الثمار وانما
 ثمرته شغله وعمله فاذا لم يعمل ويشتغل كان أحقر الحيوانات

وأصغر النباتات وأخس الطيور خيراً منه — انظر الى النحلة
التي هي من أصغر الحيوانات تعلم ان الله أمرها أن تشتغل
وتتخذ لها البيوت من الجبال والأشجار وتأكل من كل الثمار
لتؤدى المنفعة المطلوبة منها وهي العسل — فهل يليق بالانسان
سلطان المخلوقات أن يكون أقل شأناً منها

وبالجملة خلق الله الانسان ليعمل ويسعى وناط بعمله قوام
الوجود وأساس النظام وجعل أكثر الامم غلبة في الارض
أحسنهم عملاً وأدومهم سعياً في مرافق الحياة فالعمل روح
الحياة ومصدر الغنى ومنشأ العمران — فالذى يعمل ويمجد
طالباً عظام الامور وأسمى المراتب واضعاً نصب عينيه السماء
أو الهلاك العلاء أو الفناء النصر أو القبر فلا بد أن ينال
ما يطلبه ويبلغ ما يؤمله ويمجد الراحة مع الهناء ويعيش محترماً
محاطاً بكل أنواع العز والصفاء — وما المثرى الذى لا يعمل
شيئاً الا عضو فاسد فى المجتمع الانسانى يجب بتره قبل تفاقم
الداء فيعسر الدواء

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

١٦٩

﴿ الاحساس والشعور ﴾

الاحساس اما ظاهري وهو شعور النفس بالآثار
الظاهرية عند وصولها من الجسم اليها — واما باطنى وهو
شعور النفس بآثارها الباطنية

والشعور الباطنى هو أثر ينشأ عن هبوط أو صعود
التصورات الحاصلة والمشعور بها فى النفس
وبعبارة أخرى الاحساس أثر تبادل وتوارد التصورات
صعوداً وهبوطاً فالأثر الحاصل عن الصعود يسمى احساساً
ارتياحياً وعن الهبوط يسمى احساساً غير ارتياحى مثال ذلك
لو أعملنا الفكر فى تذكر اسم شخص فاما أن تصعد فتذكرها
وحيثئذ نجد من أنفسنا أثراً يرتاح اليه واما أن تهبط فلان تذكرها
وحيثئذ تشعر النفس بأثر لا تطمئن اليه

وبحكمة ارتباط الاحساسات النفسية بالتصورات يلزم من أراد
أن يحدث احساسات ارتياحية أو غيرها أن يولد لها تصورات
والاحساسات صورية ومادية — فالاحساسات الصورية
تنشأ عن الارتباط بين تصورين أو أكثر من جهة الصورة

وذلك كالانتظار والرجاء والتكدر والفرع والدهشة والشك
والملل والانس

والاحساسات المادية هي الشعور بكيفية التصورات
ومادتها - وتنوع الى احساس بالحقيقة واحساس بالحسن
واحساس بالآداب واحساس بالدين

فلا احساس بالحقيقة البحث عن نتائج الأعمال من جهة
مادتها - والاحساس بها ارتياحى اذا حصل عليها وغير ارتياحى
اذا حصل الخطأ فى اصابتها أو كانت غير واضحة

والاحساس بالحسن أو القبح هو الاحساس بالاستحسان
المطلق أو الاستقباح المطلق اللذين هما بمعزل عن الغرض الذاتى
وموضوعهما الاشياء الطبيعية والصناعية من حيث مادتها
وصورتها وما نستحسنه مطلقا نسميه حسنا وما نستقبحه مطلقا
نسميه قبيحا

والاشياء المحسوسة خاصيتها لا مادتها أو صورتها فان
كان الاحساس بها ارتياحيا سميت مقبولة أو لطيفة وان كان
غير ارتياحى سميت غير مقبولة أو غير لطيفة

والاحساس بالآداب الشعور بالخير أو الشر - فجل

أمانى الانسان أن الحسن والخير يلزم أن يحصل وأن القبيح
والشر ينبغي ألا يكونا ويحصل ذلك بواسطة التربية والتعليم
والمعاشرة وترقب الانسان لاعمال نفسه وغيره — والغرض
بالاحساس بالآداب أن تجتمع أفراد الانسان على ارادة واحدة
والاحساس بالدين شعور الانسان بذات موجوده أزلية
أبدية قائمة بنفسها — كيف لا والدين هو الناموس الباطنى
المرشد الهادى الى خطة الفلاح فى الحياة الدنيا وفى الآخرة
فحاجة البشر الى الدين كحاجة الجسم الى الغذاء فكما أن الغذاء
حياة الجسم وقوامه فكذلك الدين حياة للنفس لا تطيب الا
به — وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على أن الدين مربى
الانسان ومرشد الامم الى طرق المدنية منذ تكونت جمعيات
البشر حتى أننا لا نرى الآن أمة على وجه الأرض الا ولها
دين معروف وشريعة خاصة بها ولو من وضع البشر كما هو
حاصل عند بعض الشعوب الذى أهمل أمر دينه وفقد أصول
الشرائع الآلهية ثم رأى ألا حياة الا بالدين ولا اجتماع الاعلى
كلمته فاضطر الى الوضع بأى وجه كان

فبجان الله ما أعظم منته وأعدل عمله افتقرت الشعوب

فجمعها وتغالبت الأنفس فهدبها وتباينت المقاصد فوحدها
وأفترقت القلوب فألف بينها فانضمت الأقسام الى ما شرع
من شرائع ارتبظت بها مصالح الأمم واتحدت كلمة الشعوب
فذلوا المصاعب ومدوا اظلال العمران وشيدوا الممالك فوضعت
لهم طرق السعادة فسلكوها وتوصلوا الى نعيم الحياة فتمتعوا
به — ولذا قال بعض الفلاسفة في تعريف الانسان أنه حيوان
دينى ولم يكف بالنطق لأن التدين يستلزم النطق الصحيح ومن
لا دين له قريب من البهائم (ان هم الا كالأ نعام بل هم أضل
سبيلا) — وقصارى القول أن النفوس لا بد لها من مقوم
والعقول لا تكفى فى أن تسير أصحابها على النمط الذى يرضى
الخالق جل وعلا لأن من صفاتها الشر الغالب الخيران لم يكن
هناك عون له عليه ولا عون أقوى مما كان من عند الله تعالى
فهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى تالفت قلوب الأمم
المتنافرة وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة فاندفع الاسلام فى
أطراف البسيط الأرضى يدوخ أهله الممالك وينشرون الدين
واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب — كل
ذلك فعلوه فى أقل من قرن بواسطة جامعة الدين ورابطة

١٧٠

﴿ يد الله مع الجماعة ﴾

قد اقتضت الحكمة الآلية أن يكون للانسان السلطان
والتصرف في الأرض لا لأن يكون ظلماً جباراً بل عادلاً
يستعمل الكائنات فيما خلقت لأجله بالقدر الذي يقتضيه العدل
وناموس الحكمة — وحيث أن الانسان نوع ذو أفراد تحتاج
بالفطرة الى نموّ المادة وأنه ليس في طاقة الواحد الحصول على
ما تنمو به مادته من الحاجيات اندفع بالطبع الى طلب المساعدة
والائتلاف بأبناء جنسه

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وان لم يشعر واخدم
والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه

وما المرء الا باخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجزم

فالأمة التي يتحد أفرادها ويكون شعارهم «الواحد للجماعة
والجماعة للفرد والفرد يفدى الأمة والأمة تحمي الفرد» تسلك
سبيل السعادة والهناء

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا أحاداً
تأبى القداح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أفراداً
فإذا كان اجتماع أفراد العائلة قلباً وقلبا داعية القوة والمنعة
وعزة الجاه والجانب والظهور على المغالب والظفر بالعدو والمحارب
فهو لا شك في الأُمم روح جئانها ودعامة حياتها وسلم ارتقائها
وسيف احتفاظها بنفسها وغرار فتوحها — بل تاج عظمتها
وصولجان سلطانها — وما الوطن الا عائلة كبيرة أعضاؤها
عائلتنا الصغيرة اذا حلّ بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً واذا
نزل بهم بلاء اقتسموه — فالوطن له حقوق على أبنائه له حق
في اخلاص كلّي في أمانة تامة فاذا هدّد له أن يطالبنا ببذل
دمائنا وأموالنا فنترك عائلتنا ظهرياً ونخرج لحماية ودفع
ما يحوطه من المكاره

فسحقا لمن دخل العدو بلادَه عنوة واقتداراً ولم يدفعه
عنها الى آخر نسمة من حياته مجاهداً في استخلاصها من
قبضة يده

والأمة الشجاعة والقلوب الكريمة تصبر على القلة والجوع
أكثر من صبرها على الهوان والخضوع — ان مثل من باع

بلاده وخان وطنه مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيه ويطمع
 اللصوص فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه
 وبالجملة فالإتحاد دعامة السعادة وينبوع العزة والسيادة
 وهو اليد العليا في الحياة الدنيا وبدونه تحل بالامة الطامة
 الكبرى وتكون مغلولة يدها الى عنقها ولا خير في معنى بغير
 يسار - ولذا يحكى أنه كان لرجل سبعة أولاد وحقل يزرعون
 فيه بجد ونشاط وكد واجتهاد ولما حانت ساعة وفاته جمعهم
 حوله وقال لهم فليات كل واحد بعضا ففعلوا فقال اربطوا
 الجميع حزمة واحدة فربطوا فقال للاكبر استجمع كل قوتك
 واكسر هذه الحزمة ففعل فلم يفلح وقال للثاني كذلك حتى
 الاصغر فلم ينجح فقال لهم الأب فليأخذ كل عصاه ويكسرها
 ففعلوا وكان عليهم سهلا فقال لهم أبوهم ان مثلكم كمثل هذه
 الحزمة فان اربطتم مثلها وكنتم يدا واحدة وكانت قلوبكم
 على قلب رجل واحد تعسر على أعدائكم خذلانكم وفشلكم
 ودماركم واذا تفرقت قوتكم وتمكن منكم أعداؤكم
 واستولى عليكم البلاء والخسران فيا أولادى يدالله مع الجماعة
 فتعاونوا على البر والتقوى واستبقوا الخيرات لعلمكم تفلحون.

١٧١

﴿ خطابة تتضمن نهضة الأمة وحياتها ماديا وأديبا ﴾
 رب اشرح لي صدرى ويسر لي امرى واحلل عقدة
 من لساني يفقهوا قولى

سادتى - قال الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى
 يغيروا ما بأنفسهم) وقال عز وجل (ذلك بأن الله لم يكن مغيـراً
 نعمة أنعمها علي قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فهذا النص الصريح
 من الكتاب شاهد بأن تغيير أحوال الأقوام والأمم منشؤه
 تغيير ما فى نفوسهم - والعقل السليم والعلم الصحيح مؤيدان
 للكتاب الكريم فى ذلك

ولا يجهل أحد منا ما ناله أسلافنا من العزة والسؤدد
 وسعة الملك وقوة السلطان والتقدم فى المعارف والصنائع وما
 كانوا عليه من الكمالات والفضائل وما نحن عليه اليوم من
 عكس ذلك كله - فالنفوس المزينة بالمعارف الحقة المزكات
 بالسجايا الفاضلة يكون من آثارها الرقى فى معارج الكمالات
 الانسانية وبلوغ غايات ما أعده الله لبني آدم من المدنية الصحيحة
 والنفوس المجردة من حلى الفضائل العارية من حلل المعارف

تهبط بذويها الى أسفل دركات الحيوانية وتجعلهم عالة على غيرهم في كل شؤونهم بل تحرمهم من المزايا الانسانية وتسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب ويستعملهم كما تستعمل الآلات الصامته أو الأنعام بل أضل سبيلا

أيها السادة — ان حالة الأمة في السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الأمة

فاذا كانت أمة نشيطة مترية متمدنة كان لها الحظ في الدنيا وان كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها — والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهي لا تتغير أبداً الا بحال آخر (بمعنى ان ارادة شخص أو مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس)

أيها السادة — ان الحالة الاقتصادية في مصر لهي من المحزنات المبكيات ان مصر بلدة فقيرة جدا نصف أهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشئء التافه الذي يقي الحى من الموت جوعا — والنصف الآخر ينقسم الى قسمين الأول يشمل

التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالى ملى — والآخر محتوى على الموظفين وأرباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا فى معيشتهم ولكن أغلبهم ان حيل بينه وبين مرتب المعاش شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد — أما أرباب الاطيان من الذوات والعمد والمشائخ والاعيان فى البلاد فخالهم كحال « رايبيل » المؤلف الفرنساوى المشهور اذ قال فى وصيته « انى لا أملك شيئاً وعلى ديون كثيرة وأوصى ببقية ما أملك للفقراء »

والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها مادام فقرها أن تؤمل خيراً فى المستقبل لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها اذ بالمال يتم كل شىء وبغير المال لا يتم شىء مطلقاً

والمملكة لا تكون غنية الا اذا كان أهلها أغنياء ولذلك قال أحد السواس المشهورين « أعطنى مائة حسنة أعطك سياسة حسنة » وعلى هذه القاعدة وجهت كل أمم أوروبا التفاتها الى المسائل الاقتصادية وصارت كل أمة تراحم الأخرى فى هذا السبيل والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاسراف

على ميدان هذا التنافس كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا
الى هذه الدنيا. للتفرج على أهلها أياما معدودة ثم العودة الى
أوطاننا بعد ذلك بسلام — والحقيقة أننا نحن موضوع تنازعهم
وسبب مشاكلهم — نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منهم
أن يتلهمها في جوفه

وبمثل تلك المساعي توصلت الأمم بنتيجة عملهم الصالح
الى اقتناء الثروة — فالواحد منهم تربي على أن يشتغل وتربي
على أن يعتمد على نفسه (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن
سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) فهو حتى ثابت
عامل جسمه يتحرك ومخه يؤدي وظيفته كأنه آلة متى غادر
سرير نومه في الصباح أدار دولابها فتدور وتستمر دائرة الى
وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم — وعلى العكس من
ذلك الواحد منا نحن المصريين

أيها السادة الاستقلال في المعيشة قبل كل استقلال
فأول كل شيء يجب على كل فرد من أفراد أي أمة أن يكده
في طريقة تضمن له معيشته ان لم يكن يعمل يعود نفعه على
الهيئة الاجتماعية فعلى الأقل لا يعود منه ضرر عليها لأن أمر

معيشة الانسان هو في مقدمة كل احتياجاته - فلي كل نفس
 تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب أن تكون مستقلة
 غير محتاجة للغير تكفل نفسها بعملها ولا يباح لها مطلقا أن
 تكون عالة على غيرها - فمن العيب أن يقوم شخص بجميع
 حاجات شخص آخر ومن العار على هذا أن يقبل مثل هذه المعيشة
 أيها السادة ان المصريين أصبحوا في خمود أشبه بالموت
 فهم الآن أعوز الى التذكير بالحياة منهم بالموت

فمن البديهي ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة
 الكفاف لأنه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان
 التنافس في المزيد - فعلينا أن نسعى والحالة هذه لتحسين الحالة
 المادية والأدبية - وليس الغرض من تحسين الحال على هذه
 الطريقة أن يجمع الانسان المال حبا في المال بل المراد أن يكون
 عند كل واحد طموح شريف الى العلاء ولا يكون له ذلك
 الا اذا سعى ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه وسكنه وان
 يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجته المادية في ترقية عقله وتربيته
 أولاده وأن يأتي من الافعال النافعة للهيئة الاجتماعية ما ينبطه
 غيره على فعله - ويا للأسف المصري لا يحب الشغل ولا ينشط

لعمل فيه رزقه وانما يجب أن تمطره السماء ذهباً وأن تنبت له
الارض فضة ويجب أن يكون أغنى الناس علي شرط ألا يتعب
جسمه ولا يجهد فكره - والسبب في سقوطه هذا أمران
الأول سوء معاملة الحكومات السابقة له فانها بظلمها أضاعت
الأمانة والثقة ففقد ملكة الاقدام علي العمل والمخاطرة في
الشغل والثاني سوء تربيته - وهذا هو السرف في أن جميع الأعمال
القليلة التي شرعنا فيها كتأسيس مدرسة او انشاء جمعية او
تشكيل ناد او عقد شركة لم تعش الا بقدر ما تعيش الوردة
ايها السادة اذا سلبت الأمة حريتها اسرع اليها غالباً
الفناء فان الحرية فطرة طبيعية مغروزة في كل حي - الحرية
فطرة فطر الله عليها كل فرد فليس لواحد من بني الانسان ان
يسلب آخر حريته واذا كان الفرد حراً بالطبع فالأمة التي هي
مجموع الأفراد حرة من باب اولى . وليس لهذا الفرد ولا لهذا
المجموع ان يتنازل عن حريته لأن التنازل فرع عن الملكية
والحرية غير مملوكة للحر فليس له أن يهبها للسلطان بل كل
هبة من هذا القبيل باطلة بطلاناً اصلياً فأما امة وهبت حريتها
للملكها وجعلت نفسها عبدة له فهبتها باطلة وحريتها باقية ثابتة

وعلى ذلك ليس لملك ان يدعى ان قومه عبيد له اذا وهبوه
 حريتهم فكيف يسوغ ان يدعى استرقاق قومه واعتبارهم
 عبيداً له بغير ارادتهم - فالحرية هبة من الله عز وجل - قال
 عمر بن الخطاب « تريدون أن تستعبدوا الناس وقد ولدتهم
 أمهاتهم أحراراً »

أيها السادة ما أجل الشقاء مع الحرية وما أقبح الحياة
 مع الذل فان لم تكن في الحياة سعادة فليكن الفناء
 أيها السادة اني أخاف ان يمكم عذاب من رحمة الترف
 ونعيم السكر والغنى فتبتحلوا شرابها وتستمروا طعامها ثم
 لا تلبثون أن يأتكم عذاب ذهاب المال وضياع التجارة
 بغتة وانتم لا تشعرون

أيها السادة اني ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب الخزي في
 الحياة الدنيا والسعير في الآخرة أنفقوا المال لنشر العلوم
 والمعارف أنفقوه لتشييد الجامعات والكليات واعلموا أن
 الأمة لا تقوم الا على معرفة عظمائها السابقين وأبطالها المشهورين
 وكبارها الغابرين وما أحاط بها من علوم وعمران وسياسات
 ونظومات ومخترعات المخترعين ومبتدعات المجدين ومكتشفات

الدول والممالك

أيها السادة لمعرفة أسلاف الأمة وفضائل أجدادها تقرأ تاريخ قومها وتدرس دينها وتبني مجدها مؤثلاً وترفع عزها ممنعاً وتدرس علوم الشعوب ودستور الأمم ونظام الدول وبذلك يبرز سعداها وترفل في عزها المكين

أيها السادة الأمة في هياتها كالإنسان في حياته لا يتمكن من معيشته بين بقية الأفراد الحية سواء كانت من جنسه أو من أنواع أخرى الا بثلاث - قوة تدفع عنه من يريد التغلب عليه والفتك به واختلاس ما في يديه - وأدوات يعمل بها ليعيش - وفكر يدير به أحواله ويتبصر به في معيشته ويسترشد به في جميع أعماله وأطواره فان فقد منها واحدة لم يغن عنه الباقي شيئاً لأنه لو ضعف عن مقاومة غيره داسته الأرجل واستهان به أعداؤه ولو فقد أدوات العمل وضعف عن ادراك ما يقصد من أمانى حياته ولو خلا من الروية والفكر اختل ميزان سيره واشتبه في الضار والنافع فيسير خلف ما توجهه اليه الصدفة وقلما ينجو من سقوط بل لا بد له من ذلك مهما كان عمله وقوته - وهكذا تكون الأمة محتاجة في قوامها

الى هذه الثلاث والا تلاشت ووقعت في النكال فلا تلبث
 أن تصير في خبر كان - فالأمة التي تريد أن تغالب حوادث
 الأيام وتعيش قائمة لها وجود مستقل وحياة خاصة بها محتاجة
 الى فكر وهو من واجبات الهيئة الحاكمة وعقلاء الأمة كي
 يتأتى لها أن تدير أعمالها الى محور الحكمة والاختبار ومحتاجة
 الى القوة وهي ما تعده من قوّة الجند والحرس والخفارة لتأمين
 داخلتها وتحصن ثغورها ومعابلقها وتحفظ حصونها وقلاعها
 ومحتاجة الى العمل وهي القاعدة التي تناط ببقية الشعب من
 أفراد الأمة فيقومون بحاجتها من الزراعة والتجارة والصناعة
 غير أن هاتين القاعدتين الأخيرتين توجدان في الغالب بعد
 توفر الأولى من حيث الكمال وبلوغ الغاية ولكن الله تعالى
 قد جعل لكل واحدة من الثلاث آفة تتسلط عليها لتضعف
 من قوتها وتخدش من ناموس انتظامها فجعل في مقابلة الأولى
 وهي قوّة التبصر والروية آفة النفاق من المفسدين المنطبعين
 على حب الشعبذة واثارة المفاسد واشغال نيران الأحقاد في
 الصدور وهؤلاء لا يتمكنون في الغالب من مقاصدهم الا
 اذا سدلوا على ابصار الساذج والبسطاء ثياب التمويه والمخاتلة

باظهار حب الخير للأمة ورغبة السعادة للأوطان فيوهمون بما
 ظاهره المحمّدة والغيرة حتى اذا اجتذبوا من أميال من هم على
 شاكلتهم زينوا لهم سوء الأميال وحسنوا لهم الانتقاد على
 الاعمال بحجة المحافظة على الحقوق والواجبات ووجهوا مقاصدهم
 الى ما ينطلي بالأوهام على الأفهام حتى ينقلبوا بالسخط عن
 الرضى فلا تشتغل نفوسهم الا بالتألب في الفساد والسعى فيما
 يفرق جامعة الوحدة ليضعفوا من سلطان التدبير وقوة سياسة
 ولاية الامور الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع تفكراً فيما
 يحسن أن يعمل وتصلح به الأمة وتسعد به الأوطان كي تمل
 نفوسهم وتكل عزائمهم وقد ابتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بالمناققين (الذين اذا جاءوا اليه قالوا نشهد أنك لرسول الله والله
 يشهد انهم لكاذبون) في مطابقة أقوالهم لأفعالهم حتى كان يقول
 بعد رجوعه من كل غزوة رجعنا من الجهاد الا صغرا الى الجهاد
 الا كبر جهاد النفس وهواها وما يعنى بذلك الا خوف تغلب
 الاميال الشريرة على الاميال البارة فيفل بذلك جمعهم وتفرق
 كلمتهم ولما رجع من الحرب منصوراً مظفراً جمع قومه فخطب
 فيهم وأخذ يحذرهم من المدوّ وأكثر من قوله « واني أخشى

أن يتغلب عليكم واني أخوفكم على ذلك» وقد اشتدت به اللهجة
 وغلبت عليه الحدة حتى تخيل الناس أن يكون قد دخل العدو
 منازلهم فارتعدت فرائصهم واضطربت أفكارهم وانفخت
 أوداجهم ولم يصبروا أن خاطبوه قائلين «ما الذي خافه علينا
 وقد غلبنا الأعداء وأورثناهم الذل والنكال وألحقنا بهم العار
 وأسرونا جبارتهم وهم الآن بين أيدينا صاغرين» فقال «اني أخاف
 عليكم من عدو أشد من هذا فتكا وأعظم نكاية وأقرب أن
 يتغلب عليكم انى أخاف عليكم من العدو الذى بين ظهرانيكم
 ولا أبرئ جمعكم هذا منه» فلما سمع القوم مقاله اندعروا وقاموا
 وجردوا السيوف المرهفة كأنما يستعدون لمقاتلة أشد الأعداء
 بأسا وأعظم الجنود بسالة فقال «لست كذلك أقصد بل أخشى
 عليكم من دولة النفاق ومملكة الخداع فانها أقوى الدول وأشد
 الممالك وان الواحد منهم أشد ضربة على الأمة من جيش عرمرم»
 فأننا أطالبكم اليوم أن تخذلوا هذا العدو الباطن الخفى فانه يظهر
 بمظهر الأحياب الذين يمارون ويدارون ويستخرجون الضلالة
 من الهدى فان رأيتم أحداً من هذه الطائفة التى شأنها محاربة
 الأوطان فاصنعوا أقتيتهم بالصد عنهم وامتهنوهم بخذلانهم

ولا تنصروهم عليكم يوماً فانهم يغالبونكم بكم وتيقظوا أن
يستغفلوكم بحسن طواياكم والا أوقم أنفسكم في هوة الهوان
وارتبطوا بولاية أموركم فان رأيتم فيهم اعوجاجاً فطالبوهم
بالتقويم مطالبة الرجال ولا تكونوا كالنساء يتكلمن همساً
ويوسوس الخناس في صدورهن وان رأيتم بعد ذلك صدا
وجاحاً وميلاً عن طريق الهدى فأنتم في حل أن توقعوا بهم»
ونصح أبرويز كاتبه فقال «ان رأيت مني ما يخالف طريق
الحق فراجعني فيه مراجعة الكريم ولا تختلني من خلق
باخلاق اللئيم الذي ينافق في الشهادة ويدم في الغيب ولا تأتي
معتزلاً ولكن مستغماً أشاركك في الرأي فمن قنع منا
استرشد به الناس»

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الشرك
فبكى حتى اخضلت لحيته الشريفة ثم قال «وانى لأخشى عليكم
من الشرك الظاهر بل من الشرك الباطن « الرياء والنفاق »
وأما الآفة التي تضاد القاعدة الثانية وهى القوة التي
تقوم بحفظ الأمة فهذه تدفع بالقوة الأولى متى تغلبت على
آفاتها وذلك أن حكمة السياسة كفيلة بأن ترتبها على النمط

الذى يحفظ قوتها وينقى عنها ما يتهدها من خيانة الخائنين
واضطراب المفسدين ويبعد عنها وسائل الجبن وبواعث الاختلال
وأما الآفة التى تقاوم القاعدة الثالثة وهى قوّة العمل
فأفرادها كثيرة غير أن أشد ما يكون عليها منها حب البطالة
والسكون فالبطالون فى الأمم هم الآفات التى تبطل من حركة
الأعمال فاذا تغلبت سرت العدوى الى الذين يعملون فيملون
الكسب من إحدى الطرق الثلاث وهى الزراعة والصناعة
والتجارة فيعيش الأكثر كالأعلى الأقل وهو لا يحمله ولا
يقوم بأوده فلا يمضى زمن حتى تضعف القوّة ويختل نظام
الأمة اذ تجف موارد ثروتها فتحتاج الى غيرها ومتى وصلت
الى هذه الدرجة دخلت فى حوزة غيرها ولا ينفعها وقتئذ ندم
فالواجب اذاً أن تتحرك الأعضاء للعمل فان الحركة

دين طبيعى من كفر به عذب بالحرمان والشقاء الدائم
أيها السادة الانسان وحدد هو العالم انفتقر الى تبادل
الأعمال فى هذه الحياة ومصالحه شتى ليس فى استطاعة فرد
منه أن يقوم بما يخصه منها فهو الذى أحوجته الطبيعة الى
استمداد بعضه ببعض

وأحوال كل أمة من صلاح وفساد مرتبطة بأعمال رجالها
وهذه الأعمال متوقفة على تقويم مناهج تعاليمهم الأولى وليست
قوانين التعليم وحدها كافلة لتربية الأبناء كما تقتضيه مطالب
الأمة بل لمقاصد المتعلمين وتعميم وجهة التعليم دخل عظيم في
كمال تربية الأفراد تربية نافعة للأمة

وقد سادت الأمم الغربية لاتجاه معلى شبانها الى بث
الأفكار التي ترقى عقولهم وتهيئهم للمطالعة الجليلة فينبغ أحدهم
وهو أعلم الناس بأن خدمة البلاد من أئزم الفروض وأوجب
الواجبات — فأنى رأى منفعة الجنس والوطن خلص وجهته اليها
ولهذا كانت أميال الأفراد غير منحصرة في الوظائف
الرسمية لعلمهم بضيق هذا المجال والدنيا رحبة الطرق فاذا كانت
وجهتهم منحصرة فيه دون غيره بطلت حركتهم اذ لا بد من
يوم تفص فيه تلك الوظائف حيث يكفيها النزر القليل من
الناس ثم ماذا يكون عمل الباقين وهم غير متهيئين لغيره
لا يكون الا الفراغ الذي عاقبته تجرد الأمة عن التجارة
والصناعة والزراعة الا بأيدي السذج الجهلاء وهم الى الفساد
أقرب منهم الى الصلاح

هذا ما دعى أولئك القوم أن ينوّعوا الوجهة ويفرّقوا
ما بين طرق التعليم فيتخرّج أحدهم وأمامه طريق يقصده
وعمل يسهل عليه أن يجد وسائله

وأيضاً ان التوظف عند أولئك القوم في الوظائف
الرسمية لا يعتبر أشرف من غيره لتقديرهم قيم الأعمال
وتحديدها بمقتضى الحاجة لها — كل ذلك من الدواعى التى
بعثتهم على تنويع الوجهة والاعتناء بأعمالهم فكانت النتيجة
عمران البلاد بتقدّم الفنون الصناعية والزراعية والتجارية التى
هى العوامل الوحيدة فى سعادة الأمم ورفاهيتها

أما نحن معاشر المصريين فقد مضت علينا أدوار قضت
علي من قبلنا أن يمحصر وجهة تعلمه فى دائرة ضيقة جداً وهى
تمنى الخدمة فى دوائر الحكومة والباعث على ذلك ما كان فى
البلاد المصرية من جبروت صغار الحكام وعظمة عمال الدواوين
بسبب ما لهم من السطوة والغلبة على الفلاح الذى كان أسوأ
حالا من الرق وأبخس قيمة من الحيوان الأعجم بل كان حظه
الذل والصغار — فالرجل العظيم الذى تراعى حقوقه اذ ذلك
كان هو الذى فى سلك عمال الحكومة وكان الحصول على

ذلك من أكبر وسائل السؤدد والشرف
هذا هو الذى جعل وجهة التعلم عندنا واقفة عند هذا
الحد لا تتعداه

وهذه حقيقة قد عرفها المصريون الآن فلا ينبغي للمتعلم
إذاً أن يجعل طريق مستقبله حرجاً بل عليه أن يصرف نظره
في التعلم الى الاستعداد والتهيؤ الى أى عمل من الأعمال وأمامه
العلوم شتى والنتائج كثيرة وحاجات تطالب بصناعة ضروبها
غير محصورة وتجارة فنونها متنوّعة وزراعة أرضها واسعة
قال بعض الحكماء من الجبن أن يرى الانسان لنفسه مقاما
مخصوصا - وكذلك من فتور الهمة أن يزعم أن الحيز الذى
هو به قليل الخواص فان ذلك فرية على الطبيعة التى لم تبخل
على بلادنا بامتيازات جلّي - ومن يدعى أن للتقدم أناساً
مخصوصين وللحضارة أرضاً مخصوصة فقد ضرب الحجر على
منح الخالق جل شأنه

والبلاد المصرية سمحة المنبت كريمة المرعى صافية الأفق
لا يكدرها الا ما سطر على أيدي أهلها من العجز « وهو
الكسل » وقد نهت الحوادث عقول الكثير فنشطت

وعلمت أن التعليم لا يقصد الا لمجد الأمة وكرامتها — لمثل ذلك فليعمل العاملون



أيها السادة حيث كان الانسان حيا يعيش زمنا طويلا ولا غنى له عما يقوم بأوده ويحفظ حياته الى الأجل المسمى وجب عليه أن يسعى الى نيل هذا الأمر واحراز تلك الغاية والناس مختلفون في طرق السعى كما أنهم مختلفون في نتيجته ولذلك يوجد منهم من لا يحصل على القدر اللازم ومنهم من يحصل على الحاجى ومنهم من يحصل على الكمالى وآخرون ترف الهم الأرزاق وتنهل عليهم الثروة ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ونحن لو نظرنا الى نتائج عدم هذا التساوى لرأيناها أضر من عدم تساوى الناس فى الأمور التى تنشأ من الطبيعة كالاختلاف فى القوة والذكاء والجمال وغير ذلك فان الفقير فى الغالب جاهل معرض للبلايا متقلب على بساط الحوادث قصير العمر مشتت البال مغضوب عليه لغير ذنب مشموت فيه بدون فائدة وان الانسان لأول وهلة قديظن أن الاغنياء قد ظلموا الفقراء واغتصبوا حقوقهم والواجب أن تقسم الاموال

على الأفراد كل بحسب حاجته ولكن الخبير يعلم ان ذلك خطأ
 فقد قسمها مقسم لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون
 وحيث كانت المساواة في الأموال متعذرة وكان عدمها
 مضرا كان من الحسن أن تقابل جميع التعديلات الاقتصادية
 بصدر رحب فان الأمة التي تتوزع فيها الثروة تحسن حالا
 وترتفع شأنها وان أعظم عامل في نيل هذه الغاية هو كيفية
 استعمال الزائد عن القدر اللازم من الأموال فان سبب عدم
 المساواة في الغالب هو ذلك القدر الزائد

اذا فرضنا ثلاثة رجال أحدهم يكثر الزائد عن حاجته
 والثاني ينفقه فيما لا طائل تحته والثالث يستعمله في الأعمال
 فأيهم يكون أنفع لنفسه وللناس — فبالطبع أن الأول يأخذ
 الدينار فيضعه حيث لا ينتفع به أحد في حياته فكأنه يأخذ
 جسما حيا ذا حركة ينتفع بها فيجسه الى أجل مسمى ويعدم
 الفائدة التي كان يأخذها من حركته وعمله وكأنه ينقص عدد
 التجار ويبطل رواج الأسواق وهذا من أضر المضرات وأى
 أمة كثر فيها عدد الذين يكتزون الأموال منيت بالفقر والخلل
 في الاعمال وكان ذلك دليلا على عدم معرفة أهلها بصناعة

التجارة أو على جور حكومتهم وظلما . وأما الثاني وهو المسرف المتلف الذي يذهب ماله في شراء الخشب المسندة والأواني المذهبة وغيرها فربما يظن أن ذلك أنفع للناس من رقيقه ولكن الامر بالعكس فانه يبذل الدينار مثلا الذي يعمل به العامل جزءاً من الزمن في تمثال أو انيه - والواجب على الانسان أن يعمل لحاجة الانسان حتى لا يضع عمله سدى فان الحركة التي يتحركها ثمينة جداً فاذا صرفت في غير الاعمال النافعة خسرها وكانت وبالاً عليه ونقصاً من رزقه فاذا اشتغل كثير من الناس بمثل ذلك فقدت الامة جزءاً عظيماً من العمل الذي هو رأس ثروتها فأصبحت فقيرة محتاجة . مثلاً اذا أخذنا مليوناً من الامة المصرية ووكلائه ببناء هرم في سنة أليست البلد تفقد من ثروتها بمقدار عمل هؤلاء الناس فتضييق الزراعة وتبطل التجارة الى غير ذلك - هذا اذا اشتغل المسرفون بما لا ينفعهم في حياتهم المادية وهو الكثير الغالب - أما ما ينفقونه تأثقاً في المطعم والمشرب فهو وان كان أخف عناء من الاول الا أنه يضر من حيث كونه يستدعي ضياع عمل ومادة فان بعض تلك المطاعم والمشروبات تستخلص من المواد المستعملة

للغذاء باعمال عظيمة فيخرج من الكثير منها القليل من تلك
الاشياء وبذلك تفقد الامة جزءاً مما كان يستعمل لغذاء بعض
أفرادها فترتفع أثمانه ويضر ذلك بالفقراء وذوى الحاجة ولقد
نهى الله سبحانه عن التبذير ومقت المبذرين فقال تعالى (ان
المبذرين كانوا اخوان الشياطين) وقال (كلوا واشربوا ولا
تسرفوا) الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الاسراف
والترف مفسدان للعمران ومرض من أمراض التقدم . وأما
الثالث وهو الذى يأخذ المال فيستعمله فى التجارة وغيره فلا
يكنزه ولا يبذره فهو الحكيم المدبر الذى تسعد به الناس
ويجدون منه ملجأً وعوناً على الاعمال — وأنفع علم يتعلمه الانسان
فى حياته بعد القدر الواجب هو ذلك العلم الذى ان لم نقل انه
يحيى به كثيراً من الناس فانه يعيش به عيشة طيبة وينتفع به
أقاربه وذووه وأهل بلده — وطرق استثمار الأموال كثيرة
تقدم ذكر معظم أنواعها فلا نطيل باعادتها

*
* *

أيها السادة لا يجهل أحد أن العدل روح العمران وأس
المدنية وأن الظلم من أقوى أسباب الانحلال والتفرق وان

الامة لن تنال رفاهية العيش ما لم يكن بينها من يتولى امر
الأعمال بالقسطاس المستقيم ولكن أليس من الواضح اليين
أن الأمة تتناوبها أدوار من الحوادث بينما تكون متدرجة
في سلم الارتقاء يظهر أمامها العدل بمظاهر متنوعة وصور
مختلفة وليس له في الحقيقة الا صورة واحدة وماذا ك الا خطأ
في النظر وضعف في التمييز

نعم ان الانسان مهما كان يشعر بألم الظلم فيعرفه ولا
يرتاب فيه ولكن لو سأله عن العدل في نفس الأمر لأخطأ
في الجواب وأورد لك صورة أخرى من صور الظلم زاعماً أنها
هي العدل المطلق وذلك لاشتباه العدل عليه بمنفعته الذاتية ان
كان من السذج وادخالها في دائرته وان كان من ذوى المسكة
ومن ذلك يتضح أن جميع من على سطح المسكونة يحبون
العدل ولكن أكثرهم لا يعرفونه وانه يسهل علينا أن نجد
من يريد أن يعدل غير انه يتعذر علينا أن نجد من يصيب
العدل في أحكامه

قال الامام عليّ كرم الله وجهه العدل صورة واحدة
والظلم صور كثيرة ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرى

العدل وهما يشبهان الاصابة في الرماية والخطأ فيها وان
 الاصابة تحتاج الى رياضة وتعهد والخطأ لا يحتاج الى شيء
 من ذلك وحيثما كان العدل فانه لا يتصور الا بين اثنين
 وعلي ذلك فهو بأخصر الطرق أداء الواجب وأخذ الواجب
 وكلا الواجبين لا يقدر الا بالآخر فالفلاح الذي يعلف
 بقرته ثم يستعملها في أرضه عادل اذا كان قد جعل البقرة
 والعلف في كفة ميزان والعمل في الكفة الأخرى أما اذا
 جعل العلف قبالة العمل أو جعل العمل والبقرة قبالة العلف
 فانه يكون ظلماً أو عادلاً باختلاف حالة الأرض وقوة
 الحيوان وتغذية العلف وتعليل ذلك لا يحتاج الى بيان غير
 أن من الناس من يظن أن الشيء قد يكون واجباً لذاته فينبى
 على ذلك ان الانسان يؤديه أو يأخذه بدون مقابل ولا يكون
 هناك ظلم وذلك خطأ بين فاننا لو تتبعنا حالة الانسان من طفولته
 التي لا يكون عليه فيها واجب يؤديه الى شيخوخته التي
 تشغل ظهره فيها الواجبات لوجدناه لم يدعن فيها بحق ولم يقر
 الا بواجب الا وله في مقابله منفعة يجنيها وواجبات يقتضيها
 فطاعته لوالديه ورضوخه للمعلم وصبره على مضض الأعمال

واذعانه للحكومة مما أوجبه عليه العقل الذي أعلمه أن له في مقابلتها منافع وواجبات لولاها لنبت الدرس ومزق الطرس وشق عصا الطاعة

وعلى ذلك فالرجل الذي يريد أن تستقيم عائلته ويعيش معها في صفو عيش وراحة بال يلزمه أن يلاحظ الواجبات المتبادلة بينه وبينها والتي بين الأفراد وبعضها ويحذر أن يجعل على أحدهم واجبا دون أن يكون قد سبق فمنحه ما يقابله وذلك هو العدل في أخص أحواله تقوم به القوانين الأساسية وقس على ذلك القبيلة والأمة والمملكة - ولكن لو فرضنا أن أحد الأفراد لم يتم ببعض واجباته فهل يحرم ما يقابل ذلك البعض من المنافع ويكون ذلك عدلا - كلا - إذ لو كان كذلك لكان ليس ثم حاجة للقوانين الفرعية فانه ربما أضر بعدم القيام به ضررا يفوق مقدار منفعته فانا لانعاقب الحارس على تركه اللصوص يرتعون في المساكن بقطع مرتبه فقط والا لأخللنا بركن عظيم وأضعنا شيئا نفيسا وهو الأمن بقيمة زهيدة وقس على ذلك - فقوانين الأمة وروابطها هي تمدنها وهيكلها في الحضارة - وواضعوا تلك القوانين هم بناء تلك

الهيئة ينالها منهم ما ينال البيت من حذق بانيه ونباهته ومعرفته
بمواضع النفع والضرر—والرجال الذين يقومون بإدارتها ليسوا
سوى من يحافظ على عمران تلك الهيئة وابقاء نضارتها وحسنها
وان من أضر المضرات أن ينال القانون من البعض مالا يناله
من البعض الآخر فان ذلك شين في وجه العدل يؤثر خلا
في العمران فيقوم باطلا ويهضم حقا— ومن أظلم ممن يشارك
في السراء وهو برىء من الضراء ذلك ما تجنيه القوة على
القوانين ومالا يرأب صدعه الارجال الحل والعقد ممن حنكتهم
التجارب ودفعوا الى مضايق الأمور -- أليس امتياز بعض
الأفراد ممن يدرج على بساط الغبراء ممن يشارك في السعى
ويقاسم في المنفعة واختصاصه دونه ملقياً سلطة القوانين الاساسية
والفرعية بحجة نسجتها أيدي الحوادث الفائرة تشويها للعدل
بأباه العقل وتمجه سليقة الانسان

* * *

أيها السادة الانسان مطالب من قبل ذاته أن يعمل ليعيش
عيشة راضية ومطالب من قبل الهيئة الحاضرة بمبادلة المنفعة
والمشاركة في كل عمل يحفظ لهم ناموس حياتهم ووحدتهم

ومطالب من قبل السلف أن ينظر فيما اعترضهم فيه الوقت
فنعمهم من اتمامه ليهيئوه للفائدة التي أرادوها بالشرع فيه
ومطالب من قبل الخلف أن يعدلهم ما يتخذونه أساساً لأعمالهم
ويشيدون عليه بناء هيئتهم فهو واقف بين أربع قوات تتجاذبه
ان أضع طرفة عين من وقته طالبته احدى تلك القوات
وأقامت كلها في وجهه حرب التأنيب وبادرت الى صحيفته
فلوحتها بسواد تقصيره وهو ليس بشيء اذا انطوى وطويت
صحيفته على هذا النمط وخلت ذكره من الأثر الحسن
ولا شيء يدوم فكن حديثاً جميل الذكر فالدنيا حديث
وليس الغرض من عمله أن يتهاقت كالفراسخ على كل ما يبدو
له زاعماً انه بذلك يقضى دينه ويفي بحق ذاته وغيره - كلا
لأن الفرد من الهيئة كالعضو من الانسان لا يخلو من وظيفة
توجهه اليها الطبيعة وهو قادر ان يجعل نفسه باطلا معطلا وهو
أهون عليه وقادر ان يكون عضواً نافعاً منعمة عظمى في جسم
هيئته بل قادر ان تكون وظيفته اسمى واشرف مما كان يؤمل
فيه - ونحن نشاهد في كل هيئة افراداً عظمت اعمالهم وكبرت
الحاجة اليهم فلا غنية لها عنهم الا اذا خلفهم من يقوم مقامهم

والطبيعة قد أودعت في كل انسان أملا وفطرته عليه
وقوته فيه حتى جعلته مشغولاً بحب العلوّ وسمو الجاه وصاحب
هذا الأمل يرى الدهر غادراً له والزمان مذنباً معه والناس
مضيعين حقوقه فلا يغفر تلك الخطايا ولا يغضى عن تلك
الهنوات الا ان رأى نفسه فوق عرش الموجودات والزمان
عبداً له والدهر خادماً له والناس خضعا بين يديه وجميع المطالب
مسخرة له لا يعز منها شيء دون اشارته وهي أمانى باطلة
وآمال زائلة

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك في الدلاء
فالأمل في ذاته ليس بنافع أحداً الا بالعمل وهو لا يعمل
الا اذا كان له من نفسه واعظ تنبث عنه الهمة والاجتهاد وهذه
الهمة لا تفيد الانسان الا اذا ظهرت تأثيراتها على ظواهره
تستخف بعظائم الأمور ومع ذلك فلا تنجح الا اذا قرنت
بالحكمة في التوجه وصادفت استعداد النفس وعدم تعاصي
المطلوب لأسباب لازمة له أو عارضة عليه فيحمد صاحبها عليها
ان تعداها غير مكترث بالآم النفس فان توفرت فيه هذه
الصفات فقل انه قارب أن يكون عضواً نافعا للهيئة وثمره في

غرس الموجودات تهيأت للنضج ونعنى بذلك ان الانسان اذا توفرت فيه الوسائل كلها احتاج الى الوقت الذى يعمل فيه والوقت كثير ان دبره قليل ان أضعه

نخال أن الوقت قصير عن ادراك جميع مطالبنا وهو ليس الا الحياة نظها ممتدة ونعقد بأطرافها أهداب الأمل بالتصورات والتخيلات لكنها قصيرة أو ضائعة ان لم نعتبرها كحقيقتها مؤلفة من دقائق وآفات تمضى بمجرد استحضارها سيالة في الكرم والفر لا يستطيع الانسان أن يستر دماضها وهو يستعجل مستقبلها بل يعجله اللهو والبطالة غير أن الحكيم يدبر وقته كتدبيره غذاءه وشرابه ونومه يجمل كل جزء منه يمر في الملائم له والنافع لحياته ولا بناء جنسه يحرص على الوقت حرصه على روحه فهو لديه مطية يستخدمها في جميع أغراضه وهو عند الجاهل كالحيوان البليد الشره النفس لا ينتفع به صاحبه وهو يأكل من حياته ويشرب من دمه فالوقت نافع للحكيم ضار للجاهل وليته قاصر على الضرر لذاته بل يكون حملا ثقيل على الهيئة بل عضواً فاسداً في جسمها ان لم يقطع أو يعالج سرى ضرره بالعدوى الى الباقي وذلك صاحب الوسائل تضيع وسائله

ان لم يدبر وقته بحكمة ويجعل لأجزائه وظائف كأعضائه
 فيصرف بكرته في كذا وضحوته في كذا وغدوته في كذا وهكذا
 مراعيًا في ذلك حالة معاشه وصحته وحقوق أعماله وفائدته
 ناظرًا في كل عمل لوقته الذي يصح أن يعمل فيه غير مضيع
 فرصة الحاجة ولا مستقدا آتياً كالزارع يحصد عند نضج
 الثمرة غير مغتر بزهوها ولا مبطىء في الجنى فتخطفها أيدي
 الضياع والملاشاة— لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل والغنى
 والفقير والصبي والشبخ والضعيف والقوى فانهم أعضاء الهيئة
 وآحادها منهم تكونت وبهم تقوم وعليهم يعود الربح أو الخسران
 قال بعض الحكماء ان روح الحياة انتهز فرصة الوقت
 في العمل لأن من يؤجل عملا الى المساء يمكنه ادراكه في
 الصباح فقد أدرك الأرب يوم يدركه كل انسان ومن أراد
 تعجيل ما تطلب الحكمة تأجيله فقد حاول أن يغير دورة الفلك
 وضاع عمله سدى ومن لم يأخذ من قوته لضعفه فلا يعيش
 لغد ومن لم يعمل في صحته لمرضه هلك من حيث لا يدري
 ومن ضيع وقته قتل بسيف الزمن فالوقت رأس مال العامل
 ومن أضاع رأس ماله فلا نصيب له غير الفشل والخسران

١٧٢

﴿ رب قول أنفذ من صول ﴾

لما كان اللسان آلة للتفاهم بين الناس كان مصدر كل تأثير سواء كان في الخير أو الشر ولهذا حذر الحكماء من فضول القائل ونددوا بمحصائد الألسنة واستعاذوا من السلاطة والهذر كما استعاذوا من العي والحصر لأن الصمت والسكوت خير من القول بالجهل والتكلم بالشر - والقول مع العلم والتكلم بالخير هو غاية المنافع القصوى ودرجة المآثر العليا وعليه حث العلماء والمحققون - قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا خير في الصمت مع الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل - وقال الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ترك الحركة غفلة وطول الصمت يفسد اللسان - وقيل اذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبذلت نفسه وفسد حسه - وما اخالهم أرادوا بذلك الا أن النطق من لوازم العقل بما جعل اللسان مترجما عن الضمير وضابطا للفكر ومقيدا للخواطر وان شأن المعاني التي نحتلج في النفس وتتصل بالفكر أن يتحيزها النطق فيبرزها الى عالم التفاهم ليؤتي على الغاية

المقصودة من اجتماع بنى الانسان وتحصل الفائدة المودعة في
جوهرة هذا اللسان

كذلك لو قصر الانسان على التكلم في موضوع من
المواضيع دون غيره أو حظر عليه الكلام الا في معنى خاص
بحيث يحال بينه وبين ما حرّم عليه بحجاب كثيف فتوصد في
وجهه أبوابه وتتصرّم معه اسبابه وتقطع عنه مواصل الاطلاع
من جهة ذلك المعنى فخكمه بالعلم به حكم من عاش وحده لا يفقه
ولا يعي الا بقدر ما يتاح له من استطلاع غفلة واستشرافه
خلسة مما يسفل عن رتبة العلم وينحط عن درجة المعرفة بخلاف
ذلك تراه في الموضوع الذي منحت له حرية التكلم فيه قد
اختبر أمره وأكناه سره وقلب بطنه وظهره ووقف على
الدخيلة منه ودري أصوله وفروعه وأحاط بأطرافه بما يتفرغ
له من المفاوضة بشأنه واستعمال أداة التفاهم التي تفقه على رأى
غيره وترى منزلة رأيه عندهم بحيث تكون له مرآة عقلية يرى
فيها ما لنفسه وما لغيره— ولا يخفى ان الانسان اذا أتقن العلم بشيء
من الاشياء فحيت كان لهذا الشيء اتصال بعالم التصرف وكان العلم
هاثما بالعمل رأيت المرء أحذق في شأنه وأعلم باتيانته ولو نظرنا

في حال الرجال المشاهير بحسن سيرتهم وسداد أعمالهم ونبيل
أفعالهم لرأينا في كلامهم انخااص من البلاغة والاحاطة والدليل
على شدة امعانهم في أسرار الأمور وتعمقهم في بواطن الاشياء
ما يقصر عنه وصف الواصفين وتشهد به أذواق العارفين
وبديهي ان اتقان العلم باعث على اتقان العمل ما وجدت
الهمة وتوفرت العزيمة

واذا كان هكذا حكم الفرد من الأشخاص فهو حكم
الأمة التي هي بمجموعها على حدّ الفرد بلا فرق سوى الزيادة
في النتيجة — أنظر الى حال الأمم التي أطلقت فيها حرية
الخطابة واتسع عندها مجال القول كيف عمّ فيها العلم وشاع
الفهم وتنوّرت العقول واستضاءت الأبواب بما اتصل بها من
المعاني الرفيعة والمواضيع العالية والمقاصد السامية وما تيسر بذلك
من وسائل الارشاد وطرق التبليغ وأسباب الدعوة وما انفتح
به من أبواب الاشارة والاستشارة والمشاركة في ثمرات العقول
ونتائج الأفكار ولا سيما في الأمور العامة والخطوب الطامة
حتى شقت الخطبة من الخطب لأنها ما يقال عند الأمور
العظيمة — واذا كانت الأمة على هذه الدرجة من سهولة

الاطلاع والكشف كانت على غاية من الانتباه والحذر والتيقظ
 لمصالحها والتبصر بحوائجها والتحفز على درء مضارها بحيث
 تكون أسبق الأمم قدما الى منازل العز والمجها بصراً الى
 معالي الأمور وأسدّها تدبيراً فيما تبشره من الأعمال ومن
 ثم تحرز الغبطة والبسطة والجاه والثروة وتحوز الغلبة على من سواها
 وحسبنا شاهداً في كل زمان الأمم التي اشتهرت بالرئاسة
 والسيادة والسداد والقوة والجاه والحكمة — منها أمة اليونان
 في الأزمان القديمة بلغت ما بلغت من الشهرة في العلوم والحكم
 وحسن السياسة وتشقف العقول وأدب الطباع بما كان فيها
 من حرية التكلم وتعميم العلم بالخطابة ولقد كان مشاهيرها
 أساطين الحكمة وسلاطين الكلام وملوك المقال والتمكين
 من أزمة البيان — ومنها أمة العرب الى عهد الاسلام وما بعده
 بقليل بلغت حدّ الاعجاز من البلاغة وتجاوزت طور الأمم
 في البيان وفي لسانها من التعابير والنراكيب والأمثال الدالة
 على شدة تسلطها على المعاني وقبضها على المواضع واحرازها
 لظواهر الأشياء ما يقضى بالعجب العجاب
 ومن أنعم النظر في خطب عمر بن الخطاب أو علي بن

أبي طالب مثلاً أو غيرهما من أمراء الجيوش وعمال الأقاليم الذين عاشوا في صدر الإسلام وعلم أن مثل تلك البلاغة الشاهقة والحكمة السامية مما كان . أنوفا عند أفهام العوام في تلك الأيام وهي مما يعجز عنه اليوم مدارك الخواص تمثلت له حالة البيان في ذلك الزمان ولم يعجب لباهر تدير هؤلاء الرجال وشدة نفاذهم على الأمور فإنهم سطوا على الأغراض فأحرزوها وتمكنوا من الحقائق فأبرزوها وذات لأفهامهم المشا كل وخضعت لأفكارهم المقاصد وانقادت لخواطهم الشوارد ومن كان هذا شأنه في الفهم والتفهم بين أحوال العالم وأموره فقد بلغ به العقل السعادة التامة والحكمة العامة والنزلة الخاصة دون البشر

ومن هذا القبيل الشعوب الأوروية لهذا العهد أدركوا الغاية القصوى من النجاح وتسنموا المعرفة العليا من الفلاح وصاروا الأشد طولاً والأوفر حولاً والأغزر مادة والأكثر بضاعة من كل صنف من أصناف المعالي والمراتب والمنافع والمكاسب وذلك بعد أن أطلقت عندهم الحرية وأجيز القول بكل نوع من أنواع النصيحة والتبويه لكل فرد من افراد

الأمة فعمّ عندهم مشرب الحب الوطني وصارت كل أمة منهم بمثابة الشخص الواحد تضطرب بكليتها للمصلحة وتتجه باجمعها الى المقصد -- ولا يتم هذا الاتحاد في الرأي والعمل حتى تكون الأمة كلها على نبا من خطبها فتهيأ لتلقيه بالتي هي أحسن ولا يكون ذلك الا باتخاذ المجالس والنوادي والمحافل السياسية ومنابر الخطابة والجرائد والصحف والاجزاء المنشورة وسائر وسائل اللسان والقلم فترى الأمة اذا أصابها خطب أودهمتها نازلة من النوازل قامت قائمتها من كل جهة لاسترجاع الحق ودفع الأذى فصعدت الخطباء على المنابر وصعدت الكتاب بالجرائد وانبسطت المسألة الواقعة للجميع بما يستعرض الأفكار ويستدرج الآراء ويستورى زناد الروية ويستمطر سحب القريحة للعمل بالأولى واتخاذ الخطة المثلى فتدفع المملكة كلها في مداركة الخطب وملافاة اليأس ولا يزال العويل قائما والنفير متلاحقا وأصدقاء المحافل متجاوبة بالمناقشة والمحادثة وأوراق المطابع متزاحمة بالمجادلة والمباحثة حتى تتمحص جميع الوسائل والأدوية وينتهي الأمر باختيار الانفع وارتضاء الانجع -- وأما الرأي العام المعروف فلا سبيل الى انعقاده

الا هذا الطريق — وهذه الحالة هي الآخذة بطرفي المنفعة
 المادية والادبية الماسكة بناصيتي المصلحة العمومية والخصوصية
 وذلك فضلا عن تحريمى السداد والفوز بالنجاح فى انتهاج هذه
 الطريقة فى أمور المملكة يصبح كل واحد من الامة عالما
 بالشأن الذى ينبغى له ضليعا فى الامر الذى عين عليه — وانه
 ليقوم الخطيب فى القوم مرتجلا ارتجالا فتأتيه المعانى ارسالا
 فيأتى على موضوعه كله لا يدع وجها الا قلبه ولا رأيا الا
 كاشف به ويجىء الكاتب لانشاء فصل من الفصول فلا
 يتناول القلم الا وقد تداعت عليه المعانى من كل جانب وكل
 عندهم يخذ ويضرم وينقض ويبرم اذا اشأبت الى رأيه
 الأغناق وارتاحت الى رشده النفوس ولهذا صاروا أبصر
 الجميع فى لوازمهم وأنجحهم فى مطالبهم وأنشطهم الى مصالحهم
 فشمروا عن ساق الجد وانصلتوا فى السير الى المجد ونالوا
 الحظوظ الوافرة واقتنصوا المآرب النافرة وأوردوا الآمال
 منها وأصبحوا على ما نراهم فى حالة تبهر العيون وتملأ الصدور
 وكثير من الشعوب بفساد أمرائهم واستبداد رؤسائهم
 وتحكم ملوكهم وتخونهم لحقوق عامتهم مما نشأ عنه سوء تربية

الاشخاص وتعطل أخلاقهم وانقلاب فطرهم وانعكاس خلقهم
 قد حرموا منفعة الخطبة والتكلم على الامور العامة مما ينور
 عقولهم من جهة ويسدّد أعمال دولهم من أخرى فهم لا ينشطون
 لمقال ولا ينشطون من عقال وذلك أنه جرت العادة عند الملوك
 القدماء المستبدين أنهم متى فسدت طباعهم وأرخو العنان
 لأهوائهم فجروا في الاغتصاب والانتهاك كل مجرى وذهبوا
 في الحيف والجور كل مذهب لم يطبقوا سماع مندّد باهوائهم
 معدّد لأسوائهم ذاكر لقبح صنيعهم تعجرفا وكبرا منهم عن
 أن ينظروا قبائحهم باعينهم أو ضعفاً عن اصلاح سيرتهم فضربوا
 بين رعيّتهم وبين الحرية ستاراً حتى اذا حولوا الأَبصار عن
 النظر في أعمالهم وصرفوا الخواطر عن التأمل في حركاتهم
 انطلق بهم جراح الشهوة الى حيث شاءوا بلا معارض ولا منازع
 واعتنوا بتضييق الواسع على رعاياهم ليتمادوا في الغباوة
 ويرتكسوا في الضلالة ويسقطوا في الظلمات فيستضيّمون
 حقوقهم ويتحكّمون في أعناقهم وارزاقهم وهم صاغرون ولهذا
 أخلوا دولهم من المجالس الشورية الدستورية وانحصرت
 الأُمور العمومية التي عودتها على ألوف الألوف بل الملايين

من البشر في رأس شخص واحد أو اثنين ليس لغيرهما حق في أن يعلم ما هو مصيره وأمته ولا أن يبحث في شأن من الشؤون العامة أصلاً فترى الأهالي وقد كبحتهم حكمة القهر عن التكلم في مصالح الملكة ونمست عنهم الأخبار السياسية وطويت المسائل المهمة في أدراج السكوت في أسوأ حالة من الجهل بأمورهم والعقلة عن مصالحهم وقلة الاستعداد لدرء الملمات وازاحة الكروب والقصور عن الجِدِّ في منفعة وطنية بما غلَّ أيديهم من سلاسل الاستعباد وارتفع على أعناقهم من نير الاستبداد ولما صار الى هذه الدرجة جهلهم بأنفسهم بما حجب عنهم من العلم وأطيل من ذلك الحجاب سكنت همهم وركنت عزائمهم ورأيت ما رأيت من تجافيتهم لا عن التهلك في طلب العز بل عن التحرك في تحصيل الضرورى الاما جاء على طريق الهون من مصادر الدون فان حرمانهم النظر في شؤونهم العامة والتكلم بما عند سائر الأمم مما يشبه التعريض بحالتهم المتأخرة قد اعترض ما بينهم وبين التأمل والتبصر وحال دون الاعتبار والادِّكار فماتت خواطرهم وسكن تأثرهم وفسد احساسهم وتبدلت نفوسهم فهم شاهدوا الأشباح

غائبوا الأرواح تمرّ بهم الحادثة تتبعها الحادثة وتلقاهم العبرة
تعقبها العبرة كأن لم تمرّ بهم ولم تلقهم

وبالجملة فاذا حتم عليهم اهمال النافع من الحديث والحق
من المقال لمخالفته هوى الملوك تكثروا بما يضرّهم ولا ينفعهم
من سفاسف الأحاديث وما لا فائدة فيه الا من اتفق لهم
من هؤلاء حالة وقفهم على أحوال الدول الأجنبية أو شيء
من أحوال دولتهم—ومثلهم بالنسبة الى السواد الأكبر أقل
من القليل وانما علم هؤلاء في أكنان لا يتجرأون على ابراز
خيفة غائلة الحكام وبطش الأمراء الا اذا صادفوا خلوة
مع بعض الأصدقاء الذين يثقون بهم ويسترسلون اليهم فتراهم
يخفتون من أصواتهم ويتهامسون الكلام وهم متلفتون ذات
اليمين وذات الشمال اتقاء أحد يدهم فيشى بهم الى الحاكم
بأنهم يتشاورون أو يتحدثون في مصلحة عامة وهي عنده المفسدة
الكبرى والمكيدة العظمى

ولو أن أصحاب هذه الممالك اهتموا بنور العقل وأطلقوا
حرية الأمة في الكلام على أمورها الكلية مما يبصرها موقع
خطأها ويسدّها الى الطرق القويمة والوسائل الفواعل ويشغل

كل فرد من الأفراد بمصلحة البلاد وينفخ في الجميع روح الحياة العامة فينهضون يداً واحدة لنصر أمرهم وتعزير شأنهم ويمجتي الملوك من ثمرة تلك الحركة ما يذهلون به عن كل لذة بدنية وشهوة حسية لكانوا عرفوا أن هذا السبيل الذي هو مدعاة لحركة الرعية ومشار لحياتهم انما يزيدهم تبيتاً على عروشهم وتأيداً في ممالكهم ويكسبهم من دعوة النصر والقوة والجاه بهاء وجلالا لا يتصورون منهما شيئاً في حال الاستبداد والظلم ولكانوا علموا أن اطلاق الألسنة من عقالها بالتقريع والتسميع وارضاء العنان للأقلام بالتحريض والتأيب والحث على الاقتداء بالأجانب في حكمتهم وتدييرهم والاهتمام بأموورهم والدعوة الى مباراة الأبعد في قوتهم ومثاقفتهم في صناعتهم ومنافستهم في بضاعتهم ومسابقتهم في تهيئة الأسباب لهذه الأشياء انما عاقبة كله اصلاح أفراد المملكة ومجموعها والتدرج بذلك في معارج الكمال الأدبي والمادى

١٧٣

﴿ عدو عاقل خير من صديق جاهل ﴾

العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع

عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان
أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسيء
سبب اليه أسباب العذراً أو منحه الصفح والعفو—وأما الاحمق
فضال مضل ان أو نس تكبر وان أو حش تكدر مجالسته مهنة
ومعابته محنة

ولأن يعادى عاقلاً خيراً له من أن يكون له صديق أحمق
وورد في أمثال الأوائل عدو عاقل خير من صديق جاهل
لأن همة العاقل لا تتعاق الا بطلب الكمال فهو يتقدّر الأمور
حق قدرها ويوقفها عند حدّها اللائق بها فانه ينظر بقلبه
وخاطره لا بمجرد عينييه وناظره فله من عقله رادع عن التسرع
اذا أثرت عواطفه بما يكدره من عدو تظاهر عليه بالعدوان
معلقاً خاطره باقوال البهلاء والافاضل الاذكاء وغير ذلك
من التأويلات التي يجعلها دائماً نصب عينييه دواء لغضبه . أما
الاحمق فليس عنده من التأويل الاوهام الاضاليل فالاقتراب
منه ندامة والبعد عنه سلامة

يقول لك العقل الذي زين الفتى اذا لم تكن تقدر عدواً فداره
ولاقه بالترحيب والبشر والقري وبارك له مادمت تحت اقتداره

وقبل يد الجاني التي لست قادرا على قطعها وراقب سقوط جداره
وقال الاخر

ذوالعقل في معرك الاقدار مقتدر * لكن ذا الجهل مغلوب ومغلول
وعقل ذى الحزم مرآة الامور بها * يرى الحقائق والمجهول مجبول

١٧٤

﴿ فوائد رجال الشرطة « البوليس » ﴾

لا بد لكل أمة من حكومة ولكل حكومة من نظمات
وقوانين تسير عليها وتعمل بها والا لاختل نظامها وانفردت عقدها
والأمة هي مجموع الأفراد القاطنين في قطعة معلومة
من الأرض والخاضعين لحكومة واحدة

والحكومة هي جسم اجتماعي يعتبر كأنه شخص واحد
له ماله من الارادة والفكر والعمل - وكل جمعية انسانية
خاضعة لقوانين ونظام عام تكون جسما اجتماعيا يسمى بالأمة
وكما أن الجسم الانساني يحتاج لفكر يفكر به ونفس يريد
بها وأعضاء يعمل بها كذلك يجب أن يكون في هذا الجسم
الاجتماعي ارادة وفكر وأعضاء مادية. ويتمين على كل حكومة
النظر في أعضاء الجسم الاجتماعي وهم عبارة عن أفراد تلك

الأمة ولهذا يجب على كل حكومة أن تحافظ على أن تكون
الملائق بين أفرادها مؤسسه على العدل الذي يجده كل انسان في
نفسه ولا يجوز لها أن تترك القوى يظلم الضعيف وغير ذلك
وكل فرد في المجتمع الانساني لا بد وأن يشتغل بعمل ما
ولهذا احتاج الى القوة والمهارة والعلم - وعليه واجبات يؤديها
لنفسه وللمولى سبحانه وتعالى ولعائلته ولوطنه ولا يتسنى له
القيام بذلك الا بقوتين قوّة قضائية وقوّة تنفيذية فالأولى
ما تقوم بها القضاة والثانية ما تقوم به ارجال الشرطة والبوليس
والقصد من ايجاد الثانية توطيد الأمن والنظام والحرية العمومية
ويدخل في اختصاص الشرطة أمور كثيرة

منها مراقبة مجارى المياه التي ليست من الأملاك الخصوصية
فلكل انسان الحق فيها على حدّ سواء وليس لأحد أن يستعملها
استعمالاً مضرّاً بالصالح العام

ومنها مراقبة القنص بحيث تكون تحت قواعد مخصوصة
حتى لا ينشأ عنه ما يكدر راحة سكان الأرياف أو يكون سبباً
في اتلاف الزرع والفيضان - وكذا صيد البحر يجب أن يكون
على نظام واحد حتى لا يتأتى منه اهلاك الحيوانات المائية

ومنها مراقبة الصناع في المعامل والمناجم والفابريقات
فلا يجوز أصلاً أن تنهك قوى الشغالة خصوصاً النساء والأطفال
ولذلك وجب أن تكون مدة الشغل فيها محدودة

ومنها مراقبة المكاييل والموازين والمقاييس حتى لا يتأتى

للبيع غبن المشتري

ومنها مراقبة الأشياء الذهبية والفضية لأن المشتري
لا يكون معه في العادة ما يتمكن به من تحقيق ما إذا كانت
الأشياء التي تباع إليه نقية أو خلطاً من معادن حقيرة تقلل قيمتها
ومنها مراقبة المواد الغذائية التي تباع في الأسواق بحيث

تكون من نوع جيد خالية من العش حفظاً لكل إنسان
ومنها مراقبة منع انتشار الأمراض المعدية بالتقويمات الصحية

ومنها مراقبة بيع الحيوانات وصحتها ودواب النقل
وبالجملة يجب علي البوليس أن يبذل النفس والنفيس في جلب
الراحة والأمان والأطمئنان والسعادة في ربوع عموم القرى
والبلدان فيهم يبلغ الوطن من حسن نظام المعيشة الغاية ومن
الحضارة والمدنية النهاية

١٧٥

﴿ فوائد الشجاعة ومضار الجبن ﴾

الشجاعة من الفضائل الأصلية لأنها من الوسائط العظيمة
الضرورية لحفظ الذات ونوال النبطة والسعادة - فالرجل
القوى النفس الشجاع الباسل يأبى الضيم ويذب عن حياته
وشرفه وماله بكل قواه ويأنف أن يأتي الظلم
ليس المرورة أن تبيت منعا وتظل معتكفا على الأقداح
ما للرجال وللتنم انما خلقوا ليوم كريمة وكفاح
وان بشهامته وعلو نفسه في عمله يحصل على رزقه من وجوهه
المشروعة ويعيش بسلام مطمئن الخاطر قرير العين غير هيباب
ولا وجل وانه لقوة نفسه اذا نابته النوائب التي لا يقدر على
دفعها قابلها بالصبر الجميل واحتمل لكشفها بالتي هي أحسن
فالشجاعة من هذا القبيل من أعظم الفضائل ولهذا جعلها
القدماء من أمهاتها قال الرسول عليه الصلاة والسلام
(الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده ان الله يحب
الشجاعة ولو على قتل حية) وقال بعض الحكماء الرجال ثلاثة فارس
وشجاع وبطل - فالفارس الذي يشد اذا شدوا - والشجاع

الداعي الى البراز والمجيب داعيه - والبطل المحامى لظهور
القوم اذا ولوا

ولو أن الحياة تبقى لحي لوددنا ضلالنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً
أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل لأنهما
قد تصاحبهما في نفس صاحبهما آلاف الأوهام والخزعات
يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم
فالجبن الضن بالحياة والحرص على النجاة

يفرّ الجبان من أيه وأمه ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه
فالرجل الضعيف الجبان يعيش في الأوهام والخاوف الدائمة
فيضني صحته بالفرع والوجل من لا شيء وهذا الخوف أو
الوهم والوسواس إنما هو آفة له قد يكون بها أسير أو هامه
ورفيق كل من يريد هضم أشياءه وهو استعباد قواه واذلالها
ينتقص شأنه ويفسد عليه عيشه حتى أنه يجعل حياته طوع
ارادة وهوى من يخافه ويتملقه

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزاع

وقال آخر

يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
على أن أكثر هذه الصفات قد تكون وراثية أي أنتجتها
أحوال سابقة للأمم والافراد — غير أن التربية قد تصلح
من تلك الصفات على تهادى الاجيال متى ما قصدت الامم
اليها وعرفت ما ينقصها منها لان كثيراً ما يتعلق بارادة البشر
اصلاح أحوالهم وانما تعوزهم العزيمة والنبات لاننا بمعرفتنا
ما ينقصنا من الاخلاق وشعورنا بالنقص فيها يمكننا أن نسمى
الى أحيائها في نفوسنا — بحيث نهي ذرارينا لها باصلاح أحوالنا
على قدر الطاقة

والجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم منارها وقطع
روابط الامم فحل نظامها وأوهن عزائم الملوك فانقلبت
عروشهم وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم هو الذى
يفلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية على
أنظار السائرين يسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها
مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ويوطن
النفس على تلقى الاهانة بالصبر والاحتمال والتجلد -- الجبن
يلبس النفس عاراً دون احتمال موات أحر عند كل ذى روح

ذكية وهمة عليّة — يرى الجبان وعر المذلات سهلاً وشظف العيش في المسكنات رفهاً ونعياً لا بل يتجرع مرارة الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الا عين تبصر الاعداء ولا ترى الاحياء ونفس لا يصعد الا بالصعداء واحساس لا يلم به الا ألم الأواء هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل على المنية — كيف وهو انخدال في النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حاله وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوّة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية

١٧٦

ان الشباب والفراغ والجدّه مفسدة للمرء أيّ مفسده الشباب مطية الجهل ومظنة الذنوب وشعبة من الجنون ولذا قيل سكر الشباب أشد من سكر الشراب — قال النابغة وان يك عامر قد قال جهلاً فان مطية الجهل الشباب والمال فتنة قال تعالى (انما أموالكم وأولادكم فتنة) فالمال ميسال للهوى بل سبب حتف الانسان كما أن الطاوس قد

يذبح لحسن ريشه

ألم تر أن المال يهلك ربه إذا جم آتية وسد طريقه
فمتى وجد الشاب مالا كثيراً وثروة عظيمة بلا تعب ولا
كدرك وكان وقته خلواً من الأعمال لم يلبث أن يتطرق إليه
الفساد من حيث لا يدري ولا يشعر ويلحقه الدمار والوبال
من حيث لا يفهم ولا يعقل تأمره نفسه الدنيئة بالسوء والرزائل
فيخضع للشهوات واللذات ويسبح في بحار الضلال ويتيه في
وديان الغواية والظلام ويصرف نفيس وقته في التفتن بضروب
المفاسد طوعاً ولأوامر الشباب وخضوعاً لسلطان الغرام ويضيع
تلك الأموال الطائلة ويبدد تلك الثروة الهائلة في غير مصارفها
المباحة فتفسد أخلاقه ويرتكب أخس الدنايا ويحمل ذميمة
السجايا ويتجاهر بالفسق والفجور ويتباهى بالزنا وشرب الخمر
ويجتمع حوله كثير من اخوان السوء وأعدوان الشيطان الذين
لا حظ لهم في مجالسته ومصاحبته سوى اختلاس أمواله
واضاعة ثروته فلا يلبث أن تنفذ تلك الثروة وتذهب أدراج
الرياح ثم يلتفت يميناً وشمالاً لينظر أصحابه فلا يبصر أيساً ولا
جليساً ويصبح خالي الوفاض الحزن حليفه والكدر أليفه

والفقر قرينه والذل دناره والهوان شعاره
 هذا الذى ان عاش لا يعتنى به وان مات لم تندب عليه أقاربه
 ويصبح من أموات الاحياء عالة على المجتمع الانسانى كئيب
 الحال كاسف البال

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الأحياء
 انما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء
 فالشخص الذى لا يعمل عملاً ينفع به نفسه ووطنه ما هو
 الا عضو فاسد فى المجتمع الانسانى فيجب بتره قبل تفاقم الداء
 فيعسر الدواء ويتسع الخرق على الراقع
 عدوى البليد الى الجليد سريعة والنار توضع فى الرماد فتخمد
 كيف لا وأن الانسان لم يخلق ليلعب ويمرح ويلهو —
 ويترك ما خلق لأجله وهو العمل « فان يكن الشغل مجهداً
 فالشباب والمال والفراغ مفسدة »

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عدّ من سقط المتاع
 وبالجملة فالشباب والمال والفراغ دعائم الفساد ورأس الضياع
 وطرق الوقوع فى الحفر البعيدة الغور — فان الشاب الغنى
 الذى كثر ماله وعظمت ثروته ولم يتقيد بعمل من الأعمال

لا يتطلع الى شيء من معالي الأمور فان الفراغ منشأه عدم
تقويم نفسه في صغره وعدم تعليمه وبث روح العمل فيه فينشأ
كارها له غير مدرك قيمته ومن نشأ على شيء صار عادة له
والعادة طبع ثان والطبيعة تصعب محاربتها
وقائد الانحطاط لذلك الشاب الذي لا عمل له وجود
المال عنده فلا يحجم عن أي عمل تسوّله له نفسه الأمانة بالسوء
ولا يزال يتحرك طوع شياطينه حتى تلتجى نفسه الى ما لم
تكن تعهده من الذل والهوان

١٧٧

﴿ وصف الدهر وعجائبه ﴾

أف للدهر ما أكر صافيه وأخيب راجيه وأعدى
أيامه ولياليه
أنا بالدهر خبير أمة من بعد أمه
ما صفا الدهر لشخص نصف يوم وأتمه
يسار الدهر في الأخذ أسرع من يمينه في البذل لا يعطي
بهذه الا ارتجع بتلك
ألم تر أن الدهر يوم وليلة يكران من سبت عليك الى سبت

فقل لجديد الدهر لا بدم من يلي وقل لاجتماع الشمل لا بدم من شت
الدهر لا يؤمن يومه ويخاف غده يفر ويمر ويسوء من
حيث يسر فلا تنهى فيه المواهب حتى تتخللها المصائب ولا
تصفو فيه المشارب حتى تكدرها الشوائب كله شر ان
أضحك ساعة أبكى سنة وان أتى بسنة جعلها سنة ومن أراد
منه غير هذا سيره أراد من الأعمى عيناً بصيره ومن ابتغى
منه الرعاية ابتغى من الغول الهداية

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى
فمن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا
وقال آخر

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يرسب فيه در ولا ينفك تطفو فيه جيفه
الدهر كما عرفت وعلى ما خبرت يكر اذا جمع بالذخائر ولا
غرو اذا استأثر بالاخيار

يادهر ويحك قد أكثرت في جماتي شغلت أيام دهرى بالمصيبات
ملاأت الحماظ عيني كلها حزنا فأين لهوى وأحبابي ولذاتي
حمداً لربي وذما للزمان فما أقل في هذه الدنيا مسراتي

من عرف الزمان لم يستشعر منه الأمان
يا صاحبي ان الزمان كما علمت وما علمته
يفنى الذى جمعته يدي ويحصد ما زرعته
ويخون من صافيته عمداً ويمشق من مقتته
الدهر مشحون بطوارق الغير مشوب صفوايامه بالكدر
ممزوج صابه بالعسل موصول حبال الأمل فيه بأسباب الأجل
يا محنة الدهر كفى ان لم تكفى فخفى
ما ان يكن ترجمينا من طول هذا التشفى
فالدهر أبو العجائب ومظهر الغرائب — ولقد
عجبت للدهر فى تصرفه وكل أفعال دهرنا عجب
وهو مطبوع على القلب لا يبقى لأحد حزناً ولا ضجراً
ولا يترك له سروراً ولا فرحاً
رأيت الدهر مختلفاً يدور فلا حزن يدوم ولا سرور

١٧٨

﴿ وصف الحياة الدنيا ﴾

الدنيا غدارة مناعة غرارة ماهى الا دار النقلة وما
المقام فيها الا للرحلة مصحوبة على شيمة معروفة وشريطة مألوفة

أف للدنيا وأيامها فانها للحزن مخلوقة
غمومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقة
يا عجباً منها ومن شأنها عدوة للناس معشوقة
موهوبها مسلوب وان أرخت الى مهل وممنوحها محروم
وان أخر الى أجل

أف لدنيانا الدنيه خبت فعلا ونيه
عيشها بدؤه هم وعقباه المنيه
أف من أشغال الدنيا اذا أقبلت ومن حسراتها اذا أدبرت
واجدها سكران وفاقدها حيران فهي أشبه شيء بظل
الغمام وحلم النيام
هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكى
فلا يغركم طول ابتسامي فقولي مضحك والفعل مبكى
الدنيا كالعروس المجلوة تسرّ لخطاياها وتفتن بفرورها
فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والأبدان لها عاشقة
وهي لأربابها قاتلة ومصائبها أكثر من نبات الأرض لا يسلم
أحد منها فأف لها من دار ليس لها قرار تتقلب تقلب الثعبان
وتغدر غدر الأفعوان

ألا انما الدنيا كمنزل راحل أناخ عشياً وهو في الصبح راحل
فما هي الا أضغاث أحلام ودار رحلة لا دار مقام فلا
يزال صفوها مشوباً بقذاها وكلنا ينافس فيها وما منا الا
شاك من أذاها

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردا وقرارة الاقدار
دارمتي ما أضحكت في يومها أبكت غداً تبا لها من دار
حقيقة أن الدنيا مشتقة من الدناءة ولكل اسم من مسماه
نصيب يوم لك ويوم عليك فهي خسيصة ترفع الوضيع وتضع الرفيع
ومن يحمد الدنيا لشيء يناله فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على الناس حسرة وان أقبلت كانت كثير أهومها
وقال آخر

تبا لطالب دنيا لا بقاء لها كأنما هي في تصریفها حلم
صفاؤها كدرسراًؤها ضرر أمانها غدر أنوارها ظلم
شبابها هرم راحاتها سقم لذاتها ندم وجدانها عدم
فخل عنها ولا تركن لزهرتها فانها نعم في طيها تقم
واعمل لدار نعيم لا نفاذ له ولا يخاف به موت ولا هرم

١٧٩

قوم اذا خافوا عداوة حاسد سفكوا الدما بأسنة الأ قلام
ولضربة من كاتب ببنائه أمضى وأنفذ من رقيق حسام
معادات الكتاب ليست من أفعال ذوى الألباب وان
مماراتهم ندامة ومسالمتهم سلامة ومصادقتهم فائدة وغنيمة
باردة وما ظنك بقوم يملكون أزمة المنى والمنيا بحسن كلامهم
ويخطبون على منابر الفضل بألسنة أقلامهم ويريقون دماء
الأعداء بأسنة أقلامهم ولقد أغنت كتبهم عن الكتائب
ونابت آثار أيديهم عن القواضب وأجرى على أناملهم حسام
المناخ والمواهب فى سواد مدادهم بياض النعم وجمرة الدم
وفيه مرة روح الحياة وأخرى سم الحياة وطورا حلاوة
الأرى وتارة مرارة الشرى ويوما ثواب النعيم ويوما
عقاب الجحيم

قوم اذا أخذوا الأ قلام عن غرض ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وان كثروا ما لا ينال بحمد المشرفيات
وبالجملة ان الانسان قد امتاز عن غيره من المخلوقات
بواسطة عقله وتدييره ولكن لم يظهر كمال عقله وتمام معرفته

الا بالقلم فانه بواسطته دون عمله وضبط أحواله وساس أموره
ولولاه لم ينتقل الانسان من حضيض الهمجية الى أوج المدنية
اذ لا ينكر أحد أن جميع المعارف لم يصل اليها الانسان الا
بواسطته فان كل جيل يحفظ خلفه بسببه ما وصلت اليه قدرته
وأظهرته فكرته وبذلك تيسر لللاحق أن يهذب أعمال السابق
ويتممها وهكذا حتى وصلت الأمم الى ما نراه الآن من
الحضارة والعمران

أنظر بيم تعلم الانسان وبيم كتبت جميع الكتب وبيم
تضبط الحكومات أعمالها وأموالها وسائر أحكامها وقوانينها
أبغير القلم الذي علم الله به أولا وحلف به آخرأ وجعله كاتب
وحيه ولسان أمره ونهيه فالعلوم من آثاره والآداب من
ثماره والسيوف والرماح من خدمه والله درّه أخاسما الى سماء
الفضل وفلك المجد وينبوع الجود

فأرباب الأقلام هم سادة الناس ويدهم تدير شؤونهم
وترتيب أحوالهم وكل طائفة من الخلق تحت أحكامهم وطوع
أقلامهم — وان الأمم مرتبطة بكتابتها في الرفة والضعفة
فكل أمة كثرت فيها الأقلام ارتفعت درجتها وعظمت

شوكتها وازدادت حضارتها

١٨٠

لا تصلح الناس فوضى لا سراحة لهم ولا صلاح اذا جهالهم سادوا
تهدى الامور بأهل الرأي ما صلحت فان تولت فبالا شرار تنقاد
ولاة الأمور من أعظم واجبات الحياة فهم قوام الدين
والدنيا وعليهم في حركة الأعمال مدار البركة العلياء وبدونهم
يختل نظام العالم فلولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه
ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع
على صناعته ولا التاجر على تجارته ولولا هم لانقطعت السبل
وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ولولا ردع الملوك
لتغالبت الناس وطمع بعضهم في بعض واستولى الأقوياء على
الضعفاء وتمكن الأشرار من الأخيار فيضطرون الى التشرذم
والتفرد وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح
والرعية كالجسد ولا قوام للجسد الا بروحه

ونظام العمران محتاج الى قوتين احدهما القوة الحاكمة
الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهو
القوة الأهلية التي لا تسود ولا تنمو الا بالقوة الحاكمة التي

تكون من العلماء العاملين الذين تدرّبوا وتمرّنوا وتعوّدوا
 الاصابة في الرأى والاجادة في الحكم والنظر في العواقب
 والرفق بمخلوقات الله تعالى — وحينئذ فلا ينبغي أن يكونوا
 جهلاء فان الجهل هو العقبة الكؤود في تقدم الأفراد بل
 في تقدم الأمم ولم يوقع الناس في الأزمان الغابرة في العدا
 والشقاق والتفرق والظلم والاستبداد الا هو ولم يلهمهم عن
 البحث فيما يقدمهم وعن الخيرات التي لم تخلق الا ليعتمروا بها
 سواء — وقد قيل « الناس على دين ملوكهم » فاذا كان الملك
 جاهلا خائر العزيمة كانت أمته كذلك وان لم يكن الملك عارفا
 واجباته دارسا سياسة مله فلا يلبث أن يضيع من يده فيقع
 ملوما محسورا — وقد قيل « جهل الرئيس يضل المرءوس »
 واحتياج الملك للعلم ليس بأقل من احتياجه للعدل فانه
 أساس الملك وان لم يكن متوجا به تألبت عليه الرعية وأسقطته
 فوق عرشه — وكذا التدبير والحزم والا تداخل أعداؤه في
 شؤونه وأفسدوا عليه أموره

فالوالى يجب أن يكون نموذجا للرعية ومثالا للكمال
 والاستقامة من كل وجه حتى ترغب فيه أمته وترجوله عمرا

طويلاً وملكاً كبيراً وتحرسه وتفديه بأرواحها وأموالها
وبالجملة فقد قال الله تبارك وتعالى (ان الله يأمر بالعدل
والاحسان وابتغاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وقال تعالى (ان الله يأمركم
أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا
بالعدل ان الله نعماً يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً) وقال
في آية أخرى (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى العدل وهذه
آيات محكمات ليست بمتشابهات علينا - وفي قدرة عقولنا أن
نتناول من لآلى معانيها ودر أساليبها ما يكتفى أن نتحلى به
وننظر في أجمل شكل وأبهج منظر فان حكم المشروعات انما
هى متناسبة مع درجات الالزام بها - وأرقاها ما كان مفترضاً
فاذا حتم الله على العبد أمراً كان له في اتيانه أتم سعادة كما أنه
ان حتم عليه ترك شئ جنى من تركه أطيب ثمرة
ولعلم الله تعالى أن العدل عماد يقوم عليه نظام العيش
وبعبارة أخرى محور تدور عليه دوائر العمارية أمر به في عدة
مواضع وقدمه على غيره مما ألزم الناس به - وقال صلى الله
عليه وسلم (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته) ولا

يحسن جواب السؤال الا من عدل فيها واتقى — وقد قيل
العدل أساس الملك — وذلك صحيح فان الملك ان عدل وجد
قلوبا تميل اليه وبطانة صادقة ورجالا أمناء يتقون الله في مشورتهم
وأجمعت أمته على صلاحيته لقيادتها فكلّ يعمل ما يرضيه
ويرضى الهيئة الاجتماعية لأن «الناس على دين ملوكهم» والغشوم
الظلوم ان وجد من يأخذ حقوق الضعفاء منه ولى وجهه عن
الاغتيال فيرتاح الضعيف بجانبه ويهنأ كلاهما — وقد قيل
«بالراعى تصلح الرعية وبالعدل تملك البرية» كما قيل «كفى بالعدل
حارساً» — وقيل أيضاً «من سعادة الملك محبته للعدل ومن علامة
محبته للعدل مخالطته لأهل العلم ذوى الدين ورغبته في محادثتهم
ليذكروه بما يجب عليه من العدل الذى هو سعادته فى الآخرة
ودوام ملكه فى الدنيا وميل القلوب اليه وجريان الألسن
بالدعاء له» فالعادل فى ملكه والعادل فى اخوانه وعشيرته والعادلة
فى بيت زوجها لا يجد كل من يحقد عليه ويحسده فلا يتوقع
أن يؤذى ولا يحتاج الى حرس ولا حجاب
وحسبك الخلفاء الراشدون وعمر بن عبدالعزيز وهرون
الرشيد وابنه المأمون فقد روى التاريخ عن هؤلاء وأمثالهم

ما يضحك السن ويريح الأفتدة ويشرح الصدور—وقد قيل
 يراعى الشاء لا تغفل رعايتها فأنت عن كل ما استرعت مسئول
 وقال أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه انى لأستحي أن
 أظلم من لا يجد عليّ ناصراً الا الله تعالى — وكتب الى عمر
 ابن عبد العزيز بعض عماله يستأذنه فى تحصين مدينته فكتب
 اليه « حصنها بالعدل ونق طريقها من الظلم » وقال المهدي لبعض
 عماله « آثر الحق والزم القصد وابسط العدل وارفق بالرعية
 واعلم أن أعدل الناس من أنصفهم من نفسه وأجورهم من
 ظلم الناس لغيره » — هذا

وقد علم مما ذكر أن مدار انتشار العدل فى الرعية على
 انصاف الراعى بهم فان الناس بفطرتهم مقلدون لرؤسائهم كما
 قيل « الناس تبع لآمامهم فى الخير والشر »

ولما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى
 وسواريه قال ان الذى أدى هذا لأمين فقال له رجل يا أمير
 المؤمنين أنت أمين الله يؤدون اليك ما أدت الى الله تعالى
 فان رتعت رتعوا ومن أمثالهم اذا صلحت العين صلحت سواقيها
 ومما يحكى أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك بنى غسان الذى

أسلم أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين افتتح الشام خرج الى مكة حاجا في مائتين وخمسين رجلا فلما قرب منها قلد أعناق خيله قلائد الذهب والفضة ولبس التاج ولما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب قدومه تلقاه ورحب به ورفع مقامه حتى اذا كان يوم الطواف والناس يطوفون وهو من جملتهم اذ داس أعرابي طرف ازاره فأحلت عنه فغضب واطم الاعرابي لطمه هدم بها أنفه فتعلق به الرجل حتى قدما الى عمر بن الخطاب وشكى الأعرابي حاله اليه فقال عمر لجبله دعه يلطمك كما فعلت به فقال جبله ألا يفضل ملك عن سوقه فقال عمر كلا فان الاسلام سوى بينكما فغضب جبله وقال لأمير المؤمنين أمهلى فأمهله فلما جاء الليل فر بغلمانه راجعا الى الشام ومنها سار الى ملك الروم وبقي عنده حتى هلك وبه انقضى ملوك غسان وصارت بلادهم عمالة اسلامية

١٨١

وما المرء الا حيث يجعل نفسه فكن طالباً في الناس أعلام المراتب
لقد صدق الشاعر وأجاد وأفاد أن الانسان حيث يجعل
نفسه فان وضعها في موضع شريف شرفت وان أحلها في محل

خسيس خبيث وسقطت فينبغي للانسان أن يشيد لنفسه محلاً
رفيعاً ومقاماً عظيماً تليق به ويكرمها بتغذيتها بالعلوم والمعارف
والآداب والعفة والقناعة والفضيلة ومن لم يكرم نفسه لا يكرم
إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هو أتابها كانت على الناس أهونا
كيف لا وأن الانسان العاقل اذا اجتاز فضيلة عليه أن يمد
بصره الى غيرها أعلى منها مرتبة وأعز درجة - وتقول هذه
النفس الطامحة الى المعالي هل من مزيد ولا تقف تلك النفس
الشريفة الأبية عن الخسائس الى أجل محدود من النقائص
فالمرء بهمة لا بأسرته وبعقله لا بعقليته وبعمله لا بماله
وبأدبه لا بحسبه فاذا نهض بنفسه الى ذرا المعالي فقد رفع
قدره وأصلح أمره

بخلاف من قصرت همته عن ادراك المراتب العالية
والدرجات السامية حيث وضع نفسه في درجة سافلة ولم يعودها
حب العمل والاجتهاد والمثابرة والثبات ومكارم الأخلاق
بل وقف بنفسه الى حد لا تتعداه واستبعد العلا عليها ولم
ينهض بها الى أعلا المراتب وبذلك أنزلها الى هوة الحضيض
فها أنت عليه نفسه فتبون علي غيرها وتصير نفساً سيئة منحطة

جرتومة للفساد والعبث بين العباد أمارة بالسوء قائدة للشهوات
واللذات خبيثة شريرة ضالة مضلة معتدية أثيمة همزة لمزة
نمامة كذابة منافقة خائنة تقود صاحبها الى الردى وتصده عن
الهدى وتوقعه في شرك الهوى

١٨٢

﴿ سفن الهواء ﴾

سفن الهواء تلك « المناطيد » التي تسير في الفضاء كما تسير
البواخر على الماء أو كما تسير السيارات والدراجات على الغبراء
وقد ائتمنى بها أهل الغرب واهتموا بصناعتها أعظم اهتمام حتى
صارت اليوم وهي على ما يرام يطيرون بها فوق السهول
والجبال ويطوفون ساعة أو ساعات بين الأرض والسماء
وليست هذه الصناعة قديمة العهد كسفن الماء فهي بنت
عشرين عاما وقد خطرت ببال الغربيين كما خطرت ببقية
الاختراعات وعدّها كثيرون في أول أمرها حلما لا يمكن
تحقيقه ولكن أصحابها ما زالوا يهثونها ويحسنونها حتى نجحوا
فيها نجاحا عظيما وصارت الآن من الاختراعات الثابتة وبعد
ما كان الكثيرون يعدونها حلما كاذبا أصبحوا اليوم وهم

يرجون أن يسافروا فيها يوماً بين الأقطار والأمصار كما
يسافرون على البحار

والغريب أن الذين اهتموا بتلك الصناعة قد جعلوها
شغلهم الشاغل ولم يبخلوا عليها بالنفس والنفيس حتى ساء لهم
الناس «عشاق الهواء وقتلي المناطيد» - وأكثر الذين نجحوا
فيها لم يتيسر لهم النجاح إلا بعد ما خاطرُوا بنفوسهم مراراً
وأنفقوا أموالهم الطائلة مثل الكونت «زبلين» الألماني فقد
عشق صناعة المناطيد وهو من كبار الأغنياء فأنفق مالا كثيراً
حتى نجح في صنع منطاد سماه باسمه ثم أراد تجربته فركبه وصار
في الفضاء فهوى المنطاد به من علوة شاهق وكاد يموت ضحية
هيامه بتلك الصناعة

وما كان الكونت زبلين يعدل عن تلك الصناعة بعد
تلك الحادثة فعاد إلى أنفاق المال حتى نجح في صنع منطاد جديد
ثم جرّبه فظهر له أنه واف بالمرام وما زال يغير ويبدّل وينشئ
المنطاد أثر المنطاد حتى أنفق ثروته كلها وصار من فقراء الناس
ولكنه نجح في صنع منطاد كبير جرّبه فوق جبال «الألب»
المشهوره وتمكن من أن يبقى في الفضاء اثنتي عشرة ساعة

متواليه فكان هذا النجاح أعظم عزاء له بعدما فقد ثروته الطائلة
وهكذا جرى لأكثر الذين اشتغلوا بصناعة المناطيد
فأنفقوا الأموال الكثيرة وتعرضوا للموت مراراً اذ كثيراً
ما هوت بهم المناطيد من أوج الفضاء، وقد مات بعضهم وأصيب
البعض بعطب، ونذر من سلم من الضرر — ومن ذلك يظهر
بالضرورة وسنة الترقى أن تلك الصناعة لم تنجح بسهولة وهو
ما يصدق فيه قول أبي الطيب

تريدن ادراك المعالى رخيصة ولا بددون الشهد من ابر النحل
أما اليوم فقد أصبحت تلك الصناعة على ما يشتهي أهلها
بعد طول التجربة وكثرة التحسين وقد اشتغل بها كثيرون
من الغربيين وجروا فيها على مبدأ المسابقة والمزاومة — وأهم
المناطيد التي اشتهرت هي المنطاد (لاباترى) الفرنساوى
ومنطاد (زبلين) الألمانى ومنطاد (فرمان) الاميركانى ومنطاد
(وريط) الانكليزى — أما الأول فقد قيل انه أكبر منطاد
صنع حتى الآن وقد كان ملكاً للحكومة الفرنساوية وكانت
عازمة على استخدامه فى وقت الحروب ولكن جرى منذ
مدة أن الرياح الهوج عصفت به وملأت جوفه فتقطعت جباله

وطارت به الى حيث لا يعلمون وما زال مفقوداً حتى الآن
ولكن الذين صنعوه يصنعون الآن غيره من طرازه
وأما منطاد زبلين فقد تقدم الكلام عنه — ومما يزيد
على ذلك من البيان أن برلمان الألمان قد وعد صاحبه بأن تعطيه
الحكومة جائزة مائة ألف فرنك ان تمكن من أن يجعل منطاده
يطوف في الفضاء أربعاً وعشرين ساعة متوالية فالكونت زبلين
يهم الآن بتحسين منطاده رجاء أن يطير به ٢٤ ساعة فينال
تلك المكافأة التي تعوضه قسماً من ثروته

وأما فرمان الأمير كاني فهو موجود الآن في باريس
ومنطاده من أكبر المناطيد الحاضرة وهو ما زال يزيد
تحسيناً ويقال أنه مصمم على أن يسافر به الى القطب الشمالي
في مستقبل الأيام

وأما منطاد وريط الانكليزي، فهو اليوم حديث الناس
في كل مكان لأن الحكومة الانكليزية قررت أن تجعله سفينة
حرية هوائية وطول هذا المنطاد ١٧ متراً وعرضه ١٣ متراً
وقد جربه صاحبه مراراً في سماء لندن وغيرها فكان يعلو به
ويهبط ويطوف في الهواء بسهولة تامة فلما تأكدت الحكومة

الانكليزية نجاحه رأّت أن يكون لها منه أسطول في الفضاء يحمل القنابل والديناميت وأدوات الخراب والدمار كما تحملها المدرعات والطرّادات الماخزة في البحار — وليست انكلترا مبتكرة لهذه الفكرة فقد سبقها فرنسا وأعدّت المنطاد (لاباترى) ليكون سفينة حرية هوائية وحكومات ألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا وأميركا كلها تفكر بأن يكون لها أساطيل في الهواء وربما غدت تتسابق في انشاءها كما تتسابق في انشاء المدرعات وسائر السفن الحربية البحرية فاذا نشبت حرب بينها في المستقبل تقابل بعضها في البر والبحر والفضاء والعياذ بالله وربما أصبحت المناطيد بعد زمن قليل وهي تنقل الناس من مكان الى مكان بين الأقطار البعيدة كما تنقلهم سفن البحار والقطارات الحديدية فما أعجب اختراعات الانسان في هذا الزمان

١٨٣

﴿ المرء بأصغريه قلبه ولسانه ﴾

ان قوة النفس الناطقة التي بها نفتكر ونميز الأشياء تسمى نطقا وكلاما مستقيما وهذه القوة الانسان وحده قد استحقتها من الله وبها يفوق كل خليفة منظورة — لأنه بها يتعلم الصناعات

والعلوم ويستنبط حقائق جديدة ويعمر المدن ويسوس سكان
البلدان ويتم كل الأعمال العجيبة التي لا يقدر مخلوق من
المخلوقات أن يعملها ويتقنها علي الأرض

وبهذه القوة يتصور الانسان في عقله مقاصد مختلفة
ويستحصل الوسائط التي بها يمكنه أن يفوز فيها فمن ثم يتضح
أن الانسان هو مطلق الارادة في أن يفعل كل ما يفكر فيه
أنه نافع ومفيد الا اننا نشاهده لا يفعل دائما كل ما يلذ حواسه
لكنه يرضى بأشياء مضادة ولا سيما اذا كانت نافعة -- مثلا
يشرب دواء مرّا في حال مرضه ليشفي . ويتعب ليتعلم وينجح
ويشقى بحريته واختياره ليسعد فهذه القوة التي بها يحتقر الملذات
ويختار المحزنات تسمى ارادة

النطق القويم يجد الانسان ما هو واجب أن يعمله والارادة
تمه بالعمل -- فالأمور التي يحكم فيها النطق القويم لأجل
الانسان تسمى أموراً صالحة أو خيرات فالانسان اذا هو قاضى
الخير الذي أفعاله تسمى فضيلة فالنطق القويم يميز الخير بواسطة
بعض شرائع وقوانين يعلمنا اياها العلم الذي يسمى علم الأدب
أو تهذيب الأخلاق

فإذاً من الواجب علينا أن نحب الفضيلة لأن النطق القويم يعلمنا اياها أعنى أن نعلم بها أنفسنا نحن الذين قد خلقنا ناطقين وأن نجتهد بكل قوانا لنصير فضلاء فالفضيلة تعلمنا ما الذى يجب علينا أن نعمله لأنفسنا وما الذى يجب علينا أن نعمله لسوانا من الناس وكيف نسلك ونسير لدى خالقنا المتعالى

١٨٤

ما يجب على الانسان أن يعمله لذاته

أن شرف الانسان العظيم هو النطق وبه يُسمى الانسان شخصاً وما سواه من المخلوقات تسمى أشياء — هذا ونحن نلاحظ متأملين النطق على أمرين وهما ميل عجيب لتعلم معارف مختلفة وميل آخر لنعيش عيشاً سعيداً إلا ان الانسان لا يمكنه أن يكون سعيداً باللذات لأنها وقتية وبعد اجتيازها تخلف في قلبه حزناً ولكن حالما يعمل الخير والفضيلة يشعر في ذاته بفرح دائم يستمر في قلبه نامياً — فإذا لكى يكون الانسان سعيداً يجب عليه أن يفعل الخير أى الفضيلة

وبما أن النطق القويم يعلم الخير يتضح إذاً أن الذين لهم هذه القوّة قادرون أن يعملوا الأعمال الفاضلة فإذا كانت

هذه القوة بطالة فالأفعال التي تصير من النهضة الطبيعية لا تكون فاضلة ولا ردية — مثلاً الأفعال التي تفعلها الاطفال ليس فيها فرق ولا تمييز ومثلهم الانسان المجنون اذا شتم آخر وعمل عملاً بلا ترتيب أو استمكن محتشماً فأفعاله هذه ليست بخير ولا بشر لان النطق المستقيم ليس فاعلاً فيها لكن الفكر الصائب اذا كان فعلاً يدلنا على القوانين التي بها ينبغي لنا أن ندبر أعمالنا ونسوسها — وهذه القوانين تسمى واجبات

١٨٥

﴿ احتفظ على شرفك المختص بشخصك وأئمه ﴾

لا مشاحة أن الانسان يجب سعادته وذلك يكون بعمل الفضائل — والفضيلة الأولى هي أن يعيش كما يقتضى لشرفه الشخصى أى أنه لا يحتقر الناس ولا يهينهم لأنهم هم أيضاً لهم الشرف الشخصى نفسه ولا يستهزئ بفاعليه ولا بالله تعالى الذى خلقه فكل اباحة فى اللذات التى تهين شرفنا وتجعلنا بهائم عوضاً عن أناس ناطقين هى خطيئة فلا يجب أن يضل الانسان عن شرفه خوفاً ولا ارضاء الناس ولا لألم من الآلام ولا يتعبد

لآخر لتلا يلزم لأفعال مهينة لشرفه الانساني فمن هذه الشجاعة
التي يمكن أن تسمى حمية شريفة يفيض الامسالك والطهارة
والتواضع والسجايا التي منها تتمتع بفرح راحة ضميرنا الذي
لا يوصف بكرامة الناس وبالأنس وقوة النطق - فهذه
الطريقة نصلح ونزيد كل فرح عائد الى العيشة المشتركة وبمعكس
ذلك أي اذا أهان الانسان شرفه الشخصي فانه يرذل ذاته
ويصير حقيراً مردولاً مرأثياً كذوباً متشامخاً مفرطاً متردقاً
بهيميا فيعيش بالبذخ والاسراف مجتهداً في أن يكون مرضياً
رفقاءه المشابهين له ويقول انه عائش بالظرافة والانشراح ليغطي
عيشته وسيرته القبيحة لكنه لدى التحقيق نجده خالياً من
الانشراح ودينياً حقيراً جداً وعبداً ذليلاً لآلامه وشهواته
ومستوجب الاحتقار والاهانة من كل انسان فاضل - فضع
أمام عينيك نتائج الفضيلة الممدوحة وعواقب الرذيلة المنهي عنها
اهرب من المعاشرات الرديئة وابتعد عنها وقبل كل شيء ضع
في عقلك عدل الله تعالى

١٨٦

﴿ هب أنك وليت الملك فبماذا تعامل أمتك ﴾

لتكون محبوباً عندهم ﴿

إي والله أكون الملك العادل قوام كل مائل وقصد كل
جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفه كل مظلوم
ومنزوع كل ملهوف - وأكون كالراعي الشفيق على ابله الرفيق
الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة
ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والبرد وكالأم
الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها تفرح بعافيته وتغمّ بشكايته
وكالأم الحاني يسعى لأولاده صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم
في حياته ويدخر لهم بعد مماته

أرضى الوالد الرحيم أن يأكل ويشرب أطيب الماء كحل
والمشروب ويلبس الكسى الفاخرة وأولاده يقتنعون من
دهرهم بالخسيس من المطعم والملبس - أرضى أن ينام على
فرش وثير وأبناؤه يتوسدون الثرى

وأكون موجهاً نظري في عمارة الأرض قبل توجيه
نظري الى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة

ولا عمارة الا بالعدل « فالعدل أساس الملك » ومن طلب
الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم
أمره الا قليلا

فالملك الذي يسلب أموال رعيته ويثقل كاهلها بالضرائب
مثله كمثل من يأخذ الطين من أصول حيطان بيته فيطين به
سطوحه فيوشك أن يقع عليه البيت

وليس يعين الظالمين بظلمهم سوى أدنياء تستلذ المثالب
فهم مثل كلب الصيد يتبع ربه ليلتذ لا نفعا جنى بل متاعبا
ومن آثر الدنيا على حسن سمعة وذكر له يبقى ويبقى المناقبا
فذاك كمن عاف النعيم مخلدا بلذات دنيا برقها كان خالبا
وانى أخاف الله تعالى فلا أسلك بأمتى سبيل الظالمين ولا
أسلط المستكبرين على المستضعفين ولا أنظر الى قدرتى الدنيوية
ولكن أنظر الى قدرتى الأخروية وأنا مأسور فى حبائل
الموت وموقوف بين يدي ملك الملوك الأعلى سبحانه وتعالى
غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
ان أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وان أساءوا فبئس ما صنعوا
وأكون موجهاً نظرى الى نشر العلوم والمعارف فى أنحاء

المملكة فقد قال فيكتور هوجو « علموا الجهال ما استطعتم
فان أعظم جرائم الحاكمين أنهم لا يجعلون التعليم مجانا والجهل
ظلمة وان تبعة الذنوب التي تجرى في هذه الظلمة عائدة عليهم
وليس المجرم من يقترف الذنب بل المجرم من ينشر الظلمة
على الأرض »

ولا أسلب أمتي الاستقلال والحرية فانه لا سعادة الا
بالحرية ولا معنى لحياة العبودية فالحرية فطرة طبيعية مفروزة
في كل حي — قال الامام عمر بن الخطاب « تريدون أن
تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »
فعلى عهد الله وميثاقه أن أوصل الليل بالنهار في اصلاح
شؤون أمتي ما استطعت — وما توفيتي الا بالله عليه توكلت
واليه أؤنّب

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ تم ﴾

To: www.al-mostafa.com